الإسلام

ينابيعه . مناهجه . غاياته

محمد امين زين الدين



معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

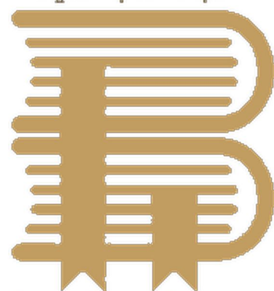
الإسلام

ينابيعه . مناهجه . غاياته

محمد امين زين الدين



معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي





الكتاب: الاسلام: ينابيعه، مناهجه، غاياته.

المؤلف: محمد أمين زين الدين.

الناشر: منظمة الاعلام الاسلامي - معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية

المطبعة: سپهر ــ طهران ــ الجمهورية الاسلامية في ايران

عددالنسخ: ٥٠٠٠ نسخة

الطبعة: الثانية

التاريخ: ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

ليس في كتابي رموز مستغلقة لاتحل الا بعناء، إلا انني حاولت جهدي أن يكون معناه ملء لفظه، فمن يشأ القراءة المجدية فليستنطق كل كلمة منه أو فليدع.

الفهرست

مقدمة الناشر:

هذا الكتاب... جولة عقائدية ممتعة تسير بالقارئ الكريم في رياض الفكر الاسلامي الاصيل.. وتسبح به في آفاق المعرفة العقائدية بدءاً بينابيع الاسلام الصافية الزلال وسيراً على هدى مناهجه الواقعية الفطرية، واتجاهاً نحو أهدافه السامية. كل ذلك في قالب أدبي رائع يفيض به قلم العلامة الجليل؛ استاذ الجيل العراقي المسلم؛ الشيخ محمد أمين زين الدين.

فلنعش اذن مع هذا الكتاب القيم، ولنعبَّ من نميره العذب، ولندع هذا ينعكس على حياتنا الاسلامية شوقاً وتطبيقاً وجهاداً ومضياً في سبيل الأهداف الاسلامية العليا التي قدم الأنبياء العظام وجودهم فداءً لتحقيقها، أوصوا كل الأجيال المؤمنة بالسير على طريقهم... طريق السعادة الانسانية الوحيد.

(ان الدين عند الله الاسلام)

صدق الله العلي العظيم

معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي

الحمدلله اعترافاً بالنعمة، وطلباً للزلفة، وتطلعاً للمزيد. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وفاء بالحق، وتلبية للأمر.

ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا لذين آمنوا، ربنا انك رؤوف رحيم.

بين يدي الاسلام

... هذه سبيلي، أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني،...

بلى. هذه سبيلي، و اذا لم تكن الدعوة الى الله على بصيرة فهي والالحاد الصريح سواء بسواء.

يعتز الاسلام بأن هذه صبغته منذ أقدم أيامه،و يعتز كذلك بأن صبغته هذه لا تقبل النصول ولا التغير مدى الايام والاحقاب.

على بصيرة، و على بينة قوية، و على منطق صحيح صريح لا التواء فيه ولا تعقيد يقيم الاسلام دعوته الى الله، لا كالأديان المنبجسة من الارض، المنطبعة بخصائصها، المغتذية من ترابها.

أقول: لا كالاديان النابعة من الأرض. لأن الأديان النازلة من السماء لن تكون الا على بصيرة، ولن تكون إلا على بينة قوية، والا على منطق صحيح صريح لا التواء فيه ولا تعقيد.

أما تلك فانها من نبات الارض و ان نسبت زوراً الى وحي السماء

وبرهان الكذب فيها هذا الالتواء البين في المنطق، وهذا الوهن البادي على الحجة، ثم هذه الحيرة السادرة في البصيرة...

لست أعدد هاهنا مزايا الاسلام و خصائصه التي أوجبت له التقديم والتفضيل. بل أذكر النعوت المميزة لدين السماء...

اجل. فرافع السماء أوسع علماً و أعظم خبراًمن أن يلتبس عليه توحيد بتثليث أو يتحد في حكمه قدم بحدوث، أو يجتمع في عرفانه غنى و حلول، و باسط الارض أكبر خطراً وأجل حكمة من أن تختلط في تمييزه نبوة ببنوة، أو تمتزج في منطقه إلهية ببشرية، أو يقترن في تعليمه لاهوت بناسوت، و خالق الانسان أسمى تشريعاً وأدق ملاحظة من أن يغفل ماركب فيه من عناصر، وما أودعه من غرائز ومامكن فيه من طباع.

وحسب الاسلام انه الدين الفريد الذي استطاع أن يحتفظ بصورته الأصيلة بين عصف الاهواء وزلزلة الآراء، فأقام حولها سداً من المعرفة، وضرب فوقها سرادقاً من البرهان، وثبتها على أساس من القرآن، فلم تأسن لما أسنت الرواسب ولم تحل لما حال الجو، ولم تضطرب لما اضطربت الأعاصير.

حسب الاسلام أن هداياته وتوجيهاته لن تزال تحت متناول اليد للباحث، وفوق مستطاع النقد للناقد. شريطة أن يرجع الباحثون والناقدون الى هذه الحقائق في منابعها الأولى لا اليها في صورها الأخيرة.

الى الاسلام في كتابه المعصوم وفي سننه القويمة الصحيحة.. لا الى ما بأيدي الناس من أشباح.

أما هذه فلا انكر أنا ولا ينكر منصف خبير من الناس ان للمشتهيات فيها سهماً وافراً، و أن للايدي فيها خبطاً كثيراً.

مشى المسلمون مع الاهواء يوم توزعوا على انفسهم شيعاً، و يوم انقلبوا ـ لا كما اراد الله منهم ـ أعداءً، وهل تلد الفرق وتنشرها إلا الأهواء؟ وهل تثير الخصومات وتغريها سوى المطامع؟ (ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن)

ثم اتسع الهوى فكانت لكل شخص غاية، وتقطعت العصم فعاد كل فرد أمة، و وهت الصلة بالدين فاصبح كل رأي مذهباً !!

وامتد الزمن، واطردت الاحداث، وتلبد الافق، وبعدت الشقة عن الدين، و جاء دور المبادئ الملونة، فكان المبدأ ديناً يقرر الايمان والكفر، و كانت مقتضياته فروضاً توجب الشقاوة والسعادة، وكان الاعتصام به صلة تفرض الحب أو البغض!! فهل سمعت بأغرب من هذا؟!

نحن مسلمون قبل أن نكون رأسماليين أو شيوعيين، فما بالنا لا نتبع محمداً فيما يقول؟!

محمداً العظيم (ص) الذي لم يجد العالم له سقطة في قول، ولا كبوة في عمل ولا وهناً في تشريع، ولا ضعفاً في ملاحظة.

أفهل بلونا مبدأ محمد فى مشكلاتنا الحاضرة أو الغائبة فوجدناه لا يصلح لعلاجها لنلجأ الى طرائق اخرى يسنها ناس آخرون غربيون أو شرقيون؟!

أم هل ترك محمد مشكلة من مشاكل الحياة لم يتعرض لها بحل فاصل و تشريع حكيم؟.

لايزال محمد ـ بعد ـ صادقا في قوله، حكيما في تشريعه، لم يذهب بصدقه الدهر ولم تحل من تشريعه الحكمة، ولم تتغير فيه وجوه المصلحة، ولا يزال مبدأ محمد هو المبدأ الحق في أمره وزجره، وفي أخذه ورده، ولا يزال دين محمد هو الدين القيم الحنيف الذي لاسرف فيه ولا تقصير ولا امت ولا عوج: (وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)

ألا تعجب لفريق من مدعية الاسلام يقرون لمحمد (ص) بالنبوة، و يعترفون لكتابه بالعصمة، و يثبتون لشريعته البقاء والخلود، ثم ينبذون احكام نبيهم و كتابهم ظهريا سعياً وراء كل غربي، والتماساً لكل غريب؟!

ألا تعجب لمن يهيب به محمد ليقوده الى العزة، وليرتفع بموضعه الى الكرامة، وليجعله قواماً لله بالحق، شهيداً على الناس بالقسط، كيف يستحوذ عليه الهوى حتى يضل و تركسه المطامع حتى يذل، و حتى تحيله الأهواء سائمة تقاد أو معلوفة تربط؟!

أضاع المسلمون دينهم الحق و مبدأهم الصواب الذي وجد العالم بركته ايام كان سائراً على هداه.

اضاعوا الحق فاختلفوا وتخلفوا، وسيختلفون بعد و يتخلفون، وتشتد الفرقة وتبعد الشقة، حتى لا اخوة ولا حب ولا عصمة ولا قربى.

* * *

و نبت مع الحوادث كتاب مسلمون.

كتاب في الادّعاء، و مسلمون في التوهم.

قال لهم التطفل كونوا كتاباً، وقال لهم الافتراء كونوا مسلمين.

نبت هؤلاء و نشأوا مع الحوادث ليلصقوا بالاسلام ماتأباه قواعد الاسلام و يبرأ منه كتاب الاسلام!

يبغون ان يكيفوا الدين بصبغة الزمن، وحجتهم لهذه المحاولات ان الاسلام دين القرون، و انه مرن لايأبى الجديد.

يقولون: إن الانسان حلقت به قوادم الفكر، وتقدمت به تجارب العلم، وارتقت بيديه اساليب الحضارة، ولا يسوغ لدين الاسلام ان يتخذ من هذا التقدم المطرد موقف الحائر فلا يدري ما يصنع، او المتفرج فلا يهمه اكثر من ان ينظر.

على الاسلام ان يبارك الحضارة وان يؤازر العقل و ان يواكب العلم، لأنه دين الابد، ودين الناس أجمعين، فلو وقف حيث تتطور الحياة، او تقهقر حيث تطرد الحركة فيها، لعُدَّت رسالته ناقصة ولأصبحت أدواره منتهية، و كان وقوفه هو البرهان الدامغ على قصوره.. هذا ما يقولون.

وهذا حق كله ولا مساغ لمسلم ان يجادل فيه.

يبتغون من الاسلام ان يساند العقل، وهل انزل الاسلام الا لمساندة العقل و نظم حركاته و تسديد خطواته؟ وسنعلم اي مبلغ بلغه الاسلام من هذا الشأو.

ويتطلبون منه ان يبارك الحضارة، و تعاليم الاسلام و تأريخه المشرق الوضاء شاهدا صدق بما لهذا الدين من يد في بناء الحضارة، ودعم اسسها و إعلاء مستواها.

و يريدون منه ان يساير العلم، والخبيرون بطبيعة هذا الدين المطلعون على اسراره يعلمون

مدى اتصاله بالعلم وارتكازه على قواعده.

كل هذا حق لاجدل فيه. ولقد قام به الاسلام خير قيام.

ولكن:

ايتوقعون ايضاً ان ينزلق الناس وراء اهوائهم، ويمعنوا في ارضاء شهواتهم ثم يقولون لدين اللهَ: عليك ان تصحب الزمن وتناصر الحركة وتساير الركب لانك مرن تتسع لكل جديد و تنسجم مع كل حادث؟!

أو يأملون كذلك ان تختلف العقول و تتباين نظراتها، وتتناقض نتائجها ثم يهتفون بالاسلام: عليك أن تؤمن بكل رأي، و تصفق لأي قائل وتتبنى كل نظرية لانك الدين الذي وضعه الله للقرون؟!

أيطمعون بهذا كله و بأمثاله من دين الاسلام، لأنه مرن يتسع لكل جديد، ولأنهم يؤثرون أن يفسروا مرونته بما يشتهون؟!

أي دين هذا الذي يتلون مع الحوادث تلون الحرباء؟! و أية شريعة هذه التي لا تحتفظ لذاتها بجوهر ولا تتميز بصبغة، عدا هذا الانسجام البارد، والتكليف المتناقض؟!

يعرف الاسلام من معنى التوجيه أن يأخذ بيد المتردي حتى ينهض به الى القمة، لا أن ينزلق معه الى الهاوية، و أن يتولى قياد الغريق فينجيه الى الساحل، لا ان يرتكس معه في اللجة، و أن يسعف المبتلى حتى ينيله الصحة، لا أن يرتطم معه في العلة!!

و يعرف الاسلام من معنى التوجيه ان يحفز العقول على التسامي ويحضها على الاستكمال و يدلها على مواقع النظر، و يومي لها الى وجوه البرهنة، لا أن يؤمن بكل ما تستنتجه من نتيجة و بكل ما تلوح لها من لائحة.

الاسلام مرن يقبل كل جديد من الحق ويحترم كل ثابت من العلم، وهذه احدى بينات الصدق فيه واحدى المميزات الغفيرة التي يعتزبها.

يرحب بكل جديد من الحق، لأن الحق واحد وليس بجديد ولا قديم. ويحترم كل ثابت من العلم، لأن العلم يرقى بالانسان عن أفن الجهل و يطهره من درن الشك و ينقذه من غوائل الاضطراب والقلق. وهذه بذاتها هي الغاية التي ارادها الله سبحانه للانسان لما شرع له الدين: (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوعليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة و ان كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

اما نظريات العلم فقد علم المطلعون انها (حوّل قلّب) و ليس من النصف ان نكلف ديناً ما بتصديقها كلها او بتصديق شيء منها على الخصوص.

و مرونة الدين في هذه المواقف ان يكون رحيب الصدر أمام الحوادث، يحفز العقول أن ترتقي و يذكي المواهب أن تتفتق، و يحض العلم أن يتقدم و يطرد، و يتخذ هو لنفسه موضع

الاشراف على الحركة، فيقبل من النتائج ماحصته التجربة وأثبتته الملاحظة حتى استحال عليه التغير، وينتظر بما سواه حكم العلم في أدواره المقبلة.

لايضيق الاسلام بشيء من الاشياء ولا برأي من الآراء اذا كان لذلك الشيء أو لذلك الرأي متسع من الحق لأن الاسلام دين الحق عليه يرتكز ومنه يقتبس: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله).

(وبالحق انزلناه وبالحق نزل، وما ارسلناك الا مبشراً ونذيراً).

أما علوم الكون واكتشاف سنن الحياة واجتلاء نواميس الطبيعة فان الاسلام يتخذ منها أدلة قاهرة على توحيد باري الكون، وأمثلة ملموسة لقدرته الكاملة وتدبيره الحكيم المتقن، والقرآن الكريم يذكر هذا في كثير من آياته ويصل به وفرة كبيرة من تعاليمه.

فيقول مثلا في الآية المئة والثالثة والستين وما بعدها من سورة البقرة:

(والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم. ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون).

ويقول في الآية الخامسة وما بعدهامن سورة الحج: (يا ايهاالناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة... وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج. ذلكبأن الله هو الحق، وانه يحيي الموتى، وانه على كل شيء قدير، وان الساعة آتية لاريب فيها، وان الله يبعث من في القبور).

علم الفلكوعلم طبقات الأرض وعلم الحياة وعلم الاحياء وعلم الأجنة وعلم النبات وعلم النفس وعلم الأنواء وعلم الملاحة وعلم اسرار التكوين، كل هذه أدلة قاطعة على وحدة الله خالق الكون وعلى قدرته التامة. وعلى حكمته البالغة وعلى علمه المحيط وعلى انه سبحانه هو المبدأ والمنتهى لهذا العالم ولكل ما فيه من حي، والقوة والمدد لكل مافيه من شيء. هذا ما تقوله الآيات الكريمة المتقدمة وتكرره آيات اخرى موفورة العدد.

والثمرة الواضحة المحتومة لذلكأن العلوم الكونية كلما اطردت في التقدم وكلما ازدادت نتائجها في الوضوح كانت افادة الاسلام منها اكبر، وكانت دلالتها على صدقه أظهر.

وللاسلام علوم خاصة ولدت في أحضانه، وعلوم اخرى عامة تبناها في كتابه، حسبي أن أومي اليها هنا ايماءة عابرة، فهي مشهورة يعلمها الناظرون في الكتاب المتدبرون لقوانين الشريعة.

واذا استثنينا علوماً شاذة منع الاسلام عنها من حيث انها لا تقتبس من واقع، ولا تمت الى عقل ولا تتكئ على حجة، ومن حيث أنها تعاكس المجرى الطبيعي للحياة، وتخالف الاتجاه المستقيم للفكر، وهذه كعلم السحر والشعوذة والكهانة وبقية العلوم المضللة ـ اذا تجاوزنا بهذه

الكلمة عن معناها فاعتبرنا هذه من العلوم-اقوال اذا استثنينا هذا الصنف وحده امكننا أن نحكم دون تردد ولا استثناء أن الاسلام نصير كل علم وعدو كل جمود، وقد شهد التأريخ بصحة هذا الحكم في جميع أدوار الاسلام، وفي القرآن اشادة بفضل العلماء من كل صنف، وفي وصايا الشريعة تحريض على طلب العلم من أي نوع، و في مذهب الأئمة الطاهرين من أهل البيت -ع- يجب طلب أي علم يتوقف عليه تنظيم الحياة.

و مظهر آخر للمرونة في دين الاسلام انه سن للحوادث كلها أحكاماً عامة شاملة لجميع الأزمان، ثم وضع لهذه الاحكام استدراكات قد تسوق اليها الحاجة و تحويرات قد يدعو اليها تعارض وجوه المصلحة. فهو الدين الذي يرعى الصوالح العامة، و يتخذ الأهبة للطوارئ الخاصة، و يعالج الأمراض بما يجتث الداء و يضمن الشفاء، و هو الدين الذي لن يضيق على احد في حال ولن يكون حرجاً في زمان.

هذه طبيعة التشريع في دين الاسلام؛ قوة ليس فيها اسراف و تسامح ليس معه اسفاف، واعتدال ليس به عوج و تطهير ليس فيه حرج.

والاسلام هو الدين الذي فتح باب الاجتهاد في الاحكام فوضع له القواعد و قرر له المناهج، و يسر اليه السبيل، واثاب المجتهد أجرين حين يصيب، ولم يحرمه من المثوبة حين يخطئ

ولن يشذ المجتهد المسلم عن طبيعة التشريع في الاسلام مادام يقبس مادة اجتهاده من أصول هذا الدين و يرتبط بنصوصه و يتقيد بمفاهيمه، ولن يحمل عليه اثقال سواه مادام يعلم غنى الاسلام بروحه واستقلاله بمنهاجه، وما دام يعلم ان للاسلام وحدة متماسكة لن تتجزأ، و ان لأحكامه صبغة واحدة لن تتغير.

ومن اثر الاجتهاد المستمر انه يغذي الأفكار المتطورة و يبحث الحقائق المتجددة، و يسد الحاجات المتسلسلة.

ولا يزال الاثناعشرية من شيعة أهل البيت (ع) يستمسكون بهذا المبدأ الذي وضعه الاسلام، وهم ينيطون بالمجتهد العادل أهم المناصب الاجتماعية كالافتاء والحكم وأكثر الولايات العامة و بعض الولايات الخاصة، ولايرون غير المجتهد العادل لها أهلا، ولذلك فالاجتهاد عندهم من فروض الكفاية[1].

١ ــ الفرض الكفائي ما وجب على جميع المكلفين أو على جماعة منهم، ثم كان الامتثال ولو من بعضهم سببا لسقوط التكليف عنهم جميعاً.

و سر ذلك أن يكون للآمر غرض جزئي بصدور عمل من الاعمال، بحيث لاخصوصية فيه لفاعل ولا استيعاب له لأفراد.

وأثر ذلك أن يصدر الخطاب عاما إذ لا خصوصية لواحد، وأن يسقط التكليف عن الجميع باطاعة البعض فان المفروض وفاؤها بالغاية.

و من آثار هذا الوجوب أن العصيان من الجميع يوجب استحقاقهم جميعاً للعقاب.

وامثلته في الشرعيات كثيرة ووقوعه في العرفيات أكثر.

أما المذاهب المسلمة التي حرمت انفسها فضل هذه النعمة، وسدت عنها باب هذه الرحمة، أما اهل هذه المذاهب فلا يفتأون يتعلقون بأذيال سياسة زمنية قديمة كان من رأيها ان تحصر الافتاء في رجال، و ان تحشر الناس إلى آراء، فخصصت موارد الفتوى، واقفلت باب الاجتهاد، ثم انتهى عمر هذه السياسة ولم ينته امد هذا الرأي.

وقد لاحت في الآونة الأخيرة بوادر دعوة جديدة إلى حل هذا الوثاق القديم، وهي - بعد - لم تبرح فكرة فتية لها مؤيدون من رجال الدين، ولها معارضون، وأمل المسلمين كبير أن يدركهم اليوم الذي يكسر فيه القيد و تجنى فيه ثمار الفكر الحر.

و بعد كل هذا الذي قدمناه فهل يرتاب منصف في مرونة الاسلام و في انسجامه مع طبائع الأشياء؟ وهل يحتاج في تفسير مزونته إلى اقاو يل هؤلاء الذين أملى عليهم الوهم مالا يفهمون، و عرضهم التطفل لما لا يحسنون.

* * *

و ناشئة من الكتّاب كلفت بأحلام الغرب و بهرتها نظمه و مناهجه، فأرادت ان تحمل دين الاسلام أثقال تلك الفلسفة و ان تطعمه خلاصة تلك النظم سواء كره الاسلام ذلك أم احب..

تلقن هؤلاء الناشئون من أساتذتهم ان المادة هي المحور الذي يدور عليه كل شيء في هذا الكون، وانها هي الحقيقة الوحيدة التي تفسر بها مفاهيمه، و تناط بها قوانينه.

تلقنوا هذا النص من اساتذتهم في الغرب، فما عساهم ينتظرون؟

ماذا ينتظرون وهم مسلمون؟

وأخبرهم آباؤهم ان الاسلام دين الحق، وعرفوا من مجتمعهم انه شريعة الأبد. فما هي نتيجة الجمع بين هذه النصوص؟

إن النتيجة واضحة في انظارهم لا يتطرقها ريب، ولا تحوم حولها شبهة. فالاسلام - دين الحق و شريعة الأبد - ما هو إلا جماع تلك الأنظمة. و خلاصة تلك الفلسفة.

الأنظمة الغربية التي أعجبتهم، وفلسفتها المادية التي بهرتهم.

وهل يستحق الاسلام أن يذكر بتلك الممادح إلا بأن تكون له هذه السمات؟!

ولقد فات هؤلاء الناشئين أن اساتذتهم قد يجنون على الحق وهم يفكرون، وقد يضلون طريقه وهم لا يشعرون..

فاتهم ان الاسلام شريعة مستقلة بذاتها، غنية بنظمها. وان للقرآن فلسفة خاصة تنتهض عليها اصوله و تنشعب عنها مناهجه، وفلسفة القرآن هذه ليست مادية خالصة ولا روحانية محضاً، بل تستقصي جميع انطباعات المادة و جميع خصائص الروح، ثم تقيم موازنة شاملة عادلة بين شتى المناحي وشتى الاتجاهات من هذه و من تلك، و تبني على ذلك لها وحدة في التشريع تضاهي وحدتها في التكوين.

فـاتـهـم أن الاسلام ليس بمادي متطرف يحسب ان المادة كل ما في الحياة فيجب أن ترتكز عـليها كـل فلسفة للحياة. وليس بروحاني جائر يخال ان الروح كل ما في الانسان فيلزم أن يخصها كل تشريع يسن للانسان، بل هو واقعي متزن يحس أن فى الانسان مادة لا غنى بها عن الروح و ان له روحاً لا استقلال لها عن المادة. و يرى أن التشريع العادل ما وفى حقوق المادة في ظل الروح، و ضـمـن مآرب الـروح في هـيـكل المادة. فات هؤلاء ان الاسلام ليس بشرقي ولا غربي، بل هو دين إلهـي يـصلح ادواء الشرق، و يطب أمراض الغرب، و يسمو بالانسانية جمعاء الى نصابها الأعلى من الكمال والى حظها الأوفى من السعادة.

لـيـسـت مـيـزة الـتـشـريـع في الاسـلام أن يـشـبه القوانين المتحضرة في القرن العشرين أو الاربعين. ولـيـس دلـيـل عـظـمته أن يوائم المبادئ السياسية أو الاقتصادية الحاضرة في حل بعض المشكلات، وإن من الجهل الفاضح بنا أن نقول هذا القول و ان نسوم الاسلام هذه المهانة.

اي ور بك انه لمن الجهل الفاضح، و انه لمن ضعف النفوس.. والعقول أيضاً.

يـتـرفع دين الله ان يشبه بأنظمة واطئة تنشأ بين الرواسب، و تقيم في الأوحال، ثم لا ترفع أرؤسـهـا الى فـوق، ولا تـطـمـح بأبصارها نحو القمة. تحسب ان البشر كتلة من الدود، من الأقذار تولد، و منها تغتذي، وفي وسطها تقيم، واليها آخر الامر تعود.

نـعـم. يترفع دين الله عن هذه الانظمة التي تلاحظ الانسان من أخفض نواحيه و تنظر الى الحياة من أحط مرافقها، ثم لا تثبت للانسان ولا للحياة معنى أرقى من هذه المنحدرات.

لـيس الاسلام رأسمالياً ولا شيوعياً، ولا ينتسب الى غيرهما من المذاهب المادية الخالصة، و ان اتـفـق مـعـهـا في عـلاج بـعـض المشكلات، وليست المقابلة بين مبدأ و مبدأ أن يباينه في جميع الـفـروع وان يـفترق عنه في جميع النقاط. بل الفارق الأصيل بين المبادئ أن تتباين في الروح، وان تـتـقابل في وجهة النظر، والاسلام ـ دون شك ـ يباين جميع هذه المبادئ في روحه و يقابلها في وجهة نظره.

و يـؤثـر بـعض الكتبة أن يفسر الاسلام بالرأسمالية لانه يعترف ـ مثلاـ بالملكية الفردية، أو يـصفه بالشيوعية لانه يقرر حقوقاً للعامل على المالك، و يفرض أنصبة في مال الغني للفقير، يحاول هؤلاء ان يفسروا الاسلام بمايرتأون و يتخذون من وجوه الموافقات سنداً لما يحاولون، تضليلا للعقول وتلبيساً للحق بالباطل.

لـغة وضعت السياسة مفرداتها، ولقن المستعمرون تراكيبها، ورددالثرثارون منا أصداءها. يصنعون ذلك ليستعبدوا اربعمئة مليون ونيفاً من المسلمين.

ان الاسـلام صـريـح في دعوته، صريح في بيان فلسفته، صريح في نشر مناهجه والتعريف بـأهـدافـه و غـايـاتـه، و كـل مـبدأ حقيقي يجب ان تكون هذه خليقته. أما الختل والخداع والموار بة وتـلـبـيس الحق بالباطل واستخدام الجهل فلايرتكبها مبدأ يحترم نفسه، أو بالاحرى لا يرتكبها مبدأ

يطلب من الناس العقلاء أن يصدقوه. وليس أدل على إفلاس المبدأ من أن يتناقض، وليس أدل على كذبه من أن يدعي ما ليس له، وليس أدل على صغاره من أن يتخذالجهل عوناً على نشر دعوته.

* * *

وفريق آخر من الكتاب المسلمين ملكت عليهم العصبيات الطائفية مذاهب القول، وأوصدت عليهم منافذ التفكير. يبغون أن يعرفوا الاسلام فيصدعون شمل المسلمين و يقطعون أواصرهم ويمزقون وحدتهم، نعم. و يشكلون الاسلام غايته الأثيرة التي قاسى الرسول ـ ص ـ لانشائها ماقاسى، و كابد المسلمون السابقون لتوطيدها ما كابدوا، وتحمل التابعون في تعزيزها ما تحملوا!!

مستبدون ينظرون في الاسلام من نافذة ضيقة. ثم يحكمون في أمره و يتحكمون و يقولون في أهله و يتقولون، والله حسيبهم على ما يصنعون.

أرأيت المسلم يكيل التهم لأخيه المسلم دون عد، و يختلق الأكاذيب عليه دون مراقبة؟!

أرأيت المؤمن يصور قريبه المؤمن كما يصور الغول. و يتحدث عنه كما يتحدث عن الخرافة، و يقسوعليه كما يقسوعلى الخصم الألد؟!.

ثم أتريد أن أضع بيديك ثبتاً طو يلا بأسماء هذه الكتب، و بأعلام هؤلاء الكتاب؟.

نعم. مسلمون .محمديون. يتلون من كتاب الله قوله تعالى لنبيه: (أدع الى سبيل ر بك بالحكمة والموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن، ان ر بك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين). و يقرأون من نذره التي تقدم بها لا تباعه: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم... ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان). هؤلاء هم. باعيانهم... يعدون ماقبح من اللفظ، وماشنع من الوصف وما وخز من النسب.. لا للبعيد القصي الذي يكيدهم بالقول، ويخسر منهم في الدين، ويمتهنهم في المشاعر، و يستعبدهم في النفوس، و يستبيحهم في الحريات والاموال. بل لأدنى الناس منهم في الدين، وأمسهم بهم في العقيدة، وألمسهم لهم في العاطفة.

....لأكفائهم فى الصلة بالحق، ونظرائهم في القوامة عليه، وأوليائهم بحكم الله و بنص كتابه، لاخوانهم الذين يشاركونهم في الشعور و يواسونهم في البأساء.

إطمحوا بأبصاركم عالية أيها الاخوة لتروا أن الاسلام أرفع من هذا الحضيض الذي تتنسمون، وأرحب من هذا المضيق الذي تتوهمون.

الاسلام دين يعصم العقول أن تنقاد لهوى، وعقيدة ترفع النفوس ان تتهم بسوء، ومبدأ ينقي الأفئدة أن تنطوي على ضغينة، و شريعة تطهر الالسن ان تنطق بكذب... فهل نحن كذلك؟

ان كنا كذلك فنحن حقاً مسلمون.

والاسلام دين تعاطف وأخوة، و شريعة مودة ورحمة، و مبدأ اخلاص وولاء، أليس المؤمنون أخوة كما يعلن كتاب الاسلام في مواضع منه، ورحماء بينهم كما يذكر في مواضع أخرى، و بعضهم أولياء بعض كما يقول في آيات غيرها ولقد كانت هذه نعوت أسلافنا من قبل، فهل نحن كذلك؟

ان كنا كذلك فنحن حقاً مسلمون.

نعم أيها الاخوة، الاسلام دين و عقيدة و مبدأ، وليس رجالا يتحزب لهم أو يتعصب عليهم، فاعرفوا حقيقة الدين، وتمسكوا بلباب العقيدة، وطبقوا قواعد المبدأ، ثم اعرفوا من تشاؤون من الرجال بعد ذلك وتنكروا لمن تشاؤون.

اعرفوا الدين خالصاً لاشوب فيه، صريحاً لا لبس معه، ثم اعرضوا للرجال في ضوء تعاليمه ـ اذا لم يكن لكم بد من ذلك ـ فان منازل الناس تتفاوت بمقدار اتباعهم للحق، وعزوفهم عن الباطل، واخلاصهم في العقيدة.

لايلام باحث أن يستعرض المذاهب بالموازنة المنطقية، و يستوعبها بالنقد النزيه و يحكم في قواعدها البرهان الصحيح. لايلام باحث أن يفعل ذلك تثبيتاً للحجة واستيضاحاً للحق، وقد يكون مثاباً عندالله سبحانه على فعله متى كان حسن النية فيه.

ولكنه يكون ملوماً يوم يتحزب و يتعصب، و يكون مؤاخذاً اعنف المؤاخذة وملوماً أعظم اللوم يوم يجره التعصب الى مالا يحمد، فلا يبصر غير مطاعن ولا يذكر إلا مثالب.

* * *

نشأت هذه الاصناف من الكتاب لتضيِّع البقية الباقية من الاسلام على الباحثين ولتضع العراقيل والاشواك في طرق المصلحين، حتى لو ان أجنبياً رام ان يتعرف الاسلام مما يكتبون لاستبان لدين الله صورة شائهة مفزعة مرعبة يضرب بعضها بعضاً، و يسخر بعضها من بعض.

أما المصلحون المخلصون الذين عرفوا دين الاسلام حق معرفته، وفهموا كتاب الاسلام حق فهمه، والذين نصروا الدين للدين، واتبعوا الصواب للصواب. أما هذا الفريق الخالص من الكتاب المسلمين فهم القلة القليلة. و إن ضوضاء الفتنة لتكاد تخمد أصواتهم، و إن رهج المحنة ليكاد يخفي أشباحهم. غير انهم قويون بالله، كثيرون بمدده، عزيزون بنصره، و ان المرء ليصل روحه بالله من طريق العقيدة فيصلها بمعدن القوة التي لا تضعف و بينبوع العزة التي لا تذل، وبمصدر النصرة التي لاتخذل (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز)

أما بعد فقد حاولت جهدي ان اقتدي بهذه الفئة الصالحة من انصار الله فاعرّف الاسلام كما شرعه الله ديناً قيما لاعوج فيه. و أصور المسلم كما نعته القرآن مثالا للسمو النفسي والخلق الرفيع فكان من هاتين المحاولتين هذا المجهود الذي أضع حلقته الاولى بين أيدي القراء.

ولم اتبسط في القول لأن البسط يفوّت علي بعض الأغراض ولم استوعب لأن محاسن دين

الله تربو على الحدود، و تتأبى على الحصر.

وقد يكون هذا الحديث مقدمة لدراسة مفصلة أوافي بها القراء حين يساعدني التوفيق ومن الله سبحانه استمد المعونة والسداد فيما عزمت وفيما رغبت انه الموفق المعين.

محمد أمين زين الدين

الدّين فى ينابيعه الأولى

يفتح الانسان الذكي القلب المتيقظ الفكر الدقيق الملاحظة، يفتح هذا الانسان بصره على كل مشهد من مشاهد الكون، وعلى كل مجلى من مجالي الطبيعة وعلى كل منظر من مناظر الحياة، فيرى لأي موجود يشاهده في هذا الملكوت نظاماً دقيقاً و ضابطة محكمة، و يرى المكونات بأجمعها ـ حتى الجامدات منها ـ تتبع أنظمتها هذه و تسير على وفقها باقدام ثابتة و بخطى متزنة.

فالشمس والقمر والكواكب والنجوم[1] والفلك والأثير والقوة والمادة والحيوان والنبات والهواء والماء والحرارة والنور والحركة في المتحرك والنمو في النامي، وحتى الذرة الصغيرة ونواتها الضئيلة و طاقتها المخزونة والكتروناتها الدائرة وجسيماتها المؤتلفة، كل أولئك له نظام ثابت وسنن دقيق لن يحيد عنه أبداً وليس في مكنته ان يحيد وقد فسح العلم الحديث للانسان هذا المجال وأشبع له هذه النهمة.

يفتح هذا الانسان الواعي بصره فيشاهد الانظمة والضوابط ملء الكون الفسيح و ملء جنباته وملء دقائقه وذراته، فلكل شيء من الأشياء سنة، و لكل بعض من أبعاضه أو صفة من صفاته سنة، و لكل شيء مع غيره علاقة تحكمها سنة، و لكل طائفة من الأشياء سنة، و لكل مجموعة من الطوائف المتجانسة أو المتخالفة سنة ولمجموعة المجموعات وطائفة الطوائف سنة.

يرى ذلك بعينيه ولا يرتاب في شيء منه ولا يجادل، و يسخر ممن يشكك او يجادل فيه، ثم يغمض عينيه بعد كل هذا الجهد ويهمس في نفسه:

أللانسان كما لسائر الأشياء سنن ثابت و نظام مفروض؟

ألهذا الكائن العاقل نظام محدد يجب عليه أن يتبعه في خطواته الى غايته، ولا يسوغ له ان يحيد عنه، ام هي الفوضى المطلقة المرسلة فلا حدلها ولا شرط؟

١ ـ النجوم هى الأجرام الفلكية التى تشع النور والحرارة. والكواكب هى الاجرام الى تكتسب النور والحرارة من سواها كالارض.

عن الانسان يتساءل!!

عن أرقى نماذج الطبيعة، وأبدع مظاهر القدرة، وعن أسمى ناحية في هذا الكائن الراقي، وأنبه صفة من مميزاته. عن رقيه الى كماله الاختياري!!

عن الانسان وحده من بين موجودات هذا العالم العريض، وعن سلوكه الاختياري خاصة من بين سائر اتجاهاته الكثيرة. كأنه يريد للعقل ان يعلن الفوضى و أن يخرج على النظم!! أو كأنه يريد للانسان أن يكون أحط منزلة من سائر المخلوقات!

وأقول في سلوكه الاختياري خاصة، لأنه لن يملك أن يدخل الفوضى في اتجاهاته الاخرى، فنشوء الانسان و نموه، و تفاعل عناصره و تآلف مواده و تمثيل أغذيته، و تدرج قواه الطبيعية و تحرك كل جهاز من أجهزته واكتمال كل جزء من أجزائه و تكون كل خلية من خلاياه و كل كرِّية من كريات دمه و كل جزيء من افرازات غدده كل ذلك يجري بطرائق آلية محددة و يتبع في جريانه قوانين طبيعية معينة ليس في طاقة الانسان ان يتخلف عنها أو يتبع سواها رضي ذلك أم أبى.

و حتى عقله النظري والعملي هذا الذي يطمع الطامعون بخروجه على النظم، له في تكوينه وفي نشأته الطبيعية نظام رتيب لن يسعه أن يتخلى عنه أبداً.

و معنى ذلك ان النظام سنة من سنن الكون العامة، و أن الأشياء كلها متساوية في الاذعان لها، فلكل شيء نظام معين لن يزيغ عنه الى غاية معينة لايعدوها.

و اذن فلِمَ يريدون من الانسان وحده ان يكون بدعاً من الموجودات فلا يكون له نظام محدد؟!

و هل في استطاعة كائن ما أن يتخلف عن نواميس الوجود؟!

و هل لهذا الاستثناء الغريب من سبب يوجب ذلك؟!

قد يقولون علة هذا الاستثناء ان المرء كائن عاقل، يفعل بارادة و يريد عن تبصر، فباستطاعته ان يفكر في العمل قبل إصداره، و أن يوازن بين جهاته المختلفة قبل التصميم على فعله، ثم يفعل بعد ذلك أو يترك وفقاً للحكم الذي يصدر، وللوجهة التي يؤثر، فلا حاجة بالمرء الى غاية واحدة عامة يتجه اليها في فعله ولا الى نظام شامل ثابت يستن به في سلوكه.

قد يقولون: هذه هي علة الاستثناء، وإذن ففي قياسهم هذا أن عقل المرء و تفكيره هما السبب في حرمانه من هذا الحق وفي اسقاطه من هذه الكرامة!!.

عقل الانسان و تفكيره ـ أكبر مصادر الخير له و اغزر ينابيع الكمال فيه ـ يكونان هما بذاتها السبب في حرمانه من الخير وابعاده عن الكمال.

انه لحكم غريب جداً يكاد لغرابته يلحق بالمتناقضات!!.

وقد يقولون: عقل الانسان و تفكيره هما اللذان يسنان له منهج الكمال، ثم يرتفعان به

صعداً إلى الغاية، فلا حاجة بالانسان الى مشرع وراء ذاته يخطط له المنهاج، ولا الى دليل يقتدي به في السلوك.

و هو قول قد يبدو له وجه مقبول، وسنعرض له فيما يأتي من المباحث، و سنتبين مقدار حظه من الوجاهة.

لابد للانسان (في ارتقائه الى كماله الاختياري) من نظام محدد أسوة له بسائر الموجودات في الكون و بسائر الاتجاهات المختلفة للانسان.

ولابدمن أن يكون قانون الاستكمال في الانسان كقوانين الاستكمال في الموجودات الاخرى واحداً لا يقبل التعدد و ثابتاً لا مجال فيه لاضطراب ولا تخلف.

و اذا كانت القوانين الكونية الموجودة لكمالات الأشياء مصنوعة لصانع واحد يدبرها بحكمة واحدة و يسيرها الى وجهة واحدة فلابد و ان يكون قانون الاستكمال في الانسان من صنع ذلكالواضع أيضاً، و من آثار تلكالحكمة و من متممات ذلكالقصد.

لا مناص من هذا كله لانه من النواميس المتبعة في الوجود. ولن يملكالانسان أبداً أن يشذ عن واحد من هذه النواميس.

والكون مجموعة واحدة متماسكة الاجزاء متسقة الحركات، تجري في مدى متشابه الى غايات متشابهة، والانسان من هذه المجموعة جزء ليس في وسعه أن ينفصل، وليس من الخير له أن ينفصل فلابد و ان يكون كماله شطراً من الكمال الاكبر، ولابد و أن يكون نظامه جزءاً من النظام العام، ولا بد وان يكون القيم عليه هوباري المجموعة الكونية والقيّم على تدبيرها والواضع لنظمها.

والفارق الوحيد ما بينها هو ان الاستكمال فيما سوى هذا الاتجاه من الانسان طبيعي فيجب أن تكون سننه سنناً طبيعية لا مدخل فيها للارادة، و ان رقي الانسان في كمالا ته هذه اختياري فيجب ان تكون شريعته وضعية تقوم على الارادة و تعتمد على الاختيار.

وأخيراً أعرفت ما هو الدين؟.

هو هذا النظام المحكم الشامل الذى يرقى به الانسان إلى نصابه الأعلى من الكمال...

أفترغب فى ايضاح أكثر من ذلك؟.

* * *

يغرس البستاني ساقا من الكرم أو يضع بذرة من القمح، بعد أن يختار له المنبت الزكي و يتحرى له الجو الصالح و يتربص به الزمن المناسب، و بعد أن يكدح في تنقية التربة و تمهيد الأرض، ثم يتعهد ما غرسه بالرواء الكفي، و يعكف عليه بالنظر الدائم والاصلاح اللازم، يصنع جميع ذلك و يدأب فيه لأنه يأمل ان الغراس سيؤتيه اُكله بعد حين..

لقد افادته التجارب أن العود يفرع و أن البذرة تنمو، و ان الزرع ينتج و ان النتاج يجنى، واذن فستورق هذه البذرة وستربو و تثمر و يونع ثمرها، وسيجني هو قطاف غرسه و نتاج عمله.

هذه الفكرة تعمر قلب الفلاح وهو يغرس، و تهون من متاعب الزارع وهو يكدح، وتنشط كل عامل في هذه الحياة وهو يعمل.

و اذن فالناس كلهم يوقنون بأن القاعدة الطبيعية في الاشياء هي الصحة، وان القياس العام في الامور كلها ان تتوجه الى غاياتها توجهاً طبيعياً لا عرقلة فيه و ان تؤتي ثمارها ايتاءً كاملا لا نقص فيه. أما الآفات والمعوقات فانها قد تعرو الشيء فتعتاقه في المسير أو تبطئ به عن الانتاج و لكنها ـ على اي حال ـ أمور طارئة عليه وليست طبيعية له، والشيء غير الطبيعي لا يطرد له قياس.

هذا هو الاصل العام المتبع في الاشياء كافة، يدركه الناس بفطرتهم، ويجرون على وفقه في جميع أعمالهم ولا يختلفون فيه ولا يرتابون، ولا يجادل أحد منهم في ثبوته، وهو الأصل كذلك في الانسان وفي قوته المفكرة وفي جهازه الاختياري كله، بل وفي سائر قوى الانسان وعامة اجزائه.

ذلك أن الانسان موجود من موجودات هذا الكون يعنو لقوانينه ولا يتخلف عنها، وقوى هذا الكائن واجهزته و طاقاته اجزاء منه تخضع لما يخضع له من قوانين و ينفذ فيها ما ينفذ فيه من أحكام.

و مقتضى انطباق ذلك المقياس العام عليها أن السلامة في العقل والاستقامة في التفكير هما الأصل الطبيعي في الانسان و ان الميل والنشوز في هذه القوة انما يكونان لأمور خارجة عنها تنتابها فتبعد بها عن الاتساق وتصرفها عن الاستقامة.

الاعتدال في الطبع والفكر ثم الاستقامة في التصميم والاتزان فى العمل، هذا الانتظام المطلق في الجهاز الاختياري، المطرد في كل أدواته ومعداته و كل جزء من أجزائه، الموصل الى تحقيق الغاية المبتغاة منه، هذا هو الاصل في الانسان، و هذا معنى الصحة الطبيعية في نواحيه تلك، و هو كذلك معنى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

غير ان العلل التي تعترض هذه القوى فتعتاقها عن التوازن غفيرة وفيرة.

ذلك ان التكامل في شؤون الانسان هذه اختياري لا يحدث إلا عن طريق الارادة، ولا يتم إلا تحت نفوذها، و صوارف الارادة عن التزام الصواب تفوت الحصر وتمتنع على الحاصر.

ففي المرء جموح أو خنوع في الغرائز، وتقلب أو تطرف في الاهواء، و كبت أو انطلاق في الرغبات، وللمرء طباع يرثها من اسلافه و قد تكون رديئة، ولديه تقاليد يألفها من مجتمعه وقد تكون ذميمة، وله عادات يكسبها بارادته و قد تكون ساقطة، و معلومات يتلقنها بتربيته أو يفيدها بتجربته وقد تكون خاطئة، و تصادم في الميول، و تكافؤ في الدوافع، و عقد نفسانية متأصلة، وانفعالات لاشعورية مكبوتة، وانحرافات أخرى لا تنحصر أسبابها و كل أولئك صوارف للارادة عن التزام الصواب، و كلها عوارض للفطرة تطرأ عليها فتكدر صفاءها و تشرد بها عن اتزانها.

فكان من الضروري لهذه القوى أن يقام لها دليل مأمون ينهج بها منهج الاستقامة، و يكشف لها مغبة هذه الطوارئ و يلمسها اعراض هذه العلل.

من الضروري ان يكون لها هذا المرشد الذي يقيها العثار و يجنبها الخسار، والآفستنزلق ولا نجاة، بل وستموت ولا حياة.

من الضروري لها هذا الدليل المأمون يسيربها الى الاستقامة خطوة خطوة و يوقفها على المعوقات واحدة واحدة، و يبصرها علاج تلك الادواء علة علة.

و هذه هي الظاهرة الأولى من ظواهر الدين الحق والسمة البينة من سماته: «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم[1]» و اذا لم تكن للدين هذه السمة واذا لم يقم تشريعه على هذه الركيزة فليس من الحق ولا من الاستقامة في شيء. وفي الأثر النبوي: (كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه و ينصرانه و يمجسانه).

كل مولود يولد على الفطرة و ينشأ على الاستقامة، ولو انه ترك لفطرته لاستكمل رشده واهتدى سبيله، ولسار هكذا سو يا مستقيما حتى يبلغ غايته المأمولة.

و لكنها الآفات، و لكنها الصوارف، و لكنها التربية الفاسدة وايحاءاتها الملتوية. والتياثها بغرائز الطفل و مشاعره، وحشو ذهنه بالاباطيل والأضاليل، هذه الجراثيم الفتاكة التي تحدث العلة وتعمق جذورها و تنشر بذورها، هذه هي التي تلتوي بالفطرة عن استقامتها و تشوه محاسنها و تحولها عن مجراها، و تحمل الطفل حملا ان يجري مع الاوهام و أن يخضع للأساطير، و أن ينحرف في تفكيره و ينحرف في عقيدته و ينحرف في سلوكه.

* * *

هناك في أعماق الانسان، وفي قرارة نفسه و طوايا قلبه نزعة متأصلة، يشعرها جيداً حين يتجرد لاحكام الغريزة، و يغفل عنها حين يندفع مع الحياة العامة، وحين تستبد به ملابساتها و تتقاذفه تياراتها.

نزعة ذاتية في الانسان قديمة بقدم وجوده، مكينة بتمكن غرائزه و ثبات طباعه، هي نزعة التعلق بغيب مجهول والتوجه الى حقيقة عليا غير محدودة، تنتهي عندها الأسباب، و يستند اليها التدبير، يرغب في رضاها ويحذر من بطشها.

و مما يدل على هذه النزعة من الانسان، وعلى مدى اصالتها فيه، وعلى مبلغ استسلامه لها أن فكرة الدين والجانب الالهي منها على الأخص قد تخللا تأريخ البشرية، وعما أجيالها، و تغلغلا في جميع قبائلها و جميع اقطارها. بحيث لم يخل منها عصر من عصور التأريخ، ولم تنسلخ عن التمسك بها امة من الامم مهما انتبذ بها الزمن ومهما شطت بها الدار، و مهما ذهبت بها (البداءة) واتضعت بها الهمجية واختلت بينها موازين الاخلاق.

١ ــ الروم: ٣٠.

فهي شعور راسخ ثابت في جبلة الانسان، وفي نزعات أفراده، و ان بدت منحرفة المظاهر لدى كثير من الامم، فقد اتخذ الانسان من الحجارة و من التماثيل و من الحيوان والنبات آلهة مدبرة يعقد على رضاها الأمل و يتزلف اليها بالعبادة و يطلب معونتها في الحوائج، و يضرع اليها في النوازل، وقد تسامى به الوعي قليلا لما أله النار والنور ولما عبدالأرواح والكواكب.

وارتقى به الشعور ورام أن يفلسف صنيعه هذا فقال بالتثنية، بالّه للخير وإلّه للشر، بالّه للنور و إلّه للظلمة، و قال بالتثليث، بأقانيم يلتئم منها واحد، أو بأعضاء تتألف منها شركة واحدة، وقال بآله لكل نوع من الأنواع، و قال بآله لكل ظاهرة من الظواهر، و قال بالتعدد المطلق، فلا حصر للآلهة ولا ضبط وقال بالاتحاد، وقال بالحلول، و تناقلته أهواء وتقاذفته امواج. و هذا التأرجح الدائب و هذه الذبذبة المستمرة انما هما وليدا هوى مكين يعصف به أن يتوجه و يعصف به كذلكان يتعرف.

و يشعر المرء شعوراً قو يا بهذه النزعة حين يعلق بحبائل القدر فلا يستطيع الفكاك ، و حين يقع في قبضة الظلم فلا يملكالانتصار. هنا وهنالك يفزع بفطرته الى قوة غيبية قادرة قاهرة، لا حدّ لقدرتها. ولا منتهى لسلطانها، تملكالفَرَج وتحكم بالعدل. يفزع الى هذه القوة الغالبة العالمة لتنقذه من الشدة، أو يستعديها لتنصفه من العدوان.

والتطلع إلى الغيب المجهول في صورته المصغرة يوجد لدى الاطفال في أولى درجات التميز، ولعل من آثار هذا النزوع المبهم اننا نرى الاذكياء منهم يلحفون في السؤال عن مصدر الشيء ثم يرتفعون بسؤالهم والحافهم مع سلسلة أسبابه، ولا يقنعهم أن نقف بهم على سببه الأدنى، ويمعنون كذلكفي الاستفهام عن غاية الشيء، و يتدرجون في الاستفهام والاستقصاء مع سلسلة غاياته، ولا يروي ظمأهم أن نذكر لهم غايته القريبة.

اقول : لعل استقصاء الطفل هذا من أصداء تلكالنزعة التي تحدّث عنها العلماء النفسيون، فكأن الفطرة توحي اليه ان للأشياء علة أولى يجب أن تستند اليها العلل، و ان لها غاية كبرى يجب أن تنتهي بها الغايات. لعل استقصاءه هذا من آثار نزعته تلك، ولعله من آثار شعوره (بقانون السببية) فهو الآخر فطري من فطريات الانسان، و هو كذلكركيزة من ركائز الايمان، ولعله رجع لكلتا الفطرتين، فولوعه بالمسألة عن العلة استجابة لهذا الشعور، وارتقاؤه الى سلسلة أسبابه تلبية لتلك النزعة.

و يصرح كثير من علماء الاجتماع و كثير من مؤرخي الأديان و علماء النفس بأن التدين احدى الغرائز النفسية للانسان، و يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين: (ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية واقربها إلى الحياة الحيوانية، و ان الاهتمام بالمعنى الالهي و بما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية).

وقد غلا بعض هؤلاء العلماء فذهب الى أن جراثيم هذا الشعور الديني توجد لدى

الحيوانات، وادعى ان بعض انواع الحيوان تشيع فيه نزعة دينية غريبة حين يحس بالموت، أو حين يشعر بهبوب أنيّ جارف أو نكبة كونية[1].

و سواء أصحّت هذه الدعوى من قائلها أم لم تصح فان ثبوت هذه النزعة للانسان مما لا يسمو اليه ريب ولا تحوم حولها مظنة.

هذه النزعة الاصيلة في الانسان هي الخلية الاولى من خلايا الدين، والنواة التي يتكون من تطورها تركيب جسمه وائتلاف عناصره.

ويجد المرء نفسه في غمار هذا الكون المزدحم بالعجائب المفعم بالجمال، و يقلب بصره فيما حوله من مكونات، ويجيل بصيرته فيما يعيه لها من قوانين، وفيما يدركه من غايات، فيجد مظاهر الحكمة و مجالي الابداع في ما يبصر و في ما يعي، في ما يدرك بحسه وفي ما يستبين بعقله و في ما يتلقف بذوقه.

ثم يتحسس نفسه و يتحرى دقائقها و يستعرض خصائصها فيرى بها آية الآيات و بديعة البدائع!

يدرك المرء جميع هذا فيندفع مقسوراً الى التساؤل عن العالم الذي يحيط به. وعن نفسه التي يجهل كنهها ويجهل اكثر خفاياها.

عن المبدأ الاقصى لهذا الوجود، و عن الغاية الأخيرة من تكوينه.

عن الحياة هذه التي تعمر الكون. و عن ظاهرة الموت التي تعقبها.

و عن الموت هذا أله نهاية محتومة كما للحياة التي تسبقه، أم هو سرمدي ليس للأنام بعده منقلب؟.

وعن الأسباب القريبة التي تحدث عنها الأشياء، ألها مسبب أعلى اليه تنتهي، و من قوته تستمد، أم هي مستقلة مترامية؟ مستقلة فلا مصدر لسببيتها و مترامية فلابدء لسلسلتها.

وهذا الاستقلال في السببية و هذا الترامي في الوجود أهما من الممكن أم هما من المستحيل؟.

فاذا وجد المرء لهذه المسائل حلولا مقبولة و إذا انطبعت النتائج في نفسه عقيدة و ارتسمت على قلبه ركوناً و طمأنينة فقد تألفت لديه العناصر الاولية والمهمة من عناصر الدين.

الدين نزعة مجردة حين تهدي اليه الغريزة و تومي اليه الفطرة.

و فكرة محض حين يتناول العقل الواعي حقائقه بالنقد و يعرض أصوله على البرهان.

وعقيدة خالصة حين تستمسك به الروح و يلتزمه القلب.

و ايمان ثابت حين يغمر هذين بفيض الاخلاص، و يعمرهما بأشعة اليقين.

١ ــ نشأة الدين للاستاذ علي سامي النشار ص ٣٠.

وعمل زكي حين تسلم له الارادة و يخضع له السلوك.

* * *

ضع شيئين متفاضلين بين يدي طفلك وخيره بينهما ثم ارقبه أي الشيئين يؤثر.

فانه سيختار أفضلهما ولا يتردد في ذلك.

وأبدِ إعجابك بفعل يأتي به أو بكلمة يقولها أو بحركة يصدرها، ثم انظر ما يصنع.

فانه سينشط لذلك الفعل وسيكرره ما أبديت إعجابك به وماواليت تشجيعك إياه.

وتشاغل امامه بعمل من اعمال العقلاء ثم ارصد مايفعل.

فانه سيقلدك في ذلك العمل، وسيحاول الابداع في المحاكاة.

فلماذا تصدر من الطفل هذه المحاولات؟

و يقول علماء التربية الحديثة، و يقول علماء علم النفس الحديث: كل ما يعمله الطفل في سنيه الأولى من عمل و كل ما يقوم به من تجربة فانما يلبي به نوازع الفطرة و نداءات الغريزة. و اذن فمحاولات الصغير المتقدمة انعكاسات للفطرة وانبعاثات مع دواعيها، فالفطرة هي التي تحفز الانسان ـ منذ طفولته ـ أن يختار الجيد من الامور والأجود منها عند التفاضل. والفطرة هي التي تحمله على أن يصبح مثاراً للاعجاب و موضعاً للاطراء. والفطرة هى التي تفرض عليه أن يحترم الاكابر من الناس و ان يتخذ منهم قادة في الأعمال ومُثلا في الصفات. فهل نستطيع ان نعلل هذه الدوافع المتغلغلة في نفس هذا الكائن؟ وهل نستطيع أن نعرف لماذا يولع الانسان بتحسين مظهره و إتقان أعماله وتنسيق حركاته؟ بل ولماذا يتكبر المتكبرون من أفراده و يرائي المراؤون؟ ولِمَ يدعي الناقصون منهم الكمال و يتظاهر الجاهلون بالعلم؟.

في نفس الانسان رغبة ملحة للارتفاع، ونزوع قوى الى التسامي و يبدو انه انما يقوم بهذه الاعمال تلبية لهذه الرغبة، وارواءً لهذه الغلة.

نعم كل هذه المظاهر و كل هذه الأعمال ـ حتى ما شذ منها عن الخلق القويم ـ اصداء لهذه الرغبة، النفسانية الملحة، و لكنها في الشواذ من الاعمال والمظاهر والأخلاق استجابة ملتوية وانقياد غير متزن.

ولعل السر في هذا الالتياث، في هذه المسالك الملتوية التي يركبها الانسان الملتوي، و في هذه الادعاءات الجوفاء التي يفتتن بها الرجل الاجوف، لعل السر في ذلك أن الانسان يعز عليه أن يخسر الكمال، و يكبر عليه ـ اذا خسر الكمال ـ ان يعترف على نفسه بهذا الخسران.

يعز عليه أن يخسر الكمال لأن التفسير الصريح لذلك أنه منهزم.

و يكبر عليه أن يعترف بالخسارة لأن مدلول ذلك انه يسجل على ذاته هذه الهزيمة، و لذلك فهو إذا خسر الكمال لجأ الى انتحاله، و اذا أفلس من الرفعة ركن الى ادعائها، و كأنه ينشد في الانتحال عزاء لنفسه عن الاخفاق، و تعويضاً لها عن الحرمان. ونزعة التسامي هذه كسائر نزعات

الانسان و صفاته يدخلها الاعتدال والانحراف وتتسم بالرقي والهبوط.

و اذن فالكمال هو الهدف الاعلى للانسان من جميع افعاله و تصرفاته، و أخال أنها نتيجة بينة لا مساغ فيها لتردد ولا منفذ في دليلها لريبة، فان دليلها هو الفطرة السليمة.

لا أغلو فأدعي ان الكمال هو غاية الانسان من جميع أعماله ومن جميع تصرفاته حتى ما يكون فيه عابثاً أو مقاربا للعبث، او آثما او مدانياً للاثم، بل اقول الكمال غاية الانسان من أعماله حيث يؤثر أن يبقى انساناً يعتزّ ببشريته و يحتفظ بحدوده.

أما التحلل والترهل فانهما يهو يان به عن هذه المنزلة ولا مراء.

وتستتبع النتيجة المتقدمة نتائج اخرى هن مثيلاتها في الوضوح و عديلاتها في القوة، مقاييس عامة نزن بها الأعمال و نقيس بها الصفات و نفرق بها بين الخير والشر، و بين موارد الخير و موارد الشر.

فالخير كل عمل أو تصرف ينتهي بنا الى هذه الغاية الفطرية المطلوبة.

والشر كل سلوك أو معاملة تقصينا عنها.

والزكي من الأخلاق كل سجية أو عادة تكون بينها و بين الكمال رابطة وشيجة و نسب عريق.

والرديُّ منها ما يكون على الضد من ذلك.

هذه هي المقاييس الصادقة التي ترتكز في ثباتها على الوجدان و تستمد قوتها من البرهان، والموازين العامة التي لا يختلف عليها امدو لا تنكرها بيئة ولا تنتقض في مورد.

أليس بديهيا ان كل أحد ينشد الكمال بفطرته. ثم يتجه اليه بجبلته؟.

كل أحد من البشر أياً كان جنسه و أين كان موضعه و أنى كان زمانه.

ثم أليس بديهياً كذلك ان ما حال بين الشيء و بين غايته الطبيعية فانما هو حجر عثرة و قاطع سبيل؟.

و هذه الحاسة العجيبة المودعة في قرارة الانسان و في خبيئة نفسه؟

هذه الحاسة المرهفة التي أقامها الله رقيباً من الانسان على الانسان، وقيماً من نفسه على نفسه.؟

حاكما نزيه الحكومة. و شاهداً مرضي الشهادة. ونصيحاً مقبول العظة، ومعاقباً مرهوب السطوة مخشي العقوبة.

يزن الافعال فيأمر و ينهى، و يقارن بين الغايات فينصح و يشير، و يرقب السلوك فيثيب و يعاقب...

الضمير الأدبي الذي ليس يخلو منه فرد من افراد الانسان، وليس ينِدُّ عن سلطانه صغير ولا كبير من الاعمال..

لأية غاية ارصدت للمرء هذه الذخيرة، وحشدت في نفسه هذه القوة؟

طموح نفسي يتقد، ورغبات فطرية تتوثب، و غرائز أصيلة مشبوبة تمد ذلك الطموح منه بالقوة، و ترفد تلك الرغبات بالوفرة والشدة، و مقاييس ارتكازية عادلة يوزن بها فلا تخطئ، و يعمل بموجبها فلا تتباين، و ارادة قوية فعالة تخلق المعجزات وتصنع الاعاجيب، و حاسة حافزة تدعو الى فعل الخير وتثيب عليه، وتزجر عن عمل السوء وتجزي به!!

أليس كل هذا الحشد و كل هذه التعبئة و هذا التجاوب العميق بين قوى الانسان ورغباته و بين حوافزه واعماله، أليس كل هذا إعداداً لهذا الكائن الى كمال منتظر، وتأهيلا له الى غاية مبتغاة؟.

ثم أليس من الخطل في الحكمة أن يعد للانسان هذا الرصيد الضخم و أن تودع فيه هذه الرغبات العنيفة والطموح العارم الشديد ثم يقفل دونه الباب و يوصد في وجهه السبيل؟

أليس معنى ذلك أنه يوكل الى قلق نفسي لايهدأ، والى حيرة فكرية لا تهتدي؟

وليتساءل المولعون بالطعن المغرمون بالهدم، لو ان صانع الكون و واضع قوانينه ترك الانسان فلم يشرع له قانوناً. ولم يجعل له ديناً. ألا يجعلون ذلك منفذاً للطعن في الحكمة، أو النيل من القدرة او الحط من العلم؟.

ألا يقولون ان حكمة الخالق قد حالت أو ان قدرته قد قصرت، أو ان علمه قد ضاق؟.

إن الغاية سامية رفيعة و ان الحوافز اليها في نفس الفرد مكينة قوية، ومؤهلاته لبلوغ الغاية كثيرة موفورة، و عناصر الاختيار فيه مجتمعة متكاملة، غير ان السبيل التي تفضي الى الغاية مجهولة، و معالمها معفاة، فما عسى ابن آدم ان يصنع؟ وما يستطيع أن يصنع؟.

و مواضعات العرف وتقاليد المجتمع والقوانين المدنية والنظم الاخلاقية هل تجدي المرء في هذا المجال شيئاً؟ وهل تستطيع ـ لو أوكل اليها أمر الانسان ـ أن تكون له وحدة في سلوك و أن تجمع أفراده على غاية؟.

الحق أنها لا تطمع في أن تقدم للانسان هذا الضمان، ولن تقوى على الوفاء به إذا ضمنت..

ودليل عجزها هذا التناقض البادي بين مناهجها، و هذا البون الشاسع بين اتجاهاتها..

و دليل عجزها أنها علاجات يقتضيها زمان وتلدها مناسبة، وتحددها بيئة، وكل أولئك سبب للتحديد، وهدف للتغير وعرضة للزوال.

و دليل عجزها هذا القِصَر منها في النظرة فهي لا تحصي طباع المرء كلها بالتمحيص، ولا تستوعب ضروراته كلها بالملاحظة، ولا تعم روابطه كلها بالاستعراض، ولا تستقصي غرائزه وركائزه كلها بالمعادلة..

و كيف تملك ان تكون لبني الانسان جميعهم وحدة في سلوك و ان تجمعهم آخر الامر على

غاية اذا لم يكن لها هذا الشمول في النظرة، وهذه الدقة في المراقبة؟

والانسان نوع واحد فن المحتم ان تكون الغاية التي يسمو اليها غاية واحدة، ومن المحتم ان يكون سبيله المؤدي به الى الغاية سبيلا واحداً أيضاً. أرأيت شيئاً من موجودات الكون تخطى هذه الحدود؟.

* * *

ليكن الانسان قرداً مبتور الذنب.

ليكن كذلك.. كما يرغب أن يتصوره بعض الناس.

و ليكن هذا البشري صامتاً نطق، ووحشاً أنس، وأعجم عقل.

لتتحقق كل هذه الفروض كما يهوى ذلكالبعض من الناس.. وكما يحلو لهم أن يفسروا به فلسفة الارتقاء، فهل تختلف النتيجة عما قدمنا؟

أليس التطور سراً مستودعاً في الموجودات، و ناموساً عاماً لا يتأبى عليه شيء منها، ولا يستطيع أن يتأبى ولا يستطيع أن يتأخر؟

في الموجودات كافة، الأنواع منها والافراد على السواء، بل و ماالتطور النوعي الذي تقوم عليه هذه النظرية إلا حصيلة مجتمعة من تطور الأفراد على مَرِّ القرون.

و هذا الاتجاه الاختياري؟ أحد الأرصدة الكبرى التي تملكها الانسان وإحدى المميزات التي استوجبها لما احتل منزلته من سلم التطور، ولما اكتملت حلقته في سلسلة الانواع؟. والعدة الضخمة التي سلح بها لهذه الغاية، وأعدلدوره المقبل من الحياة. وأهّل لموضعه من قمة التطور، وقوة التبصر والموازنة، وطاقة العمل بالارادة، ونزعة التكامل والتسامي، و ملكة التصميم والابداع، وطاقات وركائز سواها تعزز فيه هذا المنحى، و تمكن له من نيل ذلكالقصد؟.

أقول: وهذا الاتجاه الاختياري في الانسان؟ والعدة التي سلح بها لادراك تلكالغاية؟ ألا تكون بدورها خاضعة لسنة التطور و حاملة لسره؟.

اليس للانسان في هذا الاتجاه كمال يسمو اليه و سبيل الى ذلكالكمال ينهجه؟

ثم أليس كماله هذا اختيارياً يقوم على الارادة. من حيث ان الاتجاه ذاته اختياري يقوم على الارادة؟

بلى. و كل ذلكبدهي لامراء فيه.

ولم تبق غير مشكلة المنهاج الذي يرسم للانسان معالم الكمال، ويحدد له رسوم الغاية، والذي يجمع أفراد هذا النوع كلهم على غاية واحدة كما تجمع أفراد النوع الواحد من النبات والحيوان على غاية واحدة كذلك.

* * *

لنفترض انِ الله الذي أحسن خلق الانسان، وأبدع تصويره، وأتقن تركيبه والذي جعل

فيه غريزة التسامي، استودع كل مخلوق من مخلوقاته سر الاكتمال، والذي أعدلكل خلية من خلايا هذا الكائن نظاماً وجعل لكل شيء قدراً. أقول: لنفترض ان القدرة الحكيمة المبدعة اغفلت الجانب الاختياري من الانسان فلم تقم له وزناً ولم تضع لتكامل الانسان فيه منهاجاً. لنفترض الامر كذلك صلة للبحث و مداورة للحديث على وجوهه، فهل يستطيع الانسان أن يسد لنفسه هذه الفاقة فيضع لتكامله الاختياري قانوناً جامعاً لا اختلاف فيه ولا تخلف معه؟.

هذا سؤال أوردناه في بحث سابق ولا سبيل الى اغفاله.

من الممكن المقبول أن ينتهض عقل مفرد أو تتساندعقول متعددة فتشرع قانوناً لشعب أو قانوناً لشعوب، تقيمه على واقع محدود و تنتزعه من ملابسات معينة، ثم يمر زمان و تتبدل أوضاع و ينتهي الواقع الموجب، وتحول الملابسات المقتضية فيلغى القانون أو تعدل مواده.

ومن الممكن المقبول أن يصطبغ عقل بفكرة معينة فيحاول ان يصبغ بفكرته هذه كل سلوك الانسان، و ان يؤول بها كل حركاته، و ينيط بها كل صلاته، ثم يمعن في تحميل هذه الفلسفة ويوغل في تطبيقها، فيقيم عليها دستوراً لاجتماع الانسان و قانوناً لسياسته و نظاماً لاقتصاده و يربط بها مناهج وقواعد تعليمه.

من الممكن ان يبلغ مفكر بشري هذا المبلغ ثم يتضح لمفكرين آخرين وهن الاسس منه و اهتزاز الدعائم و خلخلة البناء.

و من الممكن أيضاً ان يستقل كل أحد بذاته فيضع لنفسه ـ أوله ولأ سرته ـ منهجاً، و يعين له ـ أوله ولا تباعه ـ حدوداً. ثم يسيرويسير معه أولياؤه الى حيث ينتهي به وبهم المنهج والى حيث تقف به وبهم الحدود، و بديهي أن لا نتوقع من هذه النظم المختلفة ان تنتج لبني آدم وحدة في سلوك ولا اجتماعاً على غاية.

انها فوضى النظم وانتشار الوحدة و بلبلة الغاية.

ولقد جرب الانسان نفسه، ولقد امتحن طاقته في وضع القوانين وابتكار الفلسفات المنهجية وتدعيم أسسها وربط فروعها حتى بلغ به الجهد و ترامى به القصد فلم يخرج عن هذه الحدود ولم يرتفع عن هذه المنحدرات.

من المستطاع ان يبلغ الفكر البشري ـ بذاته ـ هذا المبلغ، ولكن من الممتنع عليه ان يخلق النظام الحقيقي لرقي الانسانية جمعاء.

النظام الذي يضمن للانسانية كمالها الأعلى ثم يملك أن يفي لها بهذا الضمان.

للانسانية كافة بجميع أجيالها وأشكالها.

النظام الذي له كل سمات النظام الحقيقي لهذه الغاية. و لذلك فلا مناص من ان يكون واحداً لا كثرة فيه، وثابتاً لا اضطراب معه، وجامعاً لا قصور فيه.

لا مناص من أن يكون واحداً لا كثرة فيه. لأن المبدأ الواحد والنهاية الواحدة لا يصل

بينهما اكثر من خط مستقيم واحد.

ولا مناص من أن يكون جامعاً لاقصور فيه لان الهدف منه هو الكمال الأعلى للانسان والكمال الأعلى وحدة تندمج فيها كل فروع الكمال، فلا محيد من أن يكون السبيل اليه سبيلا جامعاً، ولا محيد من أن تكون النظرة فيه نظرة عميقة مستوعبة.

ولا مناص من أن يكون ثابتاً لا اضطراب معه لأن المنهاج القلق المضطرب لايقر وحدة ولا يفيد طمأنينة ولا يفي بضمان.

أقول: من الممتنع ان ينهض عقل مفرد او عقول متعددة بهذا التشريع الوافي:

(١) فان للفكر البشري عوارض كثيرة تعتاقه عن النظر السليم، و تحول بينه و بين النتائج السديدة، وقد أومأنا من قبل الى بعض هذه المعوقات، و هولذلك قد تحول في رأيه وجوه الحكم فيستقبح ماهو حسن و يبيح ماهو محظور، وقد تلتبس عليه المرجحات فيرتاب حيث لامكان للريب، و يتردد حيث لا مساغ للتردد، ومن للعقل (بذاته) ان يتغلب على جميع هذه الآفات، وقد عرفنا انها لا تخضع للحصر؟

و بأية وسيلة يملك أن يحصيها و يلاحظها و بعضها لاشعوري كما تقدم؟

و كيف يشعر بأنها عقبات معوقة، و بعضها أثير لدى النفس مرغوب عندها؟

أقول: كيف يملك العقل (بذاته) ان يحيط بها كافة، ثم يعلم - بعد الاحاطة بها- انها آفات تنصرف به عن النظر الصحيح، ليفكر في الاحتراس منها على الاقل؟

(٢) وهب أن قوى الحكم والموازنة في الانسان ملكت ان تصنع المعجزات، و أن تتعالى علي المؤثرات، عليها جميعاً حتى على العقد اللاشعورية المترسية في نفس ذلك الكائن، و حتى على الرغبات المكبوتة في العقل الباطن، وامكن للانسان من اجل ذلك ان يفكر تفكيراً سليما لا لبس فيه، فهل يقوى كذلك ان يحيط بشتى المؤثرات على عامة العقول والنفوس والأمزجة في مختلف البقاع والازمان والبيئات، اقول هل يقوى ان يحيط علماً بجميع هذه العلل و بعلاجاتها ليقدم للانسانية بأسرها هذا الضمان القانوني الخطير؟.

(٣) وهب ان العقل ارتفع عن المؤثرات فاحرز لنفسه سلامة التفكير، و أحاط بطوارئ العقول و بعلل النفوس وادواء القلوب، احاط بها كافة و بما يصلحها فأمكن له وصف العلاج، فهل يتسنى له أن يضع القانون المطلوب و ان يبتدئ برسم خطوطه قبل ان يتعرف حقيقة الانسان، وحقيقة كون يحتو يه، و حقيقة حياة تشركه مع سائر الاحياء.

قبل أن يتعرف حقيقة الانسان لأنه الموجود الذي يريد أن يترسم له الكمال و يرتاد له السبيل و كمال الشيء ليس امراً منفصلا عن حقيقته، وانما هي ذاته تتبلور وتنجلي، ثم تسمو وتعتلي حتى تتبوأ أعلى حد من حدودها،وتستوفي اكبر حظ من (امكانياتها).

و قبل أن يتعرف حقيقة الكون و حقيقة الحياة لانهما البيئة الطبيعية لهذا الكائن، التي

تحتضن جميع نوعه وتنضج له كل طباعه، و تطبع كل خصائصه، و تصوغ كل افكاره و مشاعره، وتلون كل حركاته و اعماله، وتتفرع عن قوانينها كل قوانينه و انظمته، كل قوانينه الطبيعية لتركب جسمه و تفاعل عناصره و حركات أجهزته و تجدد خلاياه.

هل يتسنى للعقل أن يضع القانون المجدي مالم يكتنه هذه الحقائق و يستنطق اسرارها و يستبطن أغوارها، و ما لم يتبين حدود الحياة التي يحياها الانسان أهي مرحلة واحدة تبدأ بالميلاد و تنتهي بالممات أم هي أطول مدى وابعد غوراً من ذلك؟ ومالم يستوضح الغاية الكبرى التي من اجلها فطر الكون وانشئت الحياة و برئ الانسان، والتي ينساق معها كل جزء من اجزاء الكون و كل وحدة من وحدات الحياة و كل فرد من افراد الانسان. بل و كل بعض من ابعاض جسمه وقوة من قوى نفسه. الغاية العظمى التي تنتظم كل غاية صغيرة من هذا الكون الفسيح العريض؟.

هل يتسنى للعقل أن يضع الخطة الصحيحة المجدية لتكامل الانسان قبل أن يعرف هذه الحقائق اتم المعرفة، ويعلم بها حق العلم، بحيث لا يساوره الريب في مقطع منها، ولا تعتريه الغفلة عن ناحية ولا يدركه الخطأ في صورة؟.

و انى للعقل البشري بهذه الاحاطة و آماد ادراكه محدودة ووسائل معرفته محصورة و اكثر هذه الامور مما تنقطع دونه وسائل العقل و تقصر عنه آماده؟.

(٤) والمتصور في وضع القوانين التي يرام لها الثبات والخلود مع الايام أنها لن تتمّ إلاّ بعد موازنات ومعادلات وحك ونقد وعرض وسبر، وتجارب طويلة وجهود معنتة وتقلب ادوار، وتعاقب أزمان تمخض فيها الحقائق، و تمحص النتائج، حتى يقرَّ القارُّ منها، و يذهب الذاهب.

هذه هي الطريقة المتصورة والمستطاعة في وضع هذا النوع من القوانين. و اذن فما مصير اجيال عديدة من البشر قدر لها أن تحيا و تعيش قبل استقرار النتائج، و قبل تنفيذ القانون؟.

ما يكون مصير هذه الاجيال من البشرية و هي تشارك أجيالها الاخرى في الغاية وتضاهيها في التطلع، و تعادلها فيما آتاها اللّه من مواهب و فيما اعد لهذه الغاية فيها من عدة؟

والحكمة التي قضت بأن يكون للانسان نظام يولي به وجهه شطر الكمال، أليست بذاتها تستدعي أن يكون هذا النظام شاملاً لجميع أجياله و متسعاً لجميع أحواله؟

والبراهين التي حتمت وجود القانون للمجموعة، ألا تحتم كذلك ان يكون هذا القانون شاملاً لجميع أبعاضها؟.

ما يكون مصير تلك الاجيال المحروبة المنكوبة في تلك الآماد الطويلة؟

أفيكتب عليها سوء المنقلب أن تحيا (للعصاب) و تعيش للاضطراب، مترددة متلددة بين هوى الكمال و حيرة الضلال؟!.

(٥) و بعد أن يطوي القانون هذه المراحل البعيدة، و بعدأن يستكمل (بيد العقل او بيد

مشرع سواه) مواده و فصوله، و بعد أن يوضع النص الكامل لعبارته والشرح الوافي بمقاصده، فهل يفي ذلك ـ وحده ـ بالحاجة؟

بحاجة الانسانية التي دعت الى وضعه؟.

الواقع ان تلك المراحل الطويلة والجهود المضنية المضاعفة انما وفت بنصف العمل فقط، وقد بقي نصفه الآخر مفتقراً الى جهد مضاعف والى عناء طويل مستأنف.

لقد تم في تلك المراحل الشاقة دور التّشريع وحده و بقي دور التنفيذ.

دور تنفيذ ذلك القانون الجامع والتمكين له في عقول الخاصة، والتعبيد له في نفوس العامة وحياطته من أن يحرف أو يؤول ورعايته من أن يمتهن أو يخالف. و بديهي ان وسائل التنفيذ الميسورة للانسان لا تستطيع ان تقوم بذلك.

لا تستطيع ان تقوم به لانها لا تقوى ان تمتد على البشرية من اقصاها الى أقصاها، في جميع اجيالها وفي جميع اقطارها واصقاعها.

هذه هي الحدود المفروضة لذلك القانون، واعمال البشرية كافة وصلاتها و اخلاقها ومعاملاتها هي مجالات نشاطه، فلابد من ان تمتد اليها قوى تنفيذه.

ولا تستطيع ان تقوم بذلك لانها لا تقدر ان تتغلغل في نفس الانسان و ان تستبطن دخيلته و تسيطر على عواطفه وانفعالاته، لا تقدر ان تفعل ذلك لتمكن للقانون في نفس الفرد، و تجند له مشاعره و تغرس فيها احترامه واجلاله.

ولا تستطيع ان تقوم بذلك لانها لا تملك تبصراً ينفذ الى السرائر، وعلماً يحيط بالمخبآت، و قدرة تتناول القريب والبعيد، لتدين من يخالف نصوص القانون و إن تستر في مخالفته عن الاعين، او فرّ بجزيمته عن العدل، و ما مقدرة حكومات الارض والقوانين التي تسنها والاحكام التي تصدرها، ما مقدرة وسائل التنفيذ هذه على المتكتم بجرمه والفار بذنبه؟

و حتى رقابة المجتمع العام ليس في وسعها ان تدرك هذين او تدينهما بشيء. وكم هرب من وجه القانون هارب وكم اختبأ عن اعين الناظرين مختبئ ثم واقع ما تحظره التقاليد و ما تحرمه القوانين؟.

اما الضمير فمن المستطاع ان يخادع، و من المستطاع أن يوارب، و من المستطاع ان يردف عليه بالمخالفة والعصيان حتى يفقد معنويته، و حتى يخمد صوته وينقطع تأنيبه، والضمير قوة من قوى الانسان يعتريها ما يعتري قواه الاخرى من قوة او ضعف و من نشاط او كلل، و وفرة من المخلوقين يعيشون مرضى الوجدان ووفرة منهم يَحيَون ميتي الضمائر.

لقد تم في تلك المراحل الطويلة دور التشريع و بقي دور التنفيذ، واي غنى بالقانون اذا لم ينفذ وأي جدوى في تشريعه اذا لم يطبق؟.

اذن فهو مفتقر الى سلطة ذاتية مهيبة تصون له حرمته و تتولى رعايته.

الى قدسية سامية تجعل الاعتراف به عقيدة للاتباع، و تجعل الايمان به لزاما على قلوبهم، والانقياد له فريضة في أعمالهم.

هذه السبيل الفذة التي يبلغ بها غايته، وليست له سبيل سواها.

و بقي عليه وراء ذلك كله أن يفكر في شأن أولئك الذين لا يكترثون لمخالفة الفروض ولا يبالون بمعاكسة الايمان في ارضاء ميولهم وقضاء شهواتهم، لا يأبهون لهذه ولا لتلك مادام الأمر أمر مخالفة أدبية خالصة، لا ينتظر المقترف من ورائها حساباً ولا يحذر عقابا.

بقي على ذلك القانون الجامع أن يفكر في شأن هذه الكثرة من الناس، فلابد و أن يقيم لهم وازعا، ولا بد و أن يرصد لهم جزاءً رادعاً. واذن فهو مفتقر الى ان يتخذ صبغة الدين وان يكتسب منزلته وأن ينتحل خصائصه، وان يحتوي حتى على ثوابه وعقابه.

واذن فهو دين مادام يلتزم شموله في النظرة، وطريقته في الموازنة، ودقته في الحكمة، و عدالته في التشريع، وليس يبعده عن الدين الحقيقي سوى هذا الطريق المعنت المستحيل.

ان الدين يروم أن يسد للانسان هذه الفاقة من أيسر سبيل وأبينه، وأدناه الى الفطرة وأمسه قربى بقوانين الطبيعة، واثبته على دعائم الحكمة.

* * *

و يدعي فريق من الكتاب ان العلم يكفي لتنظيم المجتمع الانساني وازاحة بؤسه وازالة شقائه و توجيهه الى السعادة المرجوة والبلوغ به الى الكمال المنتظر.

يرى هذا الفريق ان الوضع الاقتصادي هو المحور لكل ما في المجتمع الانساني من حركة، والمبعث الاصيل لما فيه من نشاط، والمصدر الاول لمافيه من شذوذ أو استقامة ومن تقدم أو تأخر.

فالفقر والغنى هما الاساس لما هنا من بؤس أو نعيم ومن تشاؤم في الحياة او تفاؤل، ولما يتبع ذلك من قلق أو طمأنة في النفس، و ترنح أو ثبات في الفكر، وهبوط أو رقي في الخلال. و تفاوت الناس في أوضاعهم الاقتصادية واتفاقهم أو تقاربهم فيها هو المكيف لنظرات الناس بعضهم الى بعض، فالفقير ينظر الى الغني نظرة الحاقد الحاسد أو المؤمل الذليل، والغني ينظر الفقير بعين المحتقر المزدري أو المتفضل المستطيل، وعلى هذه النظرات المختلفة تبتني العلاقات في المجتمع، و بألوانها تتلون الصلات.

ومن هذا المجتمع ذاته تنشأ التقاليد و تقرر العادات، وفيه كذلك ولواقعه الراهن تسن أنظمة الاجتماع و قوانين السياسة و مناهج التربية، والوضع الاقتصادي هو المنبع الاصيل لكل أولئك.

فاذا أمكن للعلم ـ بمعجزاته و قوته الهائلة ـ أن يسيطر على الاقتصاد، و اذا امكن له أن ينتشر هو وتنتشر آثاره المحمودة على الجماهير فقد استطاع حذف الفوارق، وازاحة العوائق، و تزكية الطباع و تصحيح النظرات، واستطاع آخر الأمر أن يقيم الصلات الحسنة في المجتمع، و أن يشتق

منها أنظمة مثالية للاجتماع وقوانين نموذجية للسياسة، و أن يقود الانسان الى خير ما يمكن من غاية واسعد ما يتوقع من حال.

هذا ما يقوله فريق كبير من الناس، و هذا مثال مبسوط لما يحتج به على ما يقول. و يبدو أن هذه الفئة شديدة الايمان بالعلم الى حد الافراط. ولا غضاضة في أن يكون الانسان كبير الثقة بالعلم قوي الايمان بمقدرته في حدود يؤمن العلم لنفسه فيها بالقدرة، أما أن يؤمن أحدىما لا يؤمن به العلم لذاته فهذا هو السرف الذي لا يقبل الحدود.

ان العلم لا يجهل حدوده ولا يغلو في قدرته لأن العلم لا ينقلب جهلا، و حقائقه لا تصبح ادعاءً، ولكن المدعين يمدون الحقائق بالخيال، ويخلطون الموهوم بالثابت!.

لقد قال (دارون) العالم الطبيعي المعروف: الانسان ينحدر الى نسب حيواني عريق، وفسر بذلك فلسفة النشوء والارتقاء، و تلك فكرة لا تزال يعوزها السند العلمي المتين، ولنفرضها هنا مسلمة متيقنة لنتمشى مع الدليل.

وانحدر (دارون) مع الفكرة، و كان من الحق أن يرتقي.

أجل. كان من الحق أن يرتقي، فقد تطور الحيوان ـ حسب الفرض ـ فأصبح انساناً، اصبح نوعاً جديداً له كيانه وله موائزه وإلا لم يكن لتطوره معنى، و على أساس هذا الكيان الجديد و هذه الموائز الخاصة يجب أن يبحث في شؤونه بما هو انسان.

و هذه هي القاعدة في كل حلقة من السلسلة، في كل نوع يتطور عن نوع آخر أحط منه. و ما اظن (دارون) ولا أحداً من تلاميذه واتباعه يرتاب في ذلك في ما عدا الانسان.

ولأمر غير علمي على ما يرجح انحدر (دارون) بالانسان الى الحيوان بدلا من أن يرتقي بالحيوان الى الانسان، صنع ذلك في كتابه (اصل الانسان) فناقش على غرار ذلك قواعد الأخلاق وناقش (تصورات الدين) و حاكم القيم والمثل وما يقوم على ذلك و ما يتصل به.

لقد وضح ان الانسان حيوان، و لكن أليس انساناً ايضا؟

فبم ارتقى اذن و كيف تطور؟

ألأنه استطاع أن يقف على قدميه؟

وكثير من فصائل الحيوان يقف ويمشي على قدمين كذلك.

أم لأنه يمتلك الحيلة لتحصيل رزقه؟

وجميع ضروب الحيوان تحتال لرزقها ايضاً و بعضها يأتي بالعجائب في هذا السبيل.

لقد وضح أن الانسان حيوان، ولكنه انسان ايضاً، ولا أظن دارون ولا خلفاءه يجحدون ذلك حين يبتعدون عن بحث الخلق والدين.

ان الانسان يفكر ويميز و يريد و يصمم، و يأتي في ارادته بالعجائب، و يأتي في تصميمه بالخوارق، و يأتي في تفكيره و تصوراته بالمعجزات، و يتحدى الطبيعة التي توهموها هي الخالقة،

ويخضعها لسلطانه، و يكتشف أسرارها بوعيه، و يسخر طاقاتها لمآربه، ويحصي عناصر الكون، و يتقصى طبقات الارض و يستخرج دفائنها، و يستنبط معادنها، و يعبّد كل حزن، و يذلل كل صعب و يشبر اعماق البحار ويخترق أجواز الفضاء و يرسل طلائعه ليغزو الكواكب.

فهل لا يزال حيواناً بعد؟ وهل يملك الحيوان مثل هذه الارصدة و مثل هذه القوى؟

و حين تطورت بيده أساليب الحضارة ووضعت بيمينه مفاتيح الكنوز، جعلت له السيادة في هذه الارض، فهل استوجب ذلك كله وهو حيوان؟.

وقال العلم إن جينات الوراثة تنقل الى الفرد خصائص آبائه وصفاتهم. نعم وأصبح هذا الأمر في عداد الحقائق الثابتة. فهل يمكن لداروين أن يتخذه باباً ينفذ منه الى ما يريد؟.

لقد قال العلم بالوراثة وعدها في الحقائق الثابتة، ولكن ما معنى ذلك وماحدوده؟

أفعنى ذلك أن يصبح الفرد نسخة مكرورة معادة لأصله، فلا يستطيع فكاكا من صفة ولا يملك اختياراً في عمل ولا انفراداً في تقصد؟!.

الحق أن القول بتطور الأنواع لا يناقض بشيء كما يناقض بقاعدة الوراثة إذا فسرت بهذا التفسير، وانداحت الى هذه الأبعاد.

و داروين ذاته يعترف بأن الفرع قد يحصل على استعدادات جسمية أو عقلية جديدة يقوى بها على اكتساب صفات جديدة يوائم بها بيئته أو يكافح بها طوارئه، استعدادات جديدة لم تكن لواحد من أسلافه، و ان هذه الاستعدادات ثم هذه الصفات تنتقل بالوارثة من هذا الفرد الى فروعه. ثم تبيد الفروع الاخرى التي ليست لها هذه الميزة، و ينحصر النوع في هذه السلالة بقاعدة بقاء الاصلح، و هذا ـ في رأيه ورأي أتباعه ـ هو السبيل المتبع في تطور الانواع.

و قوانين الوراثة التي كشفها مندل أو التي كشفها غيره من الباحثين، و حتى طريقة داروين التي جنح اليها في انتقال صفات الاصول إلى الفروع[1] لا تقتضي أن يكون الفرع رهن تلك المواريث كانما هو رهن المقادير.

ان الفرع يرث من أصله استعدادات في جسم واستعدادات في نفس و استعدادات في عقل. وللمنزل والمدرسة ومختلف أنواع التربية والبيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية سلطان بالغ النفوذ على تنمية هذه الاستعدادات واحالتها الى صفات تامة قوية أو منحرفة، بلى هذه الاستعدادات والميول الموروثة كافية في توجيه المرء شطرها اذا خلا الميدان من المؤثرات. هذا هو المعنى الثابت لنظام الوراثة فهل فيه حجة لداروين على مايريد؟

الانسان حيوان، هكذا قال (داروين)، نعم و سارمع هذا النسب هاو ياً، معاكساً لسير

١ ـــ و طريقة داروين فى ذلك هى طَريقة التناسل بالتجمع العام، وحاصل رأيه هذا ان الاعضاء المختلفة للجسم الحى تنفصل عنها جزيئات دقيقة بالغة الدقة وان هذه الجزيئات تنتقل مع الدم الى غددالتناسل وتتجمع فى الجرثومة التي يتكون منها الجنين، والجزيئات على مايقول رموز تمثل جميع أنسجة الجسم وأعضائه.

الطبيعة من الارتقاء، و بنى على هذا الاتجاه المعكوس فروضه، واستخلص نتائجه. فلا دين ولا أخلاق حميدة ولا قيم عالية.

أما أولئك الذين تطوعوا للعلم وزعموا أنه قادر على تنظيم الانسان،أما أولئك فانهم أخذوا هذا النسب الذي وضعه دارون للانسان، ثم اندفعوا وراءه بضع خطوات.

و كأنهم استكثروا من دارون أن يقف بالانسان عند جده الادنى و يعطيه خصائصه، ومقتضى البحث العلمي في رأيهم ان يلحق بجده الأعلى، أليست سلسلة التطور تنتهي به الى الجماد؟!.

الانسان حيوان..

فهو مادي إذن..

مادي بلحمه ودمه وجميع قواه وأجهزة نشاطه. وهل للحيوان تأريخ غير تأريخ المادة، تأريخ القوت و ضروب طلبه والكدح الشديد فيه، والتخاصم عليه والتنافس في أمره و ملابسات ذلك وفروعه؟.

ضعوا الانسان في المختبر ليحلله العلم، فهل يجد سوى الفوسفور والآزوت والكبريت والنحاس والحديد والكالسيوم و المغنسيوم واخواتها من عناصر المادة؟

فمسألة الانسان الاولى مسألة مادة محض، و مسألة اقتصاد على الخصوص، و كل ما يجدُّ سواها فانما هي فروع، واذا انتظم الاقتصاد انتظمت فروعه.

و يكفي لدحضها أن يتصوروا انه ليس مادياً فقط.

يقولون: ضعوا الانسان في المختبر ليحلله العلم، فماذا يضعون منه؟

يضعون جسمه بعظمه ولحمه ومخه وعصبه،ومن يشك في ان هذه مادية؟

أفيضعون في المختبر المادي نفسه وروحه وقواه المختلفة، وارادته وعقله وتفكيره و باقي مميزات انسانيته؟

أفيضعون هذه في المختبر أيضاً؟ وماذا يحلل المختبر منها وهو لا يتناول غير المادة؟

ليضعوا في المختبر إنساناً ميتاً وليتبينوا ماذا نقص بموته من عناصره الاولى ثم ليبحثوا في ركام هذه المادة عن مصدر نشاطه الاول وسبب هموده الأخير.

بل ليلتقطوا عناصر الانسان الحرة الطليقة و هي موفورة في تراب الأرض كما يقول العلم، ليجمعوا من هذه العناصر العشرين مقاديرها الموجودة في بدن الانسان، ثم ليقيموا منها هيكلا انسانياً كاملاً بأجهزته و مقوماته و جميع خفاياه و خلاياه، و هو أمر غير شاق على العلم فيما اعتقد.

بهذه التجربة وحدها سيجدون الفارق الأصيل بين الانسان الطبيعي المخلوق الضخم،و بين الانسان المادي الذي يخضع للمختبر و يوزن بالكيلو والغرام.

وبهذه التجربة وحدها سيجدون الفارق الأصيل بين الاشياء الطبيعية التي تحمل سر

الحيـاة و تـنقلها الى اعقابها و بين مشابهاتها مما يصنعه الانسان و تنتجه معامله و ان اتفقت معها في المادة والتركيب والمقدار.

سيجدون أن المسألة مسألة تكوين و إحياء وليست مسألة هندسة و بناء.

ان العلم لا يجهل حدوده ولا يغلوفي قدرته، ولكن المدَّعين يمدون الحقائق بالخيال، و يخلطون الموهوم بالثابت.

ومن عجيب أمر هؤلاء انهم يكفرون بالانسان و يؤمنون باثر من آثاره!

يكفرون بالانسان هذا المبلغ من الكفر، و يؤمنون باثره هذا الحد من الايمان!

والعلم أداة طيّعة، توصف بالخير اذا أعملها صاحبها في خير، وتنعت بالشر اذا جعلها ذريعة الى شر، فهي تابعة أبداً لمايرادبها.

وقد تقدم العلم في أوربا وزخرمده و تضخمت مادته فلم يعصم تقدمه الاخلاق من ان تنهار ولم يقِ الحرمات من ان تهتك، ولم يكلأ الحريات من أن تستباح، ولم يمنع من وقوع حربين عالميتين تأتيان على الأخضر واليابس.

بل وكانت مواقف العلم فيها غير مبرورة، فقد كان له في ميادين القتال خُلُق الموتور المسعور الذي لايروى من إراقة الدماء، ولا يرق لمناظر البؤس، الموتور الذي لا يعرف ترته في أيِّ جانب، فهو يمد الجيوش المتقابلة ويحرض القوى المتقاتلة، و يلهب الأحقاد و يوغر الصدور ويمهد للفتنة و يضاعف من العدة.

ولا يزال العلم ـ حتى هذه اللحظة ـ هو السلاح المخوف المرعب الذي تحذر الامم بطشه، وتخشى صولته، والذي يتهدد العالم كله بالدمار و ينذره بالبوار.

إن العلم آلة تعمل الصلاح حين تعمله و هي لا تشعر، وتنشر الفساد حين تنشره و هي لا تشعر، وشعورها إنما هو شعور الأيدي التي تدبرها و ضميرها انما هو ضمير النفوس التي توجهها، فلا محيد من تنظيم تلك المشاعر المدبرة، ومن تهذيب تلك الضمائر الموجهة إذا أردنا التنظيم الجاد الشامل.

والاقتصاد عامل خطير في الحياة وفي تأريخ الانسان، ولاستقرار الوضع الاقتصادي في المجتمع واضطرابه التأثير البالغ في تكييف الحياة وتطويرها، وهذا ثابت لايجادل فيه ذولب.

ولكن المبالغة أن يدعى ان الاقتصاد هو العامل الوحيد الفريد.

القوت ضرورة لابن آدم، وتيسر السبيل لسد هذه الضرورة وتوفر الوسائل الى الوفاء بها يخفف شطر اتعابه في الحياة، و يوفر جهوده للسعي في ميادينها الاخرى، وتهيؤ الفرصة لكل طالب وخفة المؤونة على كل عامل تضعف أسباب التزاحم و تقلل من دواعي الاحقاد.

القوت ضرورة لابن آدم، و لكن ليس هو الضرورة الوحيدة.

و مطاليب الجسد الاخرى ضرورات له أيضاً، و لكن ليست هي الضرورات الوحيدة و

كـذلك حاجات الروح و حاجات القلب و حاجات العقل ضرورات لابن آدم لا بدله منها ولا قرار له بدونها، و لكن ليست ضروراته الوحيدة كذلك.

كل هذه ضرورات لابن آدم. و يتعسف بل و ينكر ذاته من يتوجه بالنظر الى بعضها دون بعض،و يسرف و يرتكب شططاً من يقيم فلسفة الحياة على هذه النظرة الحائدة، و يمعن في الاسراف والارتكاب من يحاول تنظيم علاقات الانسان واقامة مناهجه على هذا البناء المنهار.

* * *

وفريق آخر من تلاميذ هذه الفكرة.

من الذين يؤمنون بأن الانسان ينحدر (أو بالاحرى يرتقي) الى نسب حيواني عريق.

و ممـن يؤمنون بـأنـه مـادي محـض، ولا واقـع لـه غير واقع المادة، ولا تأريخ له سوى تأريخ الاقتصاد، تأريخ المأكل والملبس والمأوى وما يتصل بهذا و يتفرع عليه.

من تلاميذ هذه الفكرة وأتباعها الذين يؤمنون بها حق الايمان يذهبون وراءها أبعد من هذا الشوط، و يعقدون عليها اكبر من هذا الامل.

يـقـولون: المادة وحدها هي التي تكوّن التأريخ، و تسلسل أحداثه، و تعاقب أطواره، هي التي تبني الحياة و تطورها و تصرفها (عبر الدهور).

ولـيـكن معنى قولهم هذا أن المنافع المادية وحرص الانسان عليها، وافتنانه في وسائل الظفر بها هي التي كونت تأريخ الانسان و بنت حياته و سلسلت أحداثها و عاقبت أطوارها. ليكن هذا هو المعنى المقصود، فقد قيل في معناه إن تاريخ الانسان و حياته ليسا سوى المادة، ليسا سوى الطعام و الكسوة والمنزل و ما اليها. ولا يعدم هذا القائل شاهداً على صحة تفسيره.

المـادة وحـدهـا، وليس العقل ـ كما يرى هيجل ـ وليس الله ـ كما يقول الالهيون ـ وليست أيـة قـوة اخرى منفصلة عن المادة، وليست المادة مشتركة مع قوة اخرى غير مادية، المادة وحدها بلا شريك ولا ظهير هي المصدر لكل ماهنا من شيء،والمصدرولكل ماهنا من حركة، والمصدر لكل ما يجد من أمر، والمصدر لكل ما يحدث للاشياء وللانسان من اتجاه.

والـركـيـزة الأولى لهـذه الفلسفة: أن الحس هو المصدر الفريد للمعرفة الانسانية فلا طريق للـمعرفة الحقيقية سوى الحس، ولا مكان في الوجود لغير المشاهد المحسوس، هذا المبدأ الذي اقيمت عـلـيـه الـفـلسفة الوضعية في القرن التاسع عشر، والذي شاده الفيلسوف الفرنسي أوجست كومت (١٧٩٨-١٨٥٧) و تلميذه لودفيج فيور باخ (١٨٠٤-١٨٧٢).

و إذا لم يـكـن في الـوجـود مـكـان لـغير المشاهد المحسوس، فلا مكان فيه (لله) ولا (لماورآء الطبيعة) ولا لآراء تتصل بذلك أوتستمد منه.

والـركـيـزة الـثـانـيـة لهـذه الـفـلـسـفـة (مـبـدأ الـنـقـيـض). المبدأ الذي استخدمه فيشته (١٧٦٢-١٨١٤) في تـصـور الانـسـان لـنفسه، واستخدمه بعده هيجل (١٧٧٠-١٨٣٠) في رأيه عن

الفكرة، وارتكزت عليه الفلسفة (العقلية) الألمانية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ثم قبسه كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) و عممه وأقام عليه نظريته في الكون و مذهبه في الاقتصاد والاجتماع.

و مبدأ النقيض على مايراه ماركس: أن كل شيء يتضمن نقيضه و ينطوي على سلب نفسه، وهذا التناقض يؤدي حتما الى الصراع الداخلي بين المتقابلين، والى الحركة الذاتية في الشيء حتى يتحول الى نقيضه، ثم يتحول الشيء و نقيضه الى جامع لهما. ثم تبتدئ دورة جديدة فان الجامع بدوره يصبح شيئاً ينطوي على نقيضه، و يتحول بالحركة الذاتية اليه، و يتحول هذان المتقابلان الى جامع، و هكذا يستمر التغير، و يستمر التحول، فكلّ شيء في حركة، و كل شيء في تغير، و كل شيء في تقدم، وليس في الوجود شيء ثابت.

وتحول الشيء الى نقيضه يقع تدريجاً، وحركته الذاتية اليه حركة بطيئة، حتى يصل الى نقطة معينة، ثم يحدث انقلاب مفاجئ سريع يتم به التحول، وهذا هو مكان (الثورة) حين يطبق هذا المبدأ على المجتمعات، وحين يلاحظ جريانه في مجال الاقتصاد.

كل شيء في حركة دائبة، و كل شيء في تغير مستمر، والحال المرتقبة دائماً أسمى من الحال الحاضرة، وليس في الوجود شيء ثابت.

و إذن فلا وجود لله، لأنه ـ كما يقول المؤلهون ـ أزلي سرمدي لايطرأ عليه التغير، ولا يتصف بالانتقال، ولا يدركه الفناء.

ولا وجود لحقائق ماوراء الطبيعة، فان المؤمنين بها يتحدثون عنها على أنها ثابتة باقية ولو الى حين.

ولا بقاء ولا ثبات للقيم الاخلاقية، (ومن يعتقد بثباتها من الناس فهو مصدق بأشياء لا توجد في هذه الطبيعه) بل هي واجبة التغير والانتقال الى النقيض كما يحدث في الأشياء الطبيعية المحسة سواء بسواء.

و اذن فالمادة ـ وحدها ـ هي الحقيقة الموجودة، لأنها ـ وحدها ـ هي الشيء المحسوس، ولا وجود لغيرها إلا ان يكون مخلوقا لها أو ظاهرة من ظواهرها. و حتى الفكرة فانما هي أثر من آثار المادة، والآراء والمعتقدات والقوانين والتقاليد انما هي انعكاسات للحياة المادية. ومن حيث أن الفكر ذاته جزء من الطبيعة و نتاج أعلى لها، و من حيث ان نتائجه كلها انما هي انعكاسات للمادة، من حيث هذا و ذاك وجب أن تخضع الآراء والافكار والحياة العقلية كلها لقانون النقيض.

وأخيراً فالديالكتيك ـ كما يقول ستالين ـ يعتبر الطبيعة كلا واحداً متماسكا ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً عضوياً، و يتعلق أحدها بالآخر و يكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متقابلة[1] فاذا اراد أحد ان يدرس شيئاً من أشياء الطبيعة أو حادثاً من حوادثها على الطريقة

←

الديالكتيكية فلابد و ان ينظر اليه بما هو مجمع لهذه الروابط و ملتقى لهذه الاضافات. ويبتعد عن هذه الطريقة اذا نظر الى الشيء مفصولا عن كله، معزولا عن شروطه وظروفه.

هذه هي الخطوط المهمة التي تأتلف منها فلسفة ماركس.

فهي مادية وضعية، تعتبر أن الطبيعة هي الواقع الموضوعي لكل شيء، ولا حظ من الواقع لسواها.

الطبيعة على اطلاقها، في أي مجال و في أي اتجاه.

فاذا حاول أن يطبق نظريته هذه على واقع الحياة، وإذا أراد أن يقيم عليها مذهبه في الاجتماع تقلصت دائرة المادة وتضامت أطرافها وتقاربت ابعادها، وانحصرت في الاقتصاد.

في القوت والكسوة والمأوى.

في المال الذي تسد به هذه الفاقات، والعمل والأدوات التي تنتج المال، والعلاقات التي تكون بين القوى المنتجة وارباب المال.

في المعدة و مقدماتها و نتائجها.

وقد قالوا في تلخيص هذا المذهب: (إن الحاجة الى الطعام والشراب والوقود والملبس والمأوى هي اول الضرورات التي يواجهها الانسان. وهو لا يستطيع السعي وراء السياسات والعلوم والأديان والفنون مالم يسد لنفسه تلك الفاقات).

(فلابد له من الطعام والشراب والوقود والملبس والمأوى لكي يعيش).

ولا بدله من العمل لكي يحصل على هذه الاشياء).

(و مهما توغلنا في أعماق التأريخ فاننا واجدون أدوات صنعها الانسان واستعملها لهذه الغاية، لسد هذه الضرورة).

(ومن ادوات الانتاج هذه والناس الذين يصنعونها و يستعملونها في مجالاتها تتألف القوى المنتجة في المجتمع البشري. وليكن هذا هومرادنا حين نطلق هذه الكلمة).

(والناس منذ قديم عصورهم انما يقومون بالانتاج بصورة مشتركة، وهذا يشهد بالطبيعة الاجتماعية للانتاج. و مهما توغلنا في أعماق التأريخ كذلك فاننا واجدون آثاراً تدل على صحة هذه الطبيعة و ثبوتها لنوع الانسان).

(وطبيعي أن يدخل الناس أثناء الانتاج الاجتماعي في علاقات انتاجية)،

(علاقات تعاون و تبادل، أو علاقات استعباد و تبعية).

(ومن هذه العلاقات الانتاجية بين الناس، والقوى المنتجة تتألف طريقة الانتاج. وليكن هذا هومرادنا حين نطلق هذه الكلمة. وطريقة الانتاج في الحياة المادية هي التي تقرر أساليب الحياة

←

١ ــ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص٦.

الاجتماعية والسياسية والروحية. والتغيرات التي تقع في طريقة الانتاج تؤدي الى تغيرات اوسع ف هذه النواحي، و لكي نفهم ماهية تأريخ المجتمع البشري يكون من الضروري لنا دراسة تأريخ الانتاج والتغيرات التي طرأت على أساليبه. فالتأريخ هو تأريخ تقدم القوى المنتجة و تأريخ علاقات الناس الانتاجية).

(والتغييرات في الانتاج تبدأ بتغيرات في القوى المنتجة، و خاصة في أدوات الانتاج، و بتبع هذه التغيرات في القوى المنتجة تنشأ التغيرات في علاقات الانتاج. وعلاقات الانتاج هذه تقوم بدورها فتؤثر في تطور القوى المنتجة، فاذا توافقت القوى المنتجة و علاقات الانتاج في الخطى و سارتا سيراً متوازناً استقرت الجماعة، و إن تخالفتا حدث التصادم. وانتهى الامر بالثورة و انهيار المجتمع القائم، و تغير أساليب الحياة الاخرى)[1]

والاطوار التي مربها تأريخ الانسان هي:

١ـ الشيوعية البدائية حيث كانت المرافق والضرورات مشاعة بين الجميع.

٢ـ السادة والارقاء أو عبودية القطيع و هو الدور الذي ظهرت فيه المعادن المصنوعة وزراعة الارض و تدجين الحيوان والنبات.

٣ـ الاقطاع.

٤ـ رأس المال الأول.

٥ـ رأس المال الاخير في عهد الصناعات الكبرى.

٦ـ الشيوعية الأخيرة و هو الدور الذي يكون المجتمع فيه طبقة واحدة، و يستولي على المجتمع نظام واحد، و يوزع المال فيه توزيعاً شاملا عادلا، فن كل أحد حسب قدرته الى كل أحد حسب حاجته، فلا استغلال ولا سيطرة ولا استئثار ولا دولة ولا حروب.

و تسلسل هذه الاطوار الاجتماعية، و قيام حرب الطبقات في كل طور منها ثم انهياره أخيراً و تحوله الى نقيضه، كل هذا نتيجة حتمية ـ على ما يرون ـ للتفسير المادي و انطباق مبدأ النقيض.

هكذا تأتي النتائج متسلسلة مطردة في رأي هذا الفريق، يأخذ بعضها برقاب بعض، ولا يد للانسان في شيء من ذلك، ولا حيلة له في تغيير شيء منه، إنها المجتمعات تخضع للمادة ولقوانينها الصارمة فلا ينقض ما أبرمت ولا يؤخر ماقدمت، و تأتي الآراء وتأتي الافكار وتأتي العلوم و تأتي الفنون، و تأتي الأنظمة وتأتي الحياة العقلية كلها بعد ذلك منقادة طيعة عاكسة للواقع الموجود، للحياة الاجتماعية الراهنة.

هكذا يقولون.

١ ــ منقول بتصرف عن محاضرات بعض الاساتذة العراقيين من اتباع هذا المذهب.

و يقف الباحث الناقد الحر على هذا الركام من الدعاوى لا يدري:

أهي فلسفة تتبع الدقة في تركيزها و تتبع الدقة كذلك في عرضها و تطبيقها لتنقد كما تنقد الفلسفات و تمتحن كما تمتحن الآراء والافكار؟.

أهي نظرية علمية تقتبس من التجربة، و ترتكز على المشاهدة، فيحك جوهرها كما تحك المعادن ويختبر صدقها و ثباتها كما تختبر نظريات العلم؟.

أهي أحلام و آمال نفسية كبتها الواقع في الحاضر فاندفعت الى الخيال في المستقبل لينظر فيها من ينظر في الأحلام و الآلام؟.

أم هي فلسفة تسويغ وتبرير، فلسفة من يختط له خطة يمليها عليه هواه، ثم يندفع في زحمة الفلسفات والآراء يلتقط مايوائم خطته من النظريات وما يوافقها من الشواهد؟ لعلها فلسفة تعتمد على الموازنات الدقيقة في النشأة والعرض والتطبيق. نعم. و كذلك يرغب أتباعها و مؤيدوها أن تكون.

وإذن فلماذا تنكر أن يكون للمعرفة طريق غير الحس والتجربة؟ وهل من الممكن أن تقوم فلسفة ما على هذين وحدهما؟ وحتى اذا كانت تعالج ناحية مادية خالصة؟.

إن الاحساس لايعدو أن يكون تصويراً للشيء المحسوس، وان التجربة ـ في كثير من مواردها ـ لا تتجاوز أن تكون تكراراً لهذا التصوير، ومقارنة بين ملامح الصور. أما مطابقة الصورة لواقع الشيء ولصفاته الحقيقية فهي محتاجة الى مصدر آخر هو أوثق لدى العقل من الحس ومن التجربة. وأما التجريد والتعميم واستنباط حكم عام شامل من الموارد الخاصة التي أدركها الحس ووقعت عليها التجربة فهو مفتقر الى عملية عقلية خالصة، وتدخل قوانين ضرورية لا يشك فيها إنسان ولا تفتقر الى اثبات.

وقاعدة (ان التجربة مصدر للمعرفة الحقيقية). هذه القاعدة التي غلا فيها التجريبيون فانكروا أن يكون للمعرفة طريق سواها، ثم أمعن الوضعيون منهم في الغلو فانكروا أي شيء لا يناله الحس، وأي حقيقة لا تخضع للتجربة. أقول وهذه القاعدة ذاتها، أليس من حق الناقد الحر أن يسأل عن طريق اثباتها للانسان؟.

أهي التجربة ذاتها؟

إن الشيء لا يثبت نفسه.

وإذن فلا محيد لهم من الاعتراف بأنها ضرورية لا تفتقر إلى اثبات. ولامحيد لهم من الاعتراف بان الانسان يملك ضروريات أولية يرجع اليها في انشاء معرفته..

والعلم الحديث لما اعتمد ـ ما استطاع ـ على الحس والتجربة حتى سمي من اجل ذلك تجريبياً، ولما أصاب ـ على أثر هذا التركيز ـ نتائجه الحميدة، وسار أشواطه المباركة، أتراه انكر ما سوى الحس والتجربة من طرق المعرفة؟

الحق انها فرية أثيمة على العلم أن ينسب اليه ذلك، والحق ان العلم (العلم التجريبي الحديث) طالما اكتشف وجود شيء بدلالة آثاره، وطالما وجد ظاهرة من الظواهر، فاستخدم القوانين التي تحكمها واستدل بذلك على الحقيقة التي تستتبعها، وطريقته هذه معروفة في علم الفلك، وفي ابحاث الذرة، والعلماء التجريبيون يعترفون بذلك ولا يجحدونه. وانظر إن شئت موضوع (درس من شجيرة الورد) للعالم الطبيعي الفيلسوف (ماريت ستانلي كونجدن) ص ١٨ من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) واقرأ اعترافات العلماء الآخرين الذين ساهموا في هذا الكتاب القيم.

والماديون التجريبيون انفسهم لا يستطيعون أن يقفوا بالمعرفة على حدود الحس والتجربة، وهم يهدمون أساس فلسفتهم متى زعموا ذلك.

يقولون: المادة وحدها هي الحقيقة المحسوسة، وهي الشيء الذي تناله التجربة. فماذا يدركه الاحساس من المادة؟ وما تناله التجربة؟

اللون. الضوء. الشكل. الابعاد. الكتلة. الحجم. الرائحة. الطعم. الصوت. اليست هذه كلها صفات وظواهر؟.

والمادة؟.

هي موصوف هذه الصفات، ومعروض هذه الاعراض. فأين موضعه من الحس، وأين موقعه من التجربة؟!.

وقد فلق العلماء الذرة، وحولوا المادة الى طاقة، ثم حولوا الطاقة الى مادة، فما يعني ذلك؟. أيعني أن المادة طاقة متجمعة متكاثفة؟.

و اذن فهي غير محسوسة، ومجال الحس والتجربة انما هو ظواهرها وآثارها. واذا انطلقنا مع الخيال الوضعي الى آخر حدوده فهي غير حقيقية ولا موجودة. والحقيقي الموجود ظواهرها وآثارها!!.

ثم ماذا؟

ثم ليصح هذا الزعم.

لتنحصر مصادر معرفتنا بالحس والتجربة فلا سبيل لنا الى معرفة الاشياء غير هذين أفيخولنا ذلك أن نحصر حقائق الوجود ضمن هذه الدائرة، فننكر مالا يصل اليه حسُّنا ولا تبلغه تجاربنا؟. وهل يعد هذا من المنطق الذي تقوم عليه الفلسفات وتبتنى عليه المذاهب؟!.

ومبدأ النقيض الذي قالوا فيه إنه قانون طبيعي عام تخضع له جميع الاشياء، حتى المجتمعات وحتى القيم والآراء، وإنه السبب الداخلي الذي يدفع بالمادة الى الحركة و يدفع بها الى التطور. ولنغض عن تحديد معنى النقيض هذا الذي أجازوا بل حتموا أن يجتمع مع نقيضه. ولكن من الحق أن نسأل عن واقعه.

كل شيء يحمل نقيضه، فما حقيقة هذا النقيض المحمول؟.

أهو قوة تحملها مادة الشيء الموجود بالفعل؟

لعله كذلك، وهذا هو الذي يتفق مع الحركة بمعناها المعقول. إلا انه لا يتفق مع الحركة الذاتية التي يريدها الديالكتيك، ولا مع الغاية التي يبتغيها الماركسيون، ولا مع القاعدة التي يقيمون عليها فلسفتهم.

ان القوة لا تستطيع بذاتها دفع الفعلية التي تناقضها، لانها أضعف منها، ولا تستطيع تحريكها أبداً ولو حركة بطيئة. فهي من اجل ذلك مفتقرة الى محرك من خارج ذاتها، من خارج المادة.

ومعنى ذلك انه لاصراع ولا حركة ذاتية داخل المادة. وان الواقع الموضوعي لا ينحصر في المادة وحدها. وأخيراً فالمادة مفتقرة الى محرك من خارج ذاتها، مفتقرة الى علة مما وراء الطبيعة، مفتقرةالى إله. وهذا مالا يستطيع أن يتصوره الماديون.

واذا لم يكن النقيض قوة تحملها مادة الشيء، أفيكون فعلية اخرى لها، بحيث تكون المادة الواحدة حاملة لفعليتين كاملتين؟ ولنسكت براهين أقامتها فلسفة ماوراء الطبيعة على استحالة هذا الاجتماع.

إن المادة الواحدة يمتنع أن تحمل فعليتين، لأنها لا تقدر أن تحمل وجودين. هكذا تقول هذه الفلسفة، وتدعم قولها ببراهين عديدة.

ولكن ما شأننا وذلك؟ لنمض مع الديالكتيك الى آخر الشوط. لنقل ان اجتماع فعليتين في مادة واحدة هو معنى اجتماع النقيضين الذي سلمناه من قبل، فماوراء ذلك؟.

وراء ذلك ان لا يكون أحد النقيضين أولى بالمادة من صاحبه فلا يستحق أن يكون هو الأصل والثاني هو النقيض، وان لا يكون التالي أرفع قيمة من الأول اذاصح بينهما هذا الترتيب. ووراء ذلك ان يتدافع النقيضان بقوة متكافئة فتخمد الحركة و يبطل التطور، أو تكون الحرب بينهما سجالا، و يوكل أمر النصر فيها إلى الظروف والمصادفات. وعلى أي حال فلا تصبح الحركة قانوناً طبيعياً مطرداً، ولا تكون الغاية التي ينشدونها من وراء هذا القانون غاية مضمونة.

ولم يبق إلا ان نعتبر النقيضين فعليتين تقتسمان المادة، فيختص الشيء ببعض اجزائها، ويختص النقيض ببعضها الآخر. وهذا الاختصاص لا يمنع من ان تكون بين الاجزاء علاقات طبعية تثبت الوحدة وتسبب التفاعل، وتحدد مجال الحركة، وتمهد سبيل التطور. نعم وهذه هي الصفات الظاهرة للطبقات في المجتمع الانساني، وهو -كما نعلم- الموضوع الاول للفلسفة الماركسية، والطبقات هي النقائض فيه فلنتصورها كذلك في الاشياء الطبيعية الاخرى.

ولابد من ان نفترض ان الشيء يختص بالنصيب الاوفر من اجزاء المادة ليكون حريا بأن تعرف المادة باسمه، و يصح وصفه بأنه الاصل وتسمية صاحبه بالنقيض.

لابد من هذا الفرض، لأن النقيضين لو تقاسما المادة على سواء لتكافأت نسبة المادة اليهما

ولم يصح ان يعتبر احدهما المعين هو الاصل. ولتكافأت فيهما قوة الدفع، ونتيجة ذلك وقوف الحركة، و بطلان التطور.

واذا اختص الشيء بالنصيب الاوفر من المادة، اختص دون ريبة بالنصيب الاوفر من الطاقة، وكانت حركته حركة تقدم وانتصار دائماً، وكانت حركة نقيضه حركة تراجع واندحار دائماً، ذلك ان الحركة الطبيعية في الأشياء تتبع مبلغ رصيدها من الطاقة، وهي لا تعرف مبدأ غير هذا المبدأ، وعلى اي حال فلن يصل اليوم الذي يتحول فيه الشيء الى نقيضه، ولن يتحقق الامل الديالكتيكي المزعوم الا أن يطرأ ماليس بالحسبان، والمصادفات والطوارئ لا تدخل تحت قياس، ولا تقرر بلحاظها قاعدة.

وهكذا يستبين أن الحركة الديالكتيكية لايمكن أن تتحقق في فرض من الفروض، وأن الحركة التطورية المتصورة في الاشياء لا تصدر دون محرك من خارج ذاتها. وهكذا يستبين ان الماركسية ليست فلسفة يتطلب فيها ما يتطلب في الفلسفات من دقة الملاحظة وثبات الركائز واستقامة المنهج.

واذا لم تكن فلسفة أفتكون نظرية علمية؟

الحق أنَّ نظريات العلم أصبحت تبتغي من الدقة وثبات الركائز أكثر مما تبتغيه أفكار الفلاسفة. والعلم انما اعتمد ـ ما استطاع ـ على الحس والتجربة تنفيذاً لهذه الخطة.

ومن الخلط بين مجال العلم ومجال الفلسفة أن يطلب أحد ماوراء المادة بمقاييس المادة، ونتيجة هذا الخلط محتومة معلومة، ثم من الغلو المضاعف أن ينكر اي حقيقة لا تبلغها هذه الادوات ولو ارتكب هذا الصنع باسم غير العلم وغير الفلسفة لعده الناس محاولة مضحكة تشبه محاولة الأ بله الذي يجهد أن يحس الطعوم ببصره و يدرك الالوان أو الروائح بسمعه.

والعلم لا ينفي مالا يشاهَد ولا يجرَّب، ولا يتقول أحد ذلك على العلم لأنه لن يتمكن أن يقيم على هذه الدعوى دليلا من حس او تجربة. وقصارى مافي الأمر أن العلم لا يبحث فيه لأنه خارج عن ميادينه، عصي على ادواته، وقد اعترف عدد كبير من العلماء التجريبيين بثبوت ماوراء الطبيعة وآمن بوجود الله.

ومبدأ النقيض، ايقف لتجارب العلم؟.

وما هو المجال الحقيقي لهذا المبدأ حتى ينظر في انطباقه عليه او انتقاضه فيه؟.

أبسائط المادة ام مركباتها؟.

أم حتى بسائط هذه البسائط؟.

ماذا حدث في دقائق الا ثير حتى تكونت منها عناصر المادة؟.

أحركة ديالكتيكية، فكل بسيطة منها تحمل نقيضها و تتحول اليه؟

اذن فلماذا لم تتحول جميع دقائق الأثير الى المادة وهي مشتركة في هذا السر؟ ونتيجة ذلك

ان يغص الفضاء بالمادة وتبطل الاشياء!!.

وما حدث في بسائط المادة حتى تسلسلت اعدادها، وانافت على المئة في جداول العلماء؟.

أحركة ديالكتيكية ايضاً؟

اذن فلماذا لم تتحول جميع ذرات هذه العناصر الى اشدها تعقيداً، الى العنصر الاخير؟

وماحدث في بسائط المادة ايضاً حتى تكونت منها مركباتها؟

أحركة ديالكتيكية كذلك؟.

اذن فَلِمَ لَمْ تتجه كلها اتجاها واحداً الى هدف واحد، فان ذلك هوالسبيل المعين المحدد للأشياء اذا كانت حركتها ديالكتيكية ذاتية.

وحتى مثال الماء الذي ذكره مؤسسو الديالكتيكية، واستشهدوا به لواقعية مذهبهم، ماذا حدث للماء حتى تحول بخاراً او جليداً؟

أحركة ديالكتيكية كمايرون؟.

اذاً فلماذا لم تنقلب جميع ذرات الماء الى أحد هذين النقيضين؟

ولماذا يفتقر في تحوله اليهما الى حرارة او برودة، اليست الحركة ذاتية كما يزعمون؟؟.

وإذا تحول البخار أو الجليد ماءً وعاد الماء سيرته الاولى، فأي الحركات هذه هي الحركة التقدمية؟ وأي الحالات هذه هي الحال الثانية التي هي دائماً افضل من الحالة الأولى كما يقولون؟.

وأخيراً المجتمع الانساني-وهو الذي حيكت من اجله هذه الحبالة-يقولون إن الحركة الديالكتيكية هي التي خططت أدواره في التاريخ وحددت مجراه في الحياة، فلماذا يقف هذا القانون الطبيعي العام عن العمل اذا قام المجتمع الشيوعي الموعود، فلا نقائض ولا ديالكتيكية ولا تغير ولا تطور؟.

واذن فليست الماركسية فلسفة وليست نظرية علمية وان أصر مؤسسوها واتباعهم على نعتها بهذه النعوت، وسموا المذهب الاقتصادي القائم عليها بالاشتراكية العلمية.ولم يبق إلا ان تكون حلماً مكبوتاً يروم التنفيس، او خطة ملتوية تنشد المسوغات والمبررات.

والمذهب الاجتماعي او الاقتصادي القائم على هذه الاسس أيمكن أن يكون اكثر واقعية منها؟ والمحاكمة التفصيلية لها تطلب منا حين نبحث عن الاجتماع او الاقتصاد في الاسلام.

القوت والملبس والمأوى أول الضرورات التي يواجهها ابن آدم.

و يلاحظ ان الالتواء يبدأ من هذا التعبير، فهم يتحدثون عن نوع الانسان لأن الفرد في نظرهم مطموس الحدود ملغي الاعتبار.وواضح ان اول ضرورات النوع هي حاجة الجنس، ولكن ماقيمة هذه المناقشات؟ فلنفترض صدق ما يقولون.

القوت والملبس والمأوى أول ضرورات ابن آدم. نعم وقد قلنامن قبل ان القوت ضرورة

وسنقوله فيما بعد وسيقوله كل أحد ولا يرتاب فيه. فما نتيجة ذلك؟

ونداءات الجسد الاخرى؟ ونداءات الروح؟ ونداءات النفس؟ اليست كلها فاقات يضطر الانسان الى اجابتها ولا قرار له بدونها؟ واذا كانت كذلك أفلا تستوجب أن تعد عاملا في حياته وفي تأريخه؟

ونداءات الفطرة، نداءات العقل الفطري؟ أليس من الضروري أن تجاب؟

لقد قالوا: إن العقل والآراء والمذاهب والسياسات والانظمة انعكاسات للواقع الاقتصادي الموجود، فهل يمكن تصديق ما يقولون؟ وهل يؤمنون هم بصدق ما قالوا؟.

ان آراء ماركس ذاتها تهزأ من هذا القول وتعلن فساده، ومن المستحيل ان يدعي أحد من اتباع ماركس ان مذهبه يعكس الحياة القائمة في زمانه، اذن فلماذا كان ثائراً ناقماً؟!.

والاتباع الذين تبنوا هذا المذهب فيما بعد، وعملوا على تطبيقه ودأبوا في الدعوة اليه، هل قبسوه من واقع الحياة في زمانهم؟ إذن فبم كانوا يجهدون؟!

وطالما تعاصرت الآراء والمذاهب المتناقضة المتطاردة، بل وطالما تواطنت، فاي هذه تصح فيه الدعوى؟.

وقانون النقيض، والحركة الديالكتيكية، هل يطبقهما ماركس واتباعه على مذهبهم ذاته فيؤمنون بأنه يحمل نقيضه في أطوائه، و بأنه سينهار آخر الأمر و يتحول الى النقيض؟. وسواء آمنوا بانطباق هذا القانون على المذهب أم قالوا باستثنائه منه، فانهم سيضطرون الى ابطال المذهب، إما لانهياره بالحركة الديالكتيكية، وإما لانهيار قاعدة النقيض التي يقوم عليها.

ومبدأ النقيض هل يشمل نفسه فينطوي على نقيضه و يتحرك حتى يتحول اليه أم هو مبدأ قارٌّ ثابت لاحركة فيه ولا تطور؟ هذه أسئلة لابد للماركسيين من الاجابة عليها، و بأيٍّ قالوا فانهم يأتون مذهبهم من القواعد!!.

* * *

وجد الانسان الأول، فكان الحجر الاول لبناء المجتمع الأول، وكان النواة الحية لنبات الاسرة الاولى، والمجتمع في بدء أمره اسرة، والاسرة في أول تكوينها فرد، ولئن كانت نشأة المجتمع متأخرة عن نشأة الفرد في التأريخ فان الركائز الاجتماعية قرينة للفرد في الميلاد. ومتى كان المرء ولم تكن له هذه الغرائز التي تضطره الى النوع، وهذه الحاجات التي تلجئه الى الالتفاف والانضمام؟.

والاجتماع ـ حسب مقررات علم النفس ـ غريزة من غرائز المرء المكينة فيه، الثابتة لعامة افراده، اللازمة له في جميع أدواره، وللانسان ـ غير هذه ـ مجموعة من الغرائز الاجتماعية، تتآزر على لف المجتمع وشد اركانه وحفظ كيانه، وعلى ذلك أسس الفرع الاجتماعي من علم

النفس، واقيمت أصوله وقررت مناهجه ونبغ المتخصصون فيه.

بلى. واكثر غرائز البشري دوافع تفرض عليه الاجتماع، واغلب ضروراته حوافز تسوقه اليه، حتى مقومات خلقه، وحتى خصائص تركيبه.

لماذا منحه الله قدرة الكلام وطاقة التأثير وقوة الفهم وملكة التفهيم اذا لم يكن اجتماعيا بالطبع؟.

وجد الانسان الاول ووجدت معه علاقة الانسان بالانسان، وصلة الفرد بالامة، ورابطة الامة بالامم والجيل بالاجيال. حلقات من الاواصر متشابكة متماسكة كالدرع المحكمة السرد المتداخلة الزرد.

وجدت هذه العلاقات كلها مع وجود الانسان في أسبق أيامه وفي اقدم حالاته، وان كان ضعيف الشعور بها يوم كان لا ينطلق فكره ابعد مما ينطلق حسُّه.

ومر الانسان وروابطه هذه المكينة في غرائزه البعيدة عن احساسه، يعززها من داخله بالنمو، و يدعمها من خارجه بالتوثيق والاحكام.

ومرت هي معه في تأريخه الطويل تتمدد وتعمق آثارها وتنداح اقطارها كلما امتد نظر المرء فى العواقب واتسع افقه في التفكير فابصر وجوهاً جديدة من الحاجة، وكشف الواناً خفية من المصلحة.

الاجتماع للانسان فطرة وضرورة، وقد أصبح الحديث عن ذلك فجّاً، وعدت إقامة البينة لاثبات ذلك إسفافاً، ومن الذي يرتاب في ذلك من الناس؟ ومن الذي يفتقر في إثباته الى بينة والى اطالة واستقصاء في الحديث؟.

وتثبيت المجتمع وضبط قواعده وضمان سلامته تستدعي ان تقرّر لأفراده حقوق متبادلة و أن توازَن هذه الحقوق بتبعات متعادلة.

حقوق تصان بها الصلات أن ترث، وتبعات تعادل بها الكفة ان تميل، وأي أثر للصلة اذا هي لم تستتبع حقاً؟ وأي نصف في تشريع الحق اذا لم يوازن بتبعة؟

والمرء أثر شحيح بجبلته، ذلك ان غرائز هذا الكائن لا تقتنع بالقدر الذي تستحق، فهي تلح أبداً وتلحف، تهيب بالمرء حتى يستجيب، فاذا استجاب لها أول مرة كان ذلك سبباً لسعارها وتزايد الحاحها، وهي تغلو أبداً اذا كان من شأنها أن تأخذ، وتقتر أو تمنع اذا كان من الحق أن تعطي.

المرء أثر شحيح اذا ترك لغرائزه الدنيا ولرغباته الضارية، والاثرة والشُّح لا يعترفان بحق ولا يلتزمان بتبعة.

ووفرة من طباع الناس وخلائقهم المكتسبة أو الموروثة، وأطوارهم في هذي الحياة، ومنازلهم المتفاوتة فيها تحبب اليهم الميل أو النشوز عما يجب وعما يحسن.

فكان من ضرورات المجتمع أن يعدَّ له نظام عتيد، يقرر فيه الحقوق، و يضبط منه الحدود، و يشد العلاقات و يقسم الواجبات، و كانِ من ضروراته ان يكون لنظامه هذا وازع يمكّن له في نفوس الأفراد، وازع داخلي فى كل نفس نفس، وحارس يقظ على كل فردفرد يرصده إذا أمن الرقيب، و يقوِّمه إذا أزاغته الا ثرة، و يفل من طغيانه اذا جمحت به القوة أو نزت به الشهوة.

ضروري للمجتمع أن يكون له نظام ثابت مطرد، يقيم الاجتماع على أسس العدل، و يركزه على مبدأ المساواة، و يطهره من رجس الظلم ومن دنس الأستئثار، يقيمه على العدل الكامل في كل وجهة منه وعلى المساواة الحقيقية في كل منحى من مناحيه، وضروري له كذلكأن تكون لهذا القانون قوة عاملة حازمة تفرض احترامه وتتولى تنفيذه و تدأب في رعايته والتمهيد له حتى تصله بأعمق دخائل النفس وتوصله الى أبعد حذورها.

وما قيمة قانون اجتماعي لم تكن له هذه الميزة؟

و كيف يحقق غايته الاجتماعية المطلوبة إذا لم يكن له هذا النفوذ؟.

ثم أي نظام تجتمع له هاتان الخاصتان غير الدين؟ و بأي سلطان يكون له مثل هذا النفوذ غير سلطانه؟.

* * *

والبشرية في متسع أقطارها، وفي متباين لغاتها ومختلف الوانها، بل وفي متعاقب أجيالها ومترامي أزمانها. هذه البشرية حيثما امتدت حدودها واتسعت دائرتها مجتمع واحد، يشدُّهُ مايشد المجتمع المحلي من صلات، و يسنده مايسند هذا من دوافع، و يقتضي له ما يقتضي لهذا من نظم و حدود.

مجتمع واحد يلف أقصاه باقصاه نسب عريق، وتصله به آصرة مستحكمة و وحدة مكينة متينة.

نسب البشرية قبل أي نسب، ووحدة المصدر والمجرى والمبتغى فوق كل وحدة.

أجل. فهذه السيول المتدفقة من البشر تتفجر كلها من ينبوع واحد، ثم تتدفق في مسيل واحد الى مصب واحد.

والغاية التي فطرت من أجلها هذه الخليقة، وشحنت بها اكناف الأرض، وملئت بها مناكب الزمان، انها غاية واحدة كذلك.

والعواطف التي تعقد الواحد بنوعه وتعنيه بحفظه بل وتفنيه في حدوده، والغرائز التي تعزز فيه هذا النزوع وتمكن لهذه الأغراض، إنها ركائز المجتمع العام في نفوس الأفراد.

واتسع الفكر بالانسان الحديث، وتنوعت ـ بطموحه ـ مطاليب الحياة، وكثرت ـ بشرهه ـ ضروراتها، وأحس بحاجة للمزيد في الثقافة، وأحس بحاجة للتعاون في الصناعة، وأحس بحاجة للتبادل في مقتضيات العيش، وفي واجبات المدنية، وأحس بضرورة التفاهم مع سائر الامم،

والافادة من تجاربهم والاقتباس من علومهم وسياساتهم، واحس بأن هذه الضرورات تقتضيه أن يتصل، وأن يحكم الصلة، فارتبط في المعرفة، وارتبط في الصناعة وارتبط في الفن، وارتبط في الاقتصاد، وارتبط في السياسة وارتبط في الحماية.

وحاول بعد ذلك ان يرتقي بروابطه هذه الى وحدة، فوحدة بين شعوب واندماج بين دول، ولعله سيستبين الغاية التي من أجلها خلق فتتسع الصلة وتعم الوحدة وتفنى الحدود. ولعل الوازع الخلقي سيستيقظ اذا اندمجت الوحدات وتوحدت المصالح. لعله يستيقظ يومه ذلك،فيطبع البشرية مجتمعة بطابع كريم، و يرتفع بها عن حضيض أوشكت أن تتردى فيه.

البشرية أينما قطنت شعوبها من بقاع هذه الأرض، وأنى وجدت من آماد هذا الزمان مجتمع واحد لا تعدد فيه.

والقانون الذي يقوم عليه هذا المجتمع و يتكفل باحكام وحدته وتهذيب آحاده لابد وأن يكون منتزعاً من صميم الحياة لهذا الانسان، ومن المقومات الأصيلة لطباعه والاسس الذاتية لسلوكه ومن مختلف حاجاته و ضروراته، ومن الصلات العميقة التي تصل أفراده بعضهم ببعض، ومن الملابسات الضرورية التي تطرأ على هذه الروابط فتنقضها، أو تضاعف من إبرامها، ثم من الملاحظات المستقصية لجميع هذه النواحي والموازنات العادلة بين مقتضياتها.

هذه هي الأصول العامة الثابتة التي لايتصور أن يطرأ عليها تغير في بيئة ولا تحول في وقت، والقانون المرتكز عليها هو القانون الذي يقيم الانسانية على أثبت الاسس وأقوى الدعائم، والسلوك القائم عليها هوالسلوك الذي يرقى بالمجموعة الى أبعد الغايات و يربط بين أجزائها بأوثق الصلات.

والمنظمة البشرية - كما قلنا من قبل - جزء صغير من المنظمة الكونية، يحكمها ما يحكم هذه من سنن و ينفذ فيها ماينفذ في هذه من احكام.

واللازم الصريح لذلك ان نظام الاجتماع البشري يجب ان يكون امتداداً للنظام الكوني العام، واقتباساً من قواعده واعتماداً على اصوله.

يجب أن يكون كذلك لئلا تتناقض الانظمة وتتخالف الاتجاهات في المنظمة الواحدة الكبرى.

و بعد فإن الانسان خاضع في طبيعته وفي تكو ينه، وفي نموه وحياته وفي كل طاقة من طاقات نفسه. وكل جزء من أجزاء جسمه للنظام الكوني العام، فاتباع قانون اجتماعي لايشتق من ذلك النظام ولا ينهض على اصوله يؤدي الى القلق الدائم في نفس هذا الكائن، والتهافت البالغ في سلوكه، والانهيار الشديد في شخصيته. وأخيراً الى الانحلال في المجموعة البشرية للانحلال البادي في نفوس أفرادها.

فهل يستطيع الانسان أن يقوم بهذا التشريع؟ وهل يملك غير الدين ان يفي للبشرية بذلك؟
هذا سؤال أجبنا عنه فيمامر، وسنوضح الجواب فيما يأتي.

وابن آدم مخلوق كثير الأهواء، عارم الرغبات، ومما يعاب به أنه ضعيف الارادة تجاه رغباته، قصير النظرة أمام اهوائه. وانه لهذه النظرة العجلى قد يؤثر لذة أو منفعة صغيرة لكنها عاجلة، على اخرى كبيرة مضاعفة لأنها آجلة. وقد يستحب غاية محدودة موقوتة تمس حدوده القريبة على غاية لاحد لها ولا مدى لأنها تخص حدوده العليا.

وقد نعى القرآن الكريم عليه هذا الاستعجال المعيب، وهذا الانحدار مع الهوى، وقد نعى عليه أن يحتبس فكره في نطاق رغائبه ومشتهياته، حتى اذا رام الفكر ان يعمل وأن ينشط لم يجد متنفساً وراء هذا المضيق.

وآصرة النوع ونسبه العريق، ووحدته في الظعن والمقيل، وفي المصدر والمورد، كل أولئك امور يبعدها هذا الكائن عن تفكيره كل الابعاد حين تتزاحم في نظره الغايات، ومناط التقديم لديه أن تدنو الغاية من ذاته، ومن لحمه ودمه على الخصوص عند كثير من الافراد.

وحتى العواطف الغيرية التي تعصف به من داخل كيانه، وركائز النوع التي تعمل عملها في أعماق نفسه. انها لا تستطيع ان توجهه الى مجموعة النوع مادام متقلب الهوى، محدود الفكرة.

بوسعه أن يلتجئ الى مجتمع صغير يقترب من حدوده، فيلبي من نفسه دعاء الغيرية و يشبع سعار الأنانية. وقديماً صنع الانسان ذلك، ولبى به نوازعه ووواءم فيه بين حاجاته، واستمساكه بجدود الاسرة والقبيلة معروف منه في أدوار التاريخ. ولقوة الوحدة الاجتماعية وضعفها أثر محسوس في بناء المجتمع وفي سلوك أفراده.

وإذن فالمجتمع البشري فاقة الى ما يجدد وحدته ويحكم أسه و يشد بناءه.

الى ما يكوّن له وحدة جلية قوية تشعر بها نفوس العامة من الناس حتى يطيب لها الفناء في حدودها، والتضحية في سبيلها.

الى ما يثبت للفرد أن صوالحه المشروعة لن تفوت في ظلاله، و أن مايؤثر به مجتمعه من شيء سيعود اليه مضاعف العدد موفور الجزاء.

الى دين ينشئ المجتمع كله على الشعور بالاخوة، و يقيمه على مبادلة الحب، والتعاون على البر والتواصي بالحق.

أجل. بالمجتمع البشري فاقة الى دين، فان الروابط التي يذكرها العلماء الاجتماعيون لا تتعهدله بهذه الغاية.

وهذه الوحدة التي تلف المجتمع البشري من ألفه الى يائه حين يستمسك بالدين وتحكم أسّه، وتبرم علائقه وتحفظها عن الوهن وتكلأها عن الطوارئ. هذه الوحدة القوية المتينة لايفرضها الدين على المجتمع فرضاً من خارج ذاته، بل يستنبطها له من داخل حدوده، من طبيعة معلوليته في وجوده. أليس كل فرد من أفراد الانسان يعلم أنه معلول؟ والمجتمع كله يعلم كذلك انه معلول، وأن علته التي يفيد منها وجوده علة واحدة.

هـذا الرباط الذاتي الوثيق الذي يدركه المرء بفطرته و يؤمن به بعقله، و يتعاضد على اثباته البرهان والوجدان هومنبع الدين، وهو كذلك منشأ الوحدة التي يبتغيها للمجتمع. واقرأ اذا شئت قوله تعالى: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون)[1].

* * *

البشرية بجميع تخومها وأغوارها و بكل ألوانها ودمائها مجتمع واحد، والقانون الذي يحكم هذه المنظمة و يبرم وحدتها و يهذب آحادها وشعوبها انما هو الدين.

هذه نتيجة البحث السابق، وقد أسهبنا فيه بعض الاسهاب.

واللازمة الأولى لذلك أن لايحكم البشرية كلها سوى قانون واحد. سوى دين واحد. لأن البشرية ـ كما قلنا من قبل ـ مجموعة واحدة ذات اتجاه واحد، ولأن الركائز الحقيقية لهذا المجتمع واحدة فلا يشتق منها أكثر من قانون واحد.

واللازمة الثانية أن يكون هذا القانون (الدين) شاملا للانسانية كلها بهداه بحيث لاميزة فيه لعنصر على عنصر، ولا اختصاص له بفريق دون فريق، ولافضل لأحد على أحد الا بمقدار التزامه بالحق واستشعاره للهدى، وانقياده في العمل.

وللمجتمع نشأة طبيعية كنشأة الفرد وأدوار في الحياة مترتبة مثل أدواره، فله مولد كما لأي فرد من أفراده، ثم له دور طفولة وعهد صبا، وطور مراهقة، وله سن كمال ونضج، وله تدرج طبيعي أيضاً في نمو الوعي واتساع المدارك وتكامل المواهب، وهو يتدرج في تكامل وعيه واتساع مداركه مع تدرجه في أطوار حياته كما يتنقل الفرد في ذلك سواء بسواء.

ومن البديهي ان تختلف ضرورات الاجتماع مع اختلاف اطوار المجتمع في النشأة واختلاف أدواره في الوعي، ومن البديهي ان تختلف متطلبات هذه الضرورات كذلك من طور الى طور ومن دور الى دور.

فكان من الحتم ان يتدرج القانون الاجتماعي مع المجتمع الناشئ،وأن يعد له في كل طور مايوائمه.

على الدين ان يحضن المجتمع وليداً، وان يدأب في تغذيته وتنشئته طفلاً، ويجهد في تأديب غرائزه صبياً، و يسعى لتقويم عاداته وانماء مداركه يافعاً و يدخر للمجتمع التام النمو المكتمل الرشد مايوائم نضجه ورشده.

على الدين ان يتطور كذلك و يتدرج في تقديم هداياته وتطعيم علاجاته، أخذاً بناموس الارتقاء في الامور، وسيراً مع اقتضاء الحاجة في المجتمع.

١ ـــ المؤمنون: ٥٢ ـــ ٥٣.

ولولم تتطور الشرائع الدينية مع المجتمع، ولو انها اعطته غذاء الرجولة في دور الطفولة لكانت هازلة الحكمة فاقدة الجدوى. بل لكانت بالغة الضرر معكوسة النتيجة، ومن يثب الى القمة من ادنى السلم يوشك ان ينتكس الى الحضيض مهشماً.

وهذا التحول الأرتقائي في الشرائع لايثلم وحدة الدين أبداً كما ان التطور الاجتماعي ذاته لا يصدع وحدة المجتمع.

وعلى هذا المنهاج الطبيعي، وعلى هذا السنن الرشيد أنزلت السماء شرائعها للانسان فاعطته في كل عهد مايلائمه، و كان دور الرشد الاجتماعي هو دور الرسالة الكاملة والشريعة الخالدة.

* * *

وللانسان على رأس صلاته المتنوعة صلة بخالقه الذي كوّنه بعد العدم، وقواه بعد الضعف، وأغناه بعد الفقر، وكثره بعد القلة. والذي صوره فأبدع منه التصوير، ودبره فاتقن له التدبير.

عبودية لها معنى الحرية، وخضوع هو قوام العزة، وتبعية فيها سر الاستقلال.

بلى، الانسان عبد تابع خاضع، ولا يملك ان يكون إلا عبداً، ولايملك ان يكون إلا تابعاً خاضعاً، وليتفكر، وليتأمل وليطل تفكيره وتأمله إذا شاء، ثم لينظر أيستطيع أن يكون غير ذلك؟.

وقد يجحد المرء، وقد يمعن في جحوده إذا كان لايأبه لمنطق ولا يعي نداء فطرة ولا يكترث لدلالة أثر، يستطيع المرء أن يكون كذلك وأن يتطاول على ربه اذا كان من هذا الصنف الكنود، ولكنه لايملك ان يغير شيئاً مما وقع.

ليفكر في وجوده الذي به يكون، وفي حياته التي بها يقوم، وفي طاقاته التي بها ينشط. وفي جوارحه التي بها يعمل، وحواسه التي بها يدرك، و عقله الذي به يفكر، و لسانه الذي به ينطق، وفي كل خاصة و عامة من نفسه، و كل ظاهرة و خافية من جسمه، الا يحس أن جميع ذلك منه موجود بعد عدم، و مكتمل بعد نقص؟

ثم الا يوقن بأن هذا الوجود المستحدث بعد العدم المستكمل بعد النقص لامحيد من أن يكون له موجد حي يصرّفه بقوة و ينظمه بتدبير؟

هذه امور في حدود البداهة، فهل يستريب في شيء منها؟[1]

ثم لينظر. ألا يجد نفسه خاضعاً لهذه العلة تنفذ فيه أحكامها وتسيطر عليه بمشيئتها و تصرفه بقوانينها، وهو غير مختار في جميع ذلك؟.

ألا يجد ذاته تابعاً لهذه العلة كالظل لا يستقل و كالخيال لا يستغني؟.

١ ــ سنتعرض لقانون السببية، وسنتحدث مع من انكر هذا القانون لينكر بعض نتائجه.

ليتفكر في هذا قليلا أو طويلا ثم ليقل إن شاء، أليس هذا معنى العبودية الخالصة، والتبعية المحض؟.

الانسان عبد تابع خاضع، ولا يملك إلا أن يكون عبداً وإلا أن يكون تابعاً خاضعاً، ولكنها عبودية لها معنى الحرية، وخضوع به قوام العزة، وتبعية فيها سر الاستقلال.

ومتى شعر الانسان بأنه جزء صغير من الكون المحدق به ينقاد لسننه، ولا قبل له في ان يشذ عن واحدة منها، ثم رأى كل ما حوله من محتويات الكون خاضعاً لعلته يعنو لإرادتها و يضرع لقوانينها، ووجد كذلك ان كل نصيب تناله الموجودات من الخير، وكل حظ تصيبه من الكمال انما هو ثمرة ذلك الاستسلام وأثر ذلك الخضوع.

فالبذرة لن تصبح شجرة يانعة تؤتي ثمرها و تحفظ نوعها حتى تسلم وجهها لليد القديرة، فتخضع لما سنت لها من قوانين، وما نظمت من طرائق، وما مهدت من اسباب.

حتى تضع الجنين المودع فيها جُذيراً لا حول له ولا طول، ثم تغذيه عصارتها الى ان تثبت قدمه و يستقل بذاته ويمتد ساقه و تبدو أوراقه.

وحتى تربو تلك الشجيرة، وتضرب جذورها، وتكثر ثغورها، وتمتص الجذور ما يغذيها من عناصر الارض، وتتلقف الثغور ما ينميها من لطائف الجو، وتمثل وتنتح[1] وتتزود بقوى مختلفة وتجري عمليات معقدة.

و بويضة الانثى لن تتكون حيواناً بادي النشاط بالغ الأهمية موفور المنافع حتى تدين لخالقها بما قدر لها من سنن و يسرلها من سبل، فتستجيب للجرثومة الملقحة، وتخلد بعد التلقيح الى القرار المكين، وتتقبل الاغذية المتنوعة والنشآت المختلفة، وتعنو لتدبير يمدها في كل جزء جزء وتطوير ينالها في كل صورة صورة، ورفد يصلها في كل لحظة لحظة..

وكل بسيط أو مركب في العالم لن يوجد ولن يعتلي ولن يبلغ غايته المرجوة له حتى يخضع و يتجه لعلة ترعاه و عين تراه.

ولو قدر لها أن تكون ممن يعقل ويختار ولو انها تمردت على سلطان الله وندت عن قوانينه لحرمت الخير وقعدت عن الكمال.

أقول: متى شعر الانسان بذلك ـ و كله مشاهد محسوس ـ أيقن دون شك أنه عبد قانت، وايقن كذلك أن عبوديته هي منشأ الخير له ومصدر الكمال فيه.

وصلة ابن آدم هذه أسبق صلاته كلها بالقِدَم وأبلغها في الاثر، واشملها في الوجود. تنشأ

١ ــ التمثيل الضوئي اوالكربوني عملية دقيقة يقوم بها النبات بواسطة ضوء الشمس يجزئ بها ثاني أوكسيد الكربون، فيلفظ الاكسيجين منه و يحتفظ لتغذيته بالكربون. والنتح تبخيره الماء الذي تتشرب به الجذور مع العصارة لتبقى الاملاح وحدها للتغذية، ولتمص الجذور بدورها عصارة جديدة.

بينه وبين ربه على معنى الحاجة والتعلق، وعلى معنى الحب والوله، وعلى معنى الرجاء والانقطاع، وعلى معنى الخشية والاكبار. أليس جماع هذه المعاني بأسرها هي العبودية الخالصة والتبعية الوجودية؟ ثم اليس مناطها جيعاً هي القوة الأزلية الابدية التي بيدها تصريف المقادير واليها مصائر الامور؟.

على مزيج من معاني الحب العميق، والاجلال المضاعف، والاحتياج الدائم، والخضوع الملذ، والخشية الصادقة تنشأ علاقة الانسان بربه، ثم تسري مع الخلجات الى الروح، ومع الخفقات الى القلب، ومع الاحاسيس الى النفس، ومع التأملات الى العقل، ومع النية الى العمل، ومع السلوك الى العادة، ومع الاعتياد الى الخلق، ومع العاطفة الى الصلات الاخرى، ومع الفرد الخاص الى المجتمع العام. وتنتظم العلائق كلها في علاقة وتتوحد الغايات جميعها في غاية، و يأتلف الكون بأسره في وحدة، هي خلاصة الحب، وجوهر الاخلاص، ولباب العبادة.

هذه القاعدة التي يرتكز عليها الدين، والنقطة التي تلتقي عندها قوانينه، وتنشعب منها تعاليمه.

بلى. هذا هو هدف الدين إذ يشرع العبادة لله، واذ يرسم الاصول للعقيدة، واذ يضع الموازين للعمل، و يسن المناهج للاخلاق، والحدود للصلات، والمبادئ للغايات.

فهل يسع الانسان إلا أن يكون متديناً إذا آثر أن يبقى انساناً؟.

يحاول الدين ان يستخلص من خضوع المرء لعلته في التكوين وجوب خضوعه لها في التشريع ومن اتباعه لها في الوجود لزوم اتباعه لها في الارادة.

و يريد ليفهم الانسان ان الله وحده واضع منظمة الكون على أدق الموازين واثبت القوانين فيتحتم ان يكون هو بذاته واضع منظمة الاجتماع على ارسى العلائق واعدل الانظمة.

وليعرفه أن كمال الانسان هو غاية الله التي أرادها له لما برأه نطفة مهينة، ثم طوره وصوره حتى استقام مخلوقا سويا ينطق و يعقل، ولما آتاه هذه النفس الطلعة، واستودعها هذه الارصدة الضخمة. فلا يسوغ أن تؤخذ حدود هذا الكمال إلا عن الله سبحانه ولا يسوغ أن يصار في تشريع نظامه إلا اليه، لأنه اعلم بحدود غايته، وابصر بتخوم مراده.

ثم يقول له: الكون مجموعة متداخلة الاجزاء متسقة النظام متفقة الحركة، فلابد وان تكون القوة المشرفة على تدبيره قوة واحدة تتصرف فيه بقدرة، وتنظمه بحكمة، وتحيط به بعلم.

يريد الدين ليلفت المرء الى هذه الحقائق فهل يسعه إلا ان يكون متديناً اذا كان معنى الدين هو ذلك؟

* * *

وكلمة (الدين) في مجالها اللغوي تلقي اضواءً على كثير مما قدمناه.

وقد ذكرت معاجم اللغة أن لهذه الكلمة مدلولات كثيرة تستعمل فيها، وعدّت من

معانيها الغلبة والعزة والسلطان والحكم والطاعة والذل والورع والعبادة والعادة والسيرة والتوحيد والملة، ومفاهيم اخرى غير هذه تستعمل فيها اللفظة أيضاً وتدل عليها.

هكذا تصنع المعاجم، تسرد المعاني سرداً، ثم تمر الى ضبط مشتقات الكلمة وتعيين صيغ الجمع وكأنّها أتت في ذلك بكل مايرام.

اما أن هذه المذكورة معان تشترك بينها لفظة(الدين) أو هي فروع لمعنى واحد شامل وضعت له الكلمة، او هي مختلفة فنها المعنى الحقيقي للكلمة ومنها المعنى المجازي لها، أما هذا فلا تتكفله كتب اللغة ولا يأبه لتحقيقه اللغويون وليس من دأب أولئك ولا هؤلاء ان يتكلفوا امراً من هذا القبيل!! كأنه شيء لا يعني علم اللغة، أو كأنه يجب أن يوكل الى فرع جديد من هذا العلم من شأنه أن يزيل الخبط و يصنف المفاهيم.

ومن يستقرئ موارد الاستعمال لكلمة الدين يجد أنها قد تأتي متعدية بذاتها الى المفعول، فيقول القائل: دانه يدينه اذا قره واستعلى عليه، وقد تجيء متعدية باللام فيقال: دان له يدين اذا خضع له واطاع، وقد ترد متعدية بالباء فيقال: دان به يدين اذا التزم بالشيء وتعبد به.

واذن (فالدين) رابطة بين طرفين متفاوتين في المنزلة، وشيء هو من قبيل العقائد والاعمال يفرضه أقوى الطرفين و يلتزم به أضعفهما،فاذانسب هذا المعنى الى الطرف الأعلى كان قهراً واستعلاءً وحكما و تعدى اللفظ بذاته الى المفعول، واذا اسند الى الطرف الأدنى كان خضوعاً وطاعة وعبادة، وتعدى الى الطرف الملتزم له باللام والى الشيء الملتزم به بالباء.

ففي الدين معنى الحكم والسيطرة والقهر من جانب، وفيه معنى الطاعة والعبودية والمحكومية من الجانب الآخر. والدين بعد كل هذا ملة وعادة وسيرة باعتبار انطباعه في فكرة الشخص المتدين وبروزه في عمله، وتأثيره في سلوكه.

أما ما سوى ذلك من معاني كلمة الدين فيؤول اليه من قريب أو بعيد.

على انه ليس كل فرض والتزام بين طرفين متفاضلين في المنزلة يسمى ديناً في اللغة، فالقوانين التي تسنها الدولة وتذعن لها الامة لا تسمى ديناً، والاحكام التي تفرضها الملوك وتطيعها الرعية لا تسمى دينا، والأوامر التي تصدرها السادة وتمتثلها الخدم لا تسمى ديناً. ولذلك فلابد في الدين من عقيدة الربوبية القاهرة في جانب، والعبودية المقهورة في الجانب الآخر ولابد ان يكون الفرض والالتزام من توابع الربوبية والعبودية المعتقدتين.

ومن المخلوقين من يختلق له رباً فيخلع عليه صفات الالوهية، و يضرع اليه بالتقرب، ويفزع اليه بالاستعانة، ثم يؤدي له رسوماً من العبادات، و يلتزم صنوفا من العادات، فتكون له هذه الامور ديناً يدين به، و يصبح له ذلك الرب المفترى إلهاً يدين له وإن لم يدنه بذلك أحد غير ذاته، فهو المفترض وهو الملتزم، والتسمية حقيقية بعد هذا الاختلاق.

أما كلمة (الاسلام) فهي أدل على معنى الانقياد والطاعة من لفظ (الدين).

الاسلام انقياد المرء بعقله وروحه وقلبه، و بضميره وارادته و حركته وسكونه، وبجميع اجزاء بدنه وقوى نفسه لله الذي آتاه هذه المنح و بوّأه هذه المنزلة. انقياداً يلتقي فيه شكر النعمة واداء الحق وتلبية الواجب، و يتصل فيه خضوع التكوين بطاعة التشريع، و باطن السر بظاهر العلانية.

واذا كان الاسلام هو الانقياد لله فاطر السموات والارض، والاطاعة لما وضع من قانون والاتباع لما يسر من سبيل ولما اقام من دليل فانه ـ دون ريب ـ دين كل موجود في هذا الملكوت، وأي شيء لا يضرع لمكونه ولا يعنو لتدبيره، (وله أسلم من في السموات والارض طوعاً و كرهاً واليه يرجعون)[1]

و إذا كان الاسلام هو الاخبات لباريء الكون والاطاعة لما أمر والتجافي عما زجر، فانه بلا ريب دين الفطرة الذي يذعن له كل شيء و شرعة الحياة التي ينتهجها كل حي (ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب و كثيرمن الناس و كثيرحق عليه العذاب، و من يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل مايشاء)[2]

* * *

و بعد كل ما تقدم فهل استيقن القارئ معي بأن الدين الحق ضرورة لابن آدم من شتى نواحيه؟.

ضرورة لامندوحة عنها لانسانيته. لانه يشرع له مناهج الكمال، و يوضح له أعلام السبيل، و يبين له رسوم الغاية، ثم يأخذ بيده خطوة خطوة ليحقق له النجاح و يؤمنه من الانزلاق.

وضرورة لابدل عنها لنفسه، فانه يغذي رغبتها في التسامي و يوازن بين غرائزها في الحقوق فلاشدّ يؤدي الى ارهاق ولا ارخاء يفضي الى انزلاق، ولا مناوبة تدعو الى تهافت.

أجل. لا كبت في غريزة ولا عقدة في نفس، ولا ميوعة في خلق، ولا قلق في شخصية، بل عدلٌ محض في كل ايتاء وقسط خالص في كل منع.

وضرورة لجبلته فهويلبي الفطرة اذا تطلعت الى الغيب، و يردها الى الاستقامة اذا جمحت بها الجوامح، وهو يجيب دعاءها اينما تدعو و يفسر أحكامها حيثما تحكم.

وضرورة لتفكيره، فهو يعلي البصيرة و يفتح امامها أبواب المعرفة، و يسمو بالعقيدة و يرصد لها قوى البرهان، ثم يقيم للعقل في ميادينه تلك وزراً من العلم، ويجعل له سنداً من اليقين، ولجأ من الطمأنينة.

و هو ضرورة للفرد، يصلح أجهزة نفسه ليؤهله الى الكمال الأعلى في الحياة ويهذب سلوكه ليبوّئه المنزلة الكريمة في المجتمع، ويجلو مواهب روحه ليبلغ به السعادة الموفورة في الدنيا والعاقبة

١ ــ آل عمران: ٨٣.

٢ ــ الحج: ١٨.

الحميدة في الآخرة.

وضرورة للمجتمع، يوثق علائقه ثم يحفظها عن التفكك، ويقرر الحقوق والتبعات بين أفراده و يمهد لها في النفوس ثم يصونها عن أن تهن، ويؤسس الاخوة العامة بينهم و يقيمها على مبدأ الحب في الله والمساواة فى العدل.

والدين ضرورة كونية، يرعى الترابط بين أجزاء الكون حين يشرع، و يلحظ التآلف والانسجام بينها حين ينفذ، ثم هو يشتق قانون الانسان من قوانين الوجود حتى تنسجم الحركة، وتتواكب النظم وتتواءم الغايات.

والدين كذلك ضرورة خلقية وسياسية واقتصادية، فان فلسفات الاخلاق، والسياسة والاقتصاد التي ابتدعها الناس، والقوانين التي اشتقوا منها و بنوا عليها لا تبلغ كل أهداف الانسانية ولا تستوعب حاجاتها. ثم هي لا تقيم العدل التام بين غرائز المرء المتنوعة و بين ضروراته المختلفة. وهي كثيراً ما تحيف على بعض النواحي منه على حساب البعض الآخر، وان نظرة مستوعبة في تناقض هذه القوانين فيما بينها، وفي حدود مواقع النظر فيها ثم مقايسة هذه التخوم الضيقة بأفق الدين الرحب و بنظراته المستقصية، وموازناته الدقيقة، أقول: إن نظرة واحدة مستوعبة في هذه الخصائص توضح للمنصف نتيجة المقارنة.

هل استيقن القارئ أن الانسان يرتبط بالدين من شتى نواحيه، فلا غناء له عنه، ولا سلام له إلا في ظلاله؟.

الدين الحق هو الذي يلبي له هذه الضرورات كلها تلبية عادلة لانقص فيها ولا تزيد، ولا ميل ولا نشوز، أما ماسواه فلابد من أن يقصر ولا بد من أن يحيد، ذلك هو الفارق العظيم بين نتيجة يلدها فكر محدود و نهج يشرعه الله رب العالمين.

* * *

والوجدان لدى وفرة من الناس مصدر من مصادر التدليل، وقوة من قوى الحكم على الأشياء بالخطأ أو الصواب.

و يغلو بعضهم فيرى أن الدين حكر على الوجدان!

هذه المنطقة على الخصوص دون غيرها من آفاق النفس الانسانية هي مولده الحقيقي و مقره الدائم على مايرى هؤلاء. ويجني الجاني في رأيهم على الدين اذا أراد أن ينقله الى الفكر أو يتطلبه منه أو يستعين به على اثباته.

وهي دون ريب فكرة غريبة عن هذي البلاد وعن هذا الدين.

فكرة بلاد استعصى عليها ان توفق دينها مع العقل. وعز عليها أن تتبع عقلها بلا دين، فأفردت لكل منهما منطقة من النفس، وطمعت ان تحل المعضلة بهذا التقسيم.

أما أن العقل قد يرى من حقه أن يتمرد على هذه الحدود فيجمع الاسلاك والاشواك

و يقتحم منطقة الدين، وان الدين قد يثأر لقداسته و حرمته من هذه الجرأة فيهاجم العقل.

وأما أن الانسان يعيش ما يعيش قلق النفس مزدوج الشخصية يحمل في أغوار نفسه خصمين متناحرين لاينتهي خصامهما ولا يهدأ تناحرهما، و يتنازع قياده طول دهره قلب مؤمن وعقل ملحد!.

أما هذا جميعه فلا ينبغي أن يكترث له المؤمن في رأي هؤلاء ليسلم له الايمان و تحصل له الطمأنينة وتجب له النجاة!!! ان الدين فوق العقل، فليؤمن بهذه الحقيقة، وليعمل بموجبها وكفى.

وأما أنه كيف يسلم له الايمان، و تحصل له الطمأنينة مع هذا القلق؟ و كيف تجب له النجاة مع تمرد العقل وإبائه عن الخضوع وكيف يكون الدين فوق العقل اذا كانت حدوده من النفس هي منطقة الوجدان وحدها. أما هذا فلا يحسن التفكير فيه لمن يبتغي الايمان، ليخضع وجدانه للدين إخضاعاً. وليحمله على الايمان به حملا.. ثم لاشيء... ثم الطمأنينة، والقرار النفسي في الدنيا، والنجاة والفوز في الاخرى.

هكذا يقررون وهكذا يفكرون.

والوجدان هذا قد يعنى به (الضمير)، الحاسة الادبية التي نحكم بها على أعمالنا وأعمال غيرنا بالخير أو الشر، ونجزي العامل عليها بالتقدير أو الزراية، والتشجيع أو التوبيخ.

وهي حاسة لايجحد أثرها، ولا تجحد أهميتها في توجيه الانسان. والخلقيون والمثاليون ينيطون عليها آمالا و يعددون لها آثاراً. وقد ذكرناها نحن لما استعرضنا الذخيرة النفسية لتكامل الانسان. إلا أنها لا تثمر بذاتها خيراً ولا تملك نفعاً ولا ضراً ما لم تتهيأ لها اقيسة ثابتة عادلة، تنطبع بها روحها وتبتني عليها أحكامها.

انها قوة غريزية في الانسان، وليست مكتسبة له من خارج نفسه، وقد وجدت حتى عند البدائيين من الناس، وعند أكلة لحوم البشر منهم. ولمحت آثارها لدى الاطفال، إلا انها غير معصومة. فكثيراً ما اضلتها الخدعة، و كثيراً ما اخطأها التوفيق. والطوائف التي تتقرب الى آلهتها بدماء القتلى من البشر تجد لذع الضمير اذا فاتتها هذه القربة، والابناء الذين تفرض المجتمعات عليهم قتل آبائهم اذا كبروا وشاخوا يؤنبهم الوجدان اذاهم لم يمتثلوا هذه الفريضة، والقبائل التي ترى من الاحسان الى الموتى أن تحرق جثثهم بالنار و تذربها في الرياح توبخها ضمائرها اذا لم تُسد اليهم هذا الاحسان، والغلاظ الجفاة الذين يئدون اطفالهم صغاراً لا يعدون عملهم هذا إجراماً ولا تحاسبهم ضمائرهم عليها. وقبائل الهند التي ترى من الوفاء للرجل الميت والتكريم لمقامه أن تدفن زوجته الحية معه في قبره لا تأسى لذلك قلوبهم ولا تكترث له وجداناتهم.

فالضمير لا يستقل بالحكم أبداً، ومن أجل ذلك اختلف الناس في أخلاقهم واختلفوا في عوائدهم مع وجود الضمير في كل فرد منهم..

وقد يراد بالوجدان الموهبة التي نفرق بها بين مواقع القبح ومواقع الجمال، و بين درجاتها لدى التفاوت، فهو اذن خاص بنقد الفنون وما يشبه الفنون، وفي تمييز حظوظها من الابداع أو الاخفاق، وهو إذن حصيلة تختلف باختلاف ما يدرك الناقد من معاني الجمال ومن درجات التوافق والانسجام بين اجزاء الشيء وصفاته.

وقد يقصد بالوجدان مجموعة العواطف والانفعالات التي يجدها الانسان نحوالشيء ومجموعة الانطباعات التي يتركها الشيء في الانسان، فهو اذن مجموعة أهواء ومجموعة صور تختلف من شخص لشخص بل ومن حال لحال.

وأيا كان معنى الوجدان من هذه المعاني فهو لا يصلح لأن يكون ركيزة للدين ولا مقراً ثابتاً له، فان العقيدة الراسخة المتينة والمنهاج الثابت الخالد، والايمان القوي الصناع، الذى يصوغ الانسانية ويبني الحياة و يشد الاجتماع يستحيل ان تقوم على سند لا تماسك له ولا قرار، أو تحتبس في مضيق لارحابة فيه ولا اتساع.

والقرآن يتحدث الى الوجدان ويحرك ساكنه و يستجيش كامنه، لا ليؤسس على نظرته عقيدة ولا ليقيم عليها شريعة، ولكنه ليعلم حق العلم ان الانسان مجموعة قوى و غرائز و طاقات و نزعات وعواطف وأحاسيس، وقواه المفكرة وان كانت اهم ما فيه إلا انها ليست كل ما فيه، وكثيراً ما عصى المرء عقله ليدلل عاطفته، وكثيراًما وأد فكراً سديداً لأنه يخالف شعوراً يلتذبه أو انفعالا لا يرضى بتركه. و يعلم القرآن كذلكحق العلم أن الدين منهاج للانسان كله لا لعقله وحده ولا لروحه وحدها. فمن الحق أن يتحدث الى الوجدان كما يتحدث الى العقل، و من الحق أن يستثير العواطف والنوازع كما يستثير التفكير والتأمل.

من الحق أن توجه الهداية الى الانسان كله بعقله و غرائزه و مشاعره وسائر قواه و طاقاته.

ومن الحكمة والحق أن يستثار الضد لتمنع عادية ضده فيحرك حس الرحمة مثلا عند خوف الشقاق و يثار شعور الخوف عند خشية الانطلاق، و يلمس وترخفي من النفس لتأمن عدوى طبع ذميم أو لتُعانَ في بناء خلق كريم.

ومن الحكمة أن يصنع كل ذلكليستبين للعقل وجه من وجوه الحكمة و يفتح له باب كبير من أبواب التفكير.

من أجل هذه الوجوه وغيرها مما لم نذكره و مما لم نحط به علماً يتحدث القرآن الى الوجدان و يلمس العاطفة ويحرك النزعة الخفية و يداعب الشعور المرهف و يثير الحمية المغمورة. ويهتم بكل ناحية من نواحي الانسان ليسير به يقظان الوعي متوقد الشعور ينتظم حسه كل حركاته و سكناته وكل أفعاله وتروكه، ليسير كذلك كتلة واحدة شاعرة متيقظة الى الغاية التي يبتغيها الانسان و يدعو اليها رب الانسان.

* * *

واذا لم يكن محيد من أن ننظر الدين بمنظار الوجدان.

واذا لم يكن محيص من أن نحتكم اليه في أمر الدين كما حكّمنا العقل و حكّمنا الفطرة في أمره من قبل.

واذا انبرى من يقول لنا من الناس: الدين منهاج للانسان كله فلا بد من أن تقتنع به العاطفة كما يقتنع به العقل ولا بدمن أن يذعن به الشعور الغامض كما يؤمن به التفكير الصريح.

لقد استجوبنا فطرة الانسان من قبل واستجوبنا غريزته، واستنطقنا اشواقه القوية الملحة وضروراته الكثيرة المتنوعة، وفحصنا ذخائره النفسية التي أعد بها لبلوغ الكمال واتجاهاته الطبيعية التي تدفع به الى التسامي.

لقد جربنا كل أولئك فوجدناها تؤمن بالدين وتحكم بأنه ضرورة و بأنه قانون كقوانين الحياة في الاحياء والنمو في الناميات لاغناء عنه ولا بديل له..

ودلالة تلك البدائه على نتائجها وإن تك فكرية منطقية، من حيث أن الفكر المجرد هو الذي ينظر في هذه وفي صلتها بتلك، ثم في انسياقها معها واستتباع تلك لها. إلا أن لها كذلك دلالة واقعية وجدانية هي هذا الهوى الداخلي الذي يشد الطالب بالمطلوب ويحول وجهه اليه. وهي هذا الولوع الذي يتجه بابرة الملاح الى القطب الشمالي و يوقف حركتها بين يديه..

أرأيت الشجرة التي يسمونها زهرة الشمس قمر؟ أعرفت السر الذي يميل بزهرتها نحو الشمس أنى مالت و يولعها بقرصها حتى يغيب؟ انه السبب الذي يعقد المحتاج بمكان حاجته، و يولع الناقص بمصدر كماله. وانه بذاته السبب الذي يعلق ذخائر الاستكمال في الانسان بالمنهاج الذي به يكتمل و بالغاية التي اليها يسمو.

إنه بذاته السبب الذي يحول أوجه هذه الركائز في الانسان الى الدين.

وهي دلائل واقعية يعتمدها دعاة الدين كما يعتمدون دلالة البرهان. وأسميها وجدانية من حيث أن المرء يشعر بدعوتها في اعماقه. ولعل الوجدانيين يطلبون نوعاً آخر من حكم الوجدان، ولا يفقد الدين سنداً من النوع الذي يطلبون ما دامت ركائزه قد ملأت آفاق الانسان، آفاق نفسه و آفاق حياته.

وبحسب الدين أن تحرز له الثقة المطلقة من الناس اجمعين.

من الناس اجمعين حتى من الذين لا يعترفون به ولا يخضعون لأحكامه، أفرأيت اعجب من هذا؟ ثم هل تريد ان تمتحن بنفسك صدق هذه الدعوى؟

هب أنك اضطررت في يوم ما الى ايداع شيء كريم، وهب انك لم تصب في موضع ضرورتك هذه محلا معداً للوديعة، ولا شخصاً معروفاً بالامانة. و انك وقفت في حالك هذه على رجلين، أحدهما ثري شريف الارومة نابه الشأن يذكر بصفات من الخير تضاعف من شرفه و تزيد في نباهة شأنه، وثانيهما يحرم من غالب هذه الصفات، بل من جميعها سوى أن له شريعة إلهية تصده عن أن

يرتكب، وضميراً مؤمناً يزعه عن أن يخون ونفساً مطمئنة ترفعه عن أن يتدنس.

بل وهب أن الرجلين يتفقان في أهلية الوثوق فكلاهما مشهود له بالصلاح و كلاهما مذكور بالعفة والتجنب عن الخيانة. ولكن سند الوثوق في أحد الرجلين دين تشرق به نفسه، وعقيدة يمتلئ بها عقله، وإيمان يعمر به قلبه. ومبعثه في الرجل الآخر عادة مرن عليها لينال بها جمال الاحدوثة بين الناس أو طيب المعاشرة منهم أو أيّ مبتغى آخر سوى الدين.

هب انك وقفت في ضرورتك الى إيداع ذلك الشيء الكريم عليك بين رجلين هذه خصائصهما، فأي الرجلين تأتمن؟

وهب أنك رغبت في عقد معاملة مع أحد الشخصين، فأيهما تختار؟

وهب أنهما اختلفا لديك في الشهادة على أمر فبأي الشهادتين تثق؟

قد يسف عاقل فيتردد أيجب أن يكون للبشر دين أم لا يجب؟ وقد يتردد أيجب أن يكون الدين شاملا لجميع أصناف الناس أو أن يكون متسعاً لجميع شؤونهم أم لا يجب ان يكون كذلك. ولكن لن يتردد أحد من الناس في أن التدين أقوى سبب يوجب الوثوق بالمعاملة، وأملك باعث يقتضي الطمأنة بالصدق، وأمنع وازع يحدو على الوفاء بالحقوق والأداء للامانة. ومحاكم الدنيا كافة وقضاة العالم اجمع تتفق على هذا الرأي، فمن الامور التي لا ريب فيها عندهم أن شهادة الرجل المتدين ـ وان يكن وثنياً ـ أدنى الى الصدق من شهادة أيٍّ سواه.

والتفسير المقبول لهذه الثقة أن الدين هو الطب الواقي من أدواء الخلق، والدواء الناجع لعلل المجتمع، فالمستمسك بهداياته والسائر في أضوائه يكون أبعد الخلق عن الأدواء واقربهم الى الصحة، وأحراهم بالسيطرة على أهواء النفس، والارتفاع بالغرائز الدنيا. وتأريخ الأديان بينة أخرى على صحة هذه الدعوى.

أقول هذا وأعني تأريخ الاديان عامة لا خصوص أديان السماء، وأي دين من الأديان ـ مهما كان مختل الأركان فاسد الأجهزة سقيم التعاليم ـ لم يبعث الى الخير، ولم يدع الى البر، ولم ينهج بأتباعه الى الصلاح؟.

أي دين من الاديان لم يرم الى هذا الهدف، ولم يجر نحو هذا المدى، وإن يكن سعيه في نطاق ضيق وفي مجال محدود؟

* * *

والآيات الكونية المنتشرة ملء الا كوان وملء الزمان، أترى أنها سند للتفكير العقلي وحده في الدلالة على الله، والابانة عن شمول قدرته وسبوغ نعمته و وجوب الارتباط بدينه؟

والنظرات العميقة الحالمة في مظاهر الجمال و مشاهد الابداع من هذا الملكوت اترى انها مدد للبرهان المنطقي خاصة على وجود الله وعلى باهر جماله وعظيم جلاله، ولا حظّ فيها للعاطفة، ولا نصيب للوجدان؟.

يبدو أن جمهور علماء الكلام في الاسلام يرون هذا الرأي، فقد استدلوا بهذه المعلولات على وجود علتها. كما يستدلون بأثر يجدونه في التراب على قدم وضعته سواء بسواء.

أما الرحمة التي لا تزايل ذلك الأثر مادام موجودا.

اما الحب الذاتي الخالص الذي يعلق الأثر بمؤثره، و يولّهه به، ويحول وجهه اليه.

أما الرعاية الدائمة التي تقتضيها الربوبية المطلقة والانقياد الكامل الذي تقتضيه العبودية المطلقة، أما التعاطف والتحابب الذي يربط الآثار بعضها ببعض من حيث اتصالها بمبدأ الرحمة ومصدر الحب و ينبوع الخير، الذي يتعالى على السدود والحدود.

أما هذه المعانى وما يشبهها فهي بعيدة عن طرائقهم في البرهنة. ولو أنهم قدموا التوحيد للناس كما قدمه القرآن، ولو انهم اتبعوا طريقته في التدليل عليه، لكانوا أدنى الى استيفاء أغراض القرآن وأجدر ببلوغ غايته.

هذا التدبير الدائم القائم في كل آية آية، وهذا الجمال البهيج النضير في كل مظهر مظهر، و هذا الصنع المحكم المتقن في كل صغير و كبير، هذا جميعه ليس مدداً للفكر وحده، ولا مدداً للوجدان وحده بل هو مدد لهما على السواء. والتدبر الصادق والنظرات العميقة في ظواهره و خوافيه تملأ العقل اقتناعاً بالبرهان، وتملأ القلب اشراقا بالايمان، وتملأ النفس شعوراً بالحب وإحساساً بالرحمة واستمساكاً بالاخلاص، وتوقظ فى المرء أحاسيس الخير ومشاعر الانسانية و تصله أولا وآخراً بالله الذي انطق الأشياء كلها بالدلالة عليه والهمها أن تسبح بحمده وان تسلم وجوهها اليه.

كل ماهنا أثر.

أجل. كل ماهنا أثر، وقانون السببية ـ الذي أودع في فطر العقول، ثم أثبته الاستقراء، وسار على خطواته العلم ـ يقتاد العقل ليحكم في كل شيء يقف عليه انه أثر له مؤثر، وتقدير له مقدر.

ولكن هنا جمالا رائعاً يبدو في كل مجلى من مجالي الكون.

واتقاناً عظيما في كل صنعة من صنائعه.

و حكمة بالغة في كل شيء من أشيائه.

وعناية رحيمة في كل تدبير وفي كل تقدير.

والذوق المرهف والشعور الدقيق والاحساس العميق، بل والعاطفة الحية المتطلعة، هذه العدة الوجدانية التي يملكها الانسان هي التي يستطيع أن يتبين بها كل أولئك و يدرك مزاياه و يتعرف حدوده.

وقد لفت القرآن نظرة المرء الى كل أولئك، وحثه أن يستشف معاني الجمال فيما يرى، وان يستجلي فيه دقائق الحكمة و ينظر آثار الرحمة، واقرأ اذا شئت هذه الآيات الكريمة.

(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج. والارض مددناها

والقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماءً مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج)[1].

وكل ذلك أثر. والجمال المبثوث الرائع أيضاً أثر، والحكمة والاتقان والرحمة الشاملة الواسعة كلها آثار، ودلالتها على مؤثرها لا تنهض إلا بالفكر، وإلا بقانون السببية الذي تفتقر اليه دلالة الآثار، الا ان هذه آثار يشترك في التدليل بها الفكر والروح والقلب، و يعم الايمان بها والاطمئنان اليها جميع آفاق النفس و منافذ الشعور.

وللقرآن أساليبه الاخاذة المثيرة في تنبيه الشعور و توجيهه الى هذه الآيات، والاعتبار بها والافادة منها.

وهو يطيل و يقصر في عرض الآيات ويجمل و يفصل حسب اقتضاء الموقف وحسب اقتضاء الاسلوب، فيقول مثلا في بعض مواقفه مع الانسان، وفي أحد أساليبه في توجيهه:

(هو الذى انزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب و من كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الارض مختلفاً ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذّكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. والقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات و بالنجم هم يهتدون)[2].

جميع ما في هذا الملكوت مسخر لابن آدم، وجميع ما في الأرض مخلوق له، افليس من الحق ان يعرف هذه الاشياء و يعلم كيف سخرت له؟ فيفيد من هذه المعرفة ومن هذا التسخير؟ واليد القديرة التي خلقت له ذلك وسخرته أليست حرية بأن تعرف و حرية بأن تشكر؟!

كل ما في الملكوت مسخر لابن آدم وكل مافي الارض مخلوق له، وما من شيء في الكون إلا وله منهج مقرر ثابت، ومنهجه هذا يسهم من قريب أو من بعيد في إسعاد الانسان وتوفير موجبات الهناء له وتيسير مطاليب الحياة عليه. فمن الحق أن لا يمر عليها لاهياً عابثاً كمن لا يعنيه من أمرها شيء وان لا تصده عن التفكير فيه إلفة.

وأخيراً هذه المناهج كافة انما قررت من أجله فلا يتصور أن يحيى هو ويموت هكذا سدى دون منهاج، ودون غاية. و يقول في بعض مواقفه:

(قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين*

١ ــ ق ٦ ــ ١١.
٢ ــ النحل ١٠ــ ١٦.

وجعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها و قدّر فيها أقواتها في أربعة ايام سواء للسائلين• ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين• فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها و زينا السّماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم• فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)[1].

هؤلاء قوم يكفرون بالحق و يعرضون عن آياته أفليس من الحكمة ان يلقى لهم هذا الانذار الذي تقشعر له الجلود وتجف منه القلوب؟ فلعل وطأة الخوف تحملهم على اعادة النظرة والافادة من الفكرة.

• • •

أما الظنون التي اثارها بعض الغربيين حول الدين، وقلدهم من الشرقيين عبيد الغرب في العقول، وأجراؤه في العقيدة، ومستعمروه في الضمائر!!.

أما التهم التي استمسك بها المتحاملون على الدين من هؤلاء وهؤلاء، والتي خلخلت أركانه في أنظارهم على السواء فهي أن الدين (على مازعموا) عقبة في طريق العلم، وسد في سبيل التقدم، وأن الدين بيئة تربو فيها النقائص، في كنفه يتغلغل الجمود، وفي تربته تترعرع الاوهام وتحت ظلاله تستمكن الرجعية، وفي ميادينه تنجم الفروق وتكثر الفِرقُ، وتتشعب الكلمة، وان الدين مجال لسخف قوم من المحترفة يقدس الدين آراءهم ويحرم مناقشتهم!!.

بأمثال هذه الوصمات يصمون الدين و بنظائر هذه الطعون يضعون من قدره و ينالون من قدسه، وما ايسر الأقوال إذا لم يحفل قائلوها بالصدق، وما اخف الدعاوى اذا لم يكترث مدعوها بالبينات..

نشأ الغربي بين جدران بلاده وفي ظل سقوفها، فألفى بين يديه ديناً يحجر العقول ان تنطلق، ويحبس الألسنة أن تقول، ويحظر المواهب أن تستقل!. ووجد كنيسة تعبد سدنتها باسم عبادة الله، وتقدس اقوالهم باسم تقديس الوحي، وتزكي اعمالهم باسم تزكية الحق، وتحترم شهواتهم باسم احترام الدين!. وشهد أساقفة وكهنة يوجبون على الضعيف أن يذل للقوي، وعلى الفقير أن يستكين للغني، وعلى المحكوم ان يستنيم للحاكم المستبد، وابصر مجتمعاً محروباً منكوباً يؤمن دون تفكير و يقلد عن غير رشد، و يساق الى غير سداد.

نشأ الغربي هناك في بلاده فرأى الدين سلسلة من الموبقات ووجد علم الدين مجموعة من السخف، وألفى كتاب الدين ديواناً من الاباطيل والفى سدنة الدين طائفة من المشعوذين، ووجد شعار الدعوة الى الدين (ان الايمان فوق العقل، وان النجاة لمن آمن دون رو ية، ولمن صدق دون برهان)، أبصر الغربي كل هذا بعينه وادركه بحسه، فكان من الطبيعي له ان يظن سوءً و كان من

١ ــ فصلت ٩ــ ١٣.

الحق له ان يتهم.

ولكن كان من الحق عليه ان يقتصد في اتهامه وان لا يشخص الموضوع لسوء ظنه.

من الحق عليه أن ينظر ملياً قبل ان يبدي حكمه عاماً لا تخصيص فيه، مرسلا لا تقييد معه.

كان عليه متى اراد ان يتهم الدين في جميع صوره واشكاله ان ينظراليه في افقه المتسع الذي تجتمع فيه شتى الديانات، وفي صفاته الجامعة التي تشترك بها عامة المذاهب. او ان يتقصى الأديان كلها شريعة شريعة و يقلب خواصها طبيعة طبيعة. فاذا وجد في سماتها العامة مايوجب التهمة، أو رأى في خصائصها الشاملة ما يستدعي النقد فليتّهم غير ملوم، ولينقد غير جائر.

أما أن يسم الاديان كلها بالنقيصة و يعمها بالاتهام لأنه وجد منها ديناً واحداً جائر القصد منحل القواعد فهذا هو الجنف في الحكم والزيغ عن الهدى.

ونشأ الشرقي هنا. فوجد بين يديه ديناً يحكم الصلة ما بينه و بين العلم حتى أوشكأن يتبنى حقائقه و يدخله في حدوده، فعقائده لا تنهض إلا على اساس من العلم، ودرجات التقوى فيه لا تبلغ إلا بالمعرفة ورسوخ القدم في معارفه لايحصل إلا بسعة الافق، سعة الافق في خصائص الكون وبعد الغور في اسرار التكوين.

و وجد كتابا يقول في التعريف بخطر العلم وفي تبجيل حملته: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات»[1]، و يقول في تمييز هذا الفريق على من سواهم من الناس: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، انما يتذكر أولوا الالباب»[2] و يقول ايضاً: «وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »[3].و يقول في ترشيح هذه الفئة للمقامات الكبرى من الدين: «انما يخشى الله من عباده العلما»[4].

وسمع من أحاديث الرسول (ص) قوله المتواتر بين طوائف المسلمين: (طلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة) وقوله (ص): (العلم رأس الخير كله. والجهل رأس الشر كله) وعلم من مقررات هذا الدين ومن نصوص كتابه أن الجهل قاعدة كل محرم ورأس كل مأثم، وان الجهلاء من الخلق ابعدهم عن هدى الله واحراهم بغضبه واحقهم بعذابه. وان هذه الدواب السائمة من البشر التي تعمد فتسد عن عقولها منافذ النور وتطمس من قلوبها معالم الهدى، لها في موازين هذا الدين منحدر في الضلال لا تبلغه السائمة من النعم: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم

١ ــ المجادلة: ١١.
٢ ــ الزمر: ٩
٣ ــ العنكبوت: ٤٣.
٤ ــ فاطر: ٢٨.

أضل أولئك هم الغافلون»[1].

«ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون»[2].

وقد دل التأريخ الاسلامي على تغلغل هذا الروح في المجتمع المسلم وفي الدول التي حكمت الامة باسم الاسلام، روح التقدير للعلم و بسط نفوذه والعمل على انمائه. على أن اكثر الحكام المسلمين الذين مكنوا للعلم وعززوا سلطانه كانوا ممن يقتنعون بظواهر الدين عن حقائقه و بقشوره عن لبابه. إلا أن هذا الولوع الاسلامي بالعلم و بتكريم حملته قد استمكن فيهم على ما يبدو واصبح العمل عليه جزءاً مهماً من مناهجهم.

وقد شهد المنصفون من كتاب الامم بذلك، وكل هذا واضح لا جدل فيه ولا مرية.

يحس الشرقيون هذا واضعافه من دين الاسلام ومن اقوال رسوله ومن نصوص كتابه ثم يصرون الا ان يكونوا ببغاوات تردد وقردة تقلد!!.

على ان الاسلام انما يجري في ذلك على سجية كل دين قويم.

يعمل الدين القويم لتطهير الانسان من الرذيلة أيّاً كان نوعها ولصيانته من الرجس ايا كان لونه، و يدأب العلم في تحصين هذا الانسان من الجهل أيا كان شكله وتخليصه من الشكوك أية كانت صورها، والجهل والشك نوعان من الرذيلة التي يحاربها الدين، بل هما ينبوعان غزيران لكثير من انواعها.

فالدين والعلم اذن صنوان متآزران يعملان لغاية واحدة هي خلق الانسان الفاضل وانشاء المجتمع العادل، فكيف يكونان متنافرين؟.

والعلم يفك الختم عن رموز الكون ويميط اللثام عن اسراره، في الانسان والحيوان والنبات والجماد، في منطويات هذه الارض، وفي متسعات هذا الافق، وفي عناصر هذا العالم وطاقاته، وفي القوانين التي تؤلف بها العناصر وتصرّف بها الطاقات، والدين يمشي مع هذه الكشوف خطوة خطوة، و يقف بالانسان عليها حلقة حلقة، ليقول له: هذه صنيعة لابد لها من صانع وأنظمة لابد لها من واضع ففي أي نقطة إذن يبتعد عن العلم؟

والعلم من جهة خاصة مظهر من مظاهر الدين وشعيرة من شعائره، بل ومن أجلى مظاهره وأخص شعائره، فان العقيدة ـ وهي أسّ الدين ـ لا تستمكن إلا بالعلم، وإعجاز التشريع في الدين لايستوضح إلا من طريقه، والعبادات المقربة لاتخلص إلا باشعاعه، فالعلم اداة قوية للدين حين يوطد العقيدة و يزكي العمل، والعلم مظهر جلي من مظاهر الدين حين يتجافى بالبشر عن النقص و يدفع بهم الى الكمال، وهو عبادة من أفضل قربات الدين حين تحسن في طلبه النية ويخلص لنيله السعي، وتسمو في تحصيله الغاية. أسمعت قول الرسول (ص): (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين

١ ـ الاعراف: ١٧٩.

٢ ـ الانفال: ٢٢.

سنة) وقوله (ص): (مجالس العلم عبادة).

فيم هذا التفكر الذي يكون الاستغراق فيه ساعة واحدة خيراً من عبادة سبعين عاماً، يقول ذلك اكبرداعية في الناس الى العبادة وأعظم دائب منهم فيها؟.

فيم يكون هذا التفكر؟.

أليس في استعراض بدائع هذا الملكوت وابتلاء أخباره واستبطان أسراره.

أليس فى العلوم المبثوثة في هذا الكون العظيم المنثورة على آفاقه؟.

أليس في التنقيب عن نواميس الله في خلقه، والافادة ممافيه من قوة، والاعتبار بما فيه من آية؟.

اليس في هذه الأعاجيب الكونية التي تثبت للمرء عقيدته وتحكم صلته بربه وتخلص له عمله وتزكي له نفسه؟ وما قيمة عبادة جاهلة ليس لها هذا الروح وليس لها هذاالاشعاع؟ أفليس التفكر الذي يخلص العبادة و يزكيها وينميها خيراً منها جوفاء جامدة وان امتدت في الحياة سبعين عاماً أو سبعمئة؟

ثم ماهذه المجالس التي تعقد لمدارسة العلم وطلبه والبحث في اصوله وفروعه، و يقول الرسول (ص) انها تعقد للعبادة؟.

أليست تعم المعاهد المؤمنة التي يستجيب الباحثون فيها لقول الله سبحانه في كتابه: (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)[1].

أو ليست تعمّ المختبرات والمراصد العلمية التي يطلب العلماء بها تصديق قوله عزّ اسمه: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق)[2]. *

اليست تشمل المجالس التي تستبان فيها مظاهر قدرة الله وتستنطق شواهد حكمته، و بينات علمه وإحاطته؟

بلى. وهذه بعض الطرائق الكثيرة التي يستحث الاسلام بها اتباعه الى العلم، و يدفع بهم الى التقدم في مضاميره. ولكن اليس من الحق علينا ان نقيّد هذا الحكم بالعلم الصحيح كما قيدناه اول مرة بالدين الصحيح؟.

اليس من النصف أن لانتوقع من الدين ان يعترف بشيء من نتائج العلوم إذا لم توصلها التجربة والملاحظة الدقيقة الى حد يستحيل عليها التغير؟

على ان نواتج العلوم مهما اختلفت حظوظها من الصحة وتفاوتت قيمها في التجربة فهي ابداً تعضد الدين في جوهره وتؤازره على احقاق غايته، اليست هذه النواتج ـ على تباعد صورها ـ

١ ــ الاعراف: ١٨٤.
٢ ــ فصلت: ٥٣.

شروحاً مفصلة تعرب عن عظمة الكون ثم عن عظمة المكون؟

أو ليست ـ بجميع إشكالها ـ تقرر ان للعالم وحدة في المنهاج تشير الى وحدة في قوة التدبير والى إتقان في حكمة المدبر وسعة في علمه؟

ثم اليست هذ الامور بذاتها هي العقائد الاولى التي ينهض عليها الدين، والتي ترسو عليها دعائمه الاخرى؟ أوليست تلك الدلالات بذاتها هي الحجج الدامغة التي يعتمدها الدين في تثبيت اصوله وتمكين شريعته؟.

إذن فنتائج العلم كيفما اختلفت في الصورة لا تفتأ توثق العقيدة من الدين ولا تنفك تطهر النفس الانسانية من الرذيلة وتعدها للفضيلة، ولا يزال طلبها عبادة وزلفة ماصدقت فيه النية وخلص فيه الجد وزكت منه الغاية.

والعلم حين ينال هذه الصبغة من الدين يلغي حدوده الضيقة، فلا يبقى ملكا خالصاً للعقل، ولا نتيجة جافة للفكر بل يتضخم و يتسع حتى يملأ جوانب النفس، و يرهف و يستدق حتى ينفذ في طوايا القلب، و يتحلل و ينصهر حتى ينسكب في شعاب الروح، فيكون له شمول الدين ورسوخ العقيدة وركون الايمان وقداسة العبادة من كل نفس مؤمنة تعتزبدينها وتفقه حقائقه، وتدرك غاياته.

والعلم حين ينال هذه الصبغة من الدين وحين تحتضنه هذه النفوس المطمئنة، وتتولى تسييره هذه الضمائر الزكية يربأ بنفسه أن يكون اداة فناء و بوار وعامل فتنة ومحنة. ان يكون اداة خرق وطيش ونزعة اثيمة، وهوى مستبد، واستعباد بغير حق، واستيلاء بدون عدل وإخافة آمن، وترويع مطمئن فان الدين سيعصمه من جميع ذلك، فلا ينتج إلا ما يسعد البشرية، ولايفكر الا في عمارة هذه الأرض، ولا يسعى الا في اصلاحها، ولا يهدف الالربط المخلوقين ببارئهم، وتبصيرهم آياته، وتعريفهم قدرته، ثم شد علائقهم بعضهم الى بعض على هذه الأسس الثابتة وعلى هذه الغايات النبيلة.

و بعد فهل هذه فقط حدود العلاقة بين العلم والدين؟.

أَلَمْ يحتم الاسلام على أهله تحصيل أي علم وايّ صناعة يفتقر اليها تنظيم الحياة؟

أَلَمْ يفرض على المسلمين ان يعدّوا مااستطاعوا من قوة يرهبون بها عدوَّ الله وعدوهم؟.

وَ بِمَ يكون الإعداد للقوة المرهوبة؟.

أَلَمْ يصبح العلم في طليعة هذه المعدات؟.

العلم والدين خلطان متناصران متظاهران، يزود أحدهما صاحبه بالقوة، ويمده بالنصرة و يؤازره على نيل الغاية.. اما هؤلاء الذين يزعمون منافرة الدين للعلم و مناصبة العلم للدين فلعلهم يختلقون عملاقا ضخماً من الجهالات فيسمونه علماً او يصورون قزماً حقيراً من الأوهام فيدعونه ديناً!!.

وبعد. فالتفرقة بين العلم والدين ودعوى المنافرة بينهما خطة ماكرة وضعها الاستعمار وبثها التبشير، يرام بها إضلال المسلمين طريقهم وصدهم عن دينهم، وفصلهم عن ينبوع قوتهم.

فلقد أيقن المستعمرون ان لا سبيل لهم على المسلمين مادامت لهم وحدتهم، ولا سبيل لهم على المسلمين مادامت لهم قوتهم، ولاسبيل لهم على المسلمين مادام لهم هذا الدين، يحيون له ويحيى لهم. يمدهم بكل صالح، و يبذلون في نصرته كل غال.

إن الاسلام يسند أتباعه المستمسكين به قلباً الى قلب، و يشدهم صلبا الى صلب، و يضمهم روحا الى روح، و يصل هذه القلوب والأرواح والقوى متفرقة ومجتمعة بالله رب العزة وخالق القوة ومالك القدرة والنصرة.

إن الاسلام يسند أتباعه المحتفين بتعاليمه هذا السناد المكين، فهم قوة لا تطاق ولا يقام لها بسبيل لأنها موصولة المدد بالقوة العظيمة التي لا تتناهى.

ولا مطمع للذل والاستكانة في نفوس تكون لها هذه العزة وفي بلاد تكون لأهلها هذه الوحدة.

والغرب عدو ماكرمتيقظ لابد له من أن يحسب لهذه القوة حسابها ومن أن يعمل لها عملها.

لا معدى له من أن يفصل بين المسلمين و بين دينهم إذا كان يطمع في استعمارهم وفي فرض سلطانه عليهم، نعم. ولا معدى له من أن يبتكر الوسائل لهذا المقصد، و يضع الخطط لهذا الغزو.

مد أصابعه إلى الثقافة ليبعد فيها و يقرب، وإلى قواعد التربية ليمحو منها و يثبت، وإلى مناهج الحكم ليطيل فيها و يقصر، وغرس في النفوس، وغرس في الطبائع، وغرس في العقول وصاغ رجالا (لايستكثرون في ارضائه سحق دينهم ومحق أوطانهم). ونحت ضمائر (لا تكترث لاستغاثة حق ولا تأسى لمشهد ظلم) و بنى هياكل من لحم ودم (تعمل له أكثر ممايأمل وتدين له بأوفر مما يقبل)، وأوحى بأن الدين عدو للعلم، واوحى بأن الدين وكاء للحريات، ونادى بفصل الدين عن الدولة، وقال الدين وراء العقل، و.و..

ومكنت له أجيال عديدة حكمتها حكومات مسلمة بعيدة عن روح الاسلام، ومكن له استجداء شعوب مسلمة قوانينها من بلاد غيربلاد الاسلام واستسلافها عادات غيرعادات الاسلام، ومكن له تقدم أحرزه في العلوم المادية يستوجب الدهشة و يثير العجب، ومكنت له ثقة عمياء أكنتها له أبناء الشعوب المحروبة، ومكن له أن هذا بعينه هو موقفه في بلاده تجاه الدين وأن هذه الأقاويل بذاتها هي التي أذاعها عنه هناك ، ومكن له انخذال المسيحية بين يديه واقرارها له بصدق ما يقول، ومكن له خلاء في النفوس من معاني الاسلام وفراغ في الضمائر والأفئدة من تعاليمه.

ومكن له تقصير شائن في الدعوة إلى الدين وفي تعريف مناهجه و شرح أهدافه.

فما يمنعه بعد كل هذا من أن يقول؟ وما يحجره من أن يدعي؟.

والتبشير انما هو صنيعة من صنائعه، أداة فعالة في التمكين له.

انه تبشير سياسي استعماري لا تبشير ديني مسيحي.

وما علاقة اوروبا أو امريكا بالمسيحية؟ وما علاقتها بكتب العهدين بعد أن رفضتها ورفضت عقابيلها منذ قرون؟ ما علاقة هذه الدول بالمسيحية لتنفق عشرات الملايين من الدنانير على التبشير بها في كل عام؟!.

إنه تبشير سياسي يطبق ما يرسم له الاستعمار من خطط، و يتبع ما يلقي اليه من اشارة. و يبث مايفوض اليه من (دعاية)، فليضع المستعمرون خطط الغزو في الخفاء وليذعها المبشرون في العلانية، و بث هذه الخطط الماكرة لابد و أن يكون في طرق حلزونية معقدة...

ومن عجيب امرنا أننا قد ندرك بعض هذه الدسائس ثم نؤثر النوم لنتلذذ بالاحلام!.

* * *

وعن تلك الشبهة الجائرة.

وعن نظرة الرجل الغربي في المآسي التي لقيها من دينه ومن كنيسته.

وعن سير رجال الدين ـ هناك ـ في ركاب الاقطاع، يخضعون الأرقاء من الناس للظلم، و يصبرونهم على الذل، و يرضونهم بالواقع المر، و يخمدون في صدورهم لهيب الثورة، و يئدون في نفوسهم شعور الكرامة وطبيعة الرجولة.

عن هذه السيرة التي ألفاها الغربي لرجال دينه، وعن أثر هذا السلوك في شل العزائم واخماد روح الثورة من ناحية، والتمكين للظلم، وتثبيت اسس الاقطاع من الناحية الاخرى، أقول عن نظرة الرجل الغربي الى هذه السيرة نشأت قولته المعروفة عنه: الدين افيون الشعوب..

أساءه الوضع الاجتماعي القائم في بلاده فصمم على السعي، وقلّب بصره في وجوه الأمر فرأى الدين جاثما له في الطريق. فبماذا يلتمس الاصلاح؟.

أبإثارة شعور الكرامة في طبقات الكادحين؟ فالدين اذهب ما في رؤوسهم من نخوة، وعفى ما في قلوبهم من امل!

أم بهز مشاعر الرحمة والعطف في قلوب الرأسماليين والاقطاعيين؟ فالانغماس في الشهوات المحرمة أمات فيهم عواطف الخير وانحرف بغرائزهم عن العدل، والدين أمامهم يذلل لهم الرقاب و يسهل لهم الصعاب!

أم برفع الأمر إلى السلطة الحاكمة: فالقوانين القائمة تحمي الاقطاع، والدين القائم يحتم الطاعة لهذه القوانين، والدولة والكنيسة ورجالها من الاقطاع في الصميم!

أم بماذا غير ذلك؟ فالدين قد أوصد الأبواب وسد المنافذ وكم الافواه!

رأى كل ذلك ــ ولنغض هنا عن أي تعليل سواه ــ ورأى إصرار الكنيسة عليه وتهالك رجالها على تنفيذه، فقال: الدين افيون الشعب، وقال: الدين ايديولوجية وضعها الاقطاعيون والرأسماليون يحمون بها أنفسهم ويحرسون مصالحهم، وقال: الدين وعي مزور عن العالم لأنه يصدر عن عالم مزور، وقال: الدين زفرة الكائن المثقل بالألم وروح عالم لم تبق فيه روح وفكر عالم لم يبق فيه فكر. ولا لوم عليه لو أنه سدد رميته إلى مصدر الأذى.

وقالت الكنيسة تعزز موقفها: انها وصايا الله وكلمة السماء.

فقال فالحكم اذن آله جائر يحمي الظلم و يوطئ له و يبسط نفوذه و يود بقاءه، وهو إذن وهم خلقتموه أنتم ولم يخلقكم هو.

خلقتموه انتم ليعبدكم. ولم يخلقكم هو لتعبدوه.

واختمرت هذه الثورة في روع هذا القائل حتى استقرت فكرة، ثم أصبحت فلسفة يفسر بها كل ماهنا..

الوضع المادي الموجود بالفعل هو الأصل الثابت، ولحماية هذا الوضع الراهن حدثت فكرة الدين، وفكرة (الله)، وعينت الهيئات الحاكمة وشرعت القوانين الموجودة، وعن هذه المجموعة صدر ما هنا من نظم اجتماعية وأخلاقية وعادات وتقاليد، واذن فالافكار والنظريات والأديان والحياة العقلية كلها انما هي انعكاس للحياة المادية، وهذه وحدها هي الواقع الموضوعي.

ولمناقشة هذه الفكرة موضع آخر من الكتاب، ومهمناها هنا أن نتعرض لكلماته عن الدين.

لقد قلنا لالوم على كارل ماركس لو انه سدد رميته الى مصدر الاذى، فان الكنيسة في عصورها تلك حادت عن النهج القويم، وأي منصف ينكر ذلك؟ ولكن ماركس اطلق كلماته جارفة لا تبقي ولا تذر!!

ليكن ثائراً، وأي انسان متزن الطبيعة متقد الاحساس يرى الحق تحت براثن الباطل ثم لا يثور؟ ولكن من القبيح أن تثور على أحد من الناس فتطفق تحثو التراب في وجه كل من تلق، و يتضاعف القبح و ير بو أثره إذا كنت تطلب بثورتك أن تغير وضعاً قائماً، وتكون السماجة اكثر مضاعفة وأعمق أثراً اذا أردت أن تقيم على ذلك فلسفة حية، وتشتق منها نظاماً خالداً يغير التأريخ و يسعد القرون!!

ثم لنلتمس المعذرة لهذا القائل، لنقل هو ثائر. ولنؤمن ولو موقتاً بأن الثورة لا تقبل الاعتدال، ولو اننا استقبلناه وهو يردد كلمته فقلنا له: ان الخير في الاناة وان الحزم في التروي، والدين الحق لا يقر ظالماً على ظلمه، ولا يترك آثماً على اثمه لتضاعفت غضبته واستيقن أن ما نذكره له نوع من التخدير.

لنلتمس العذر لماركس بهذا ومايشبهه.

ولكن مابالنا نحن الذين عرفنا طبيعة دين الله و بلونا خبره وتلونا نصوصه و سبرنا تأريخه، وعلمنا سيرته. ما بالنا نحن نردد تلك الكلمات أيضاً كالأصداء؟!.

ما بالنا نحن بعد أن اتضح لنا كذب القولة و بعد ان قام على خطئها لدينا الف برهان نرددها بالسنتنا كالذكر ونصر عليها في قلوبنا كالعقيدة، ثم نهرع الى مبدأ هذه دعامته الاولى؟ افنبتغي الاصلاح بمبدأ يقوم على أساس فاسد؟!

أفدين الله أفيون يخدر العمال ويخضعهم لأرباب الأموال؟!

افدين الله ايديولوجية وضعها الاقطاعيون يحرسون بها أموالهم و يضمنون بها نفوذهم ويخضعون بها عبيدهم؟!.

آلاسلام بذاته دين محمد الثائر على الظلم المكافح للاستبداد والاستعباد، المحطم للاصنام والاوهام؟!

آلدين الذي ينكر على من يعتنقه أن يخضع لغير ربه وأن يخشى غير ذنبه، والذي يقيم نظامه الاجتماعي على مبدأ الاخوة العامة والولاية الجامعة والعدل الشامل والمساواة المطلقة أمام الحق، وعلى مبدأ التعاون على البر والتواصي بالخير والتناصر على الظلم!.

أهذا الدين بذاته أفيون الشعوب، وال (ايديولوجية) التي وضعها الاقطاعيون والرأسماليون لحماية مآربهم وتثبيت أقدامهم، والوعي المزور عن العالم لأنه صدر عن عالم مزور؟!.

ما أفحشه كذباً وما أقبحه هراءً!!.

ومتى كان الاسلام يقمع روح الثورة من نفوس الناس، ويميت إحساس الكرامة في قلوبهم؟ أحين قال في كتابه يعدد صفات المؤمنين التي يستحقون بها الكرامة الكبرى (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لايحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم).

بلى قال بعد هذه الآيات: (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور)[1] فما هذا الصبر الذي يدعو المظلوم اليه بعد أن شرع له حق الانتصار وحدد له مقادير الاستيفاء؟ أيمكن أن يكون هو صبر الخنوع والذل؟.

بديهي أن ذلك غير ممكن. ثم هو يقول في الآية (ولمن صبر وغفر) و يقول (ان ذلك لمن عزم الامور) إذن فهو صبر مقدرة ومغفرة، وعفو القادر ضربة مضاعفة تأخذ من نفس الظالم مالا يأخذه الاستيفاء من بدنه أو ماله، وهو بعد ذلك احسان يدفع الى تجديد الصلة بين الرجلين واقامتها على الحب وانكار الذات.

١ ــ الشورى ٣٩ ــ ٤٣.

ومتى هادن الله الظلم ومكن له ومد في نفوذه؟ أحين قال في كتابه. (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ذلكم خير لكن ان كنتم مؤمنين)[1] وقال: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الارض ولافساداً والعاقبة للمتقين)[2] وقال: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوافريقاً من أموال الناس بالاثم)[3].

ومتى رضي حياة البطر والترف، وتملق عواطف المترفين ودلل غرائزهم؟ أحين انذرهم بطشته في الامم السالفة أمثالهم فقال: (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنّا نحن الوارثين)[4] وقال: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين، فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون، لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون، قالوا يا ويلنا انا كناظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين)[5]

ان الاسلام لايرضى من المسلم أن يخضع للدنية و يستسلم للهوان، ويحتم عليه أن يثأر لكرامته وحريته، ويحتم عليه أن يلتزم العدل في ثورته وفي استيفاء حقه، والمسلم يعلم مادام ملتزماً بالعدل أن الله ناصره من الظلم ومجيره من البغي: (ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله)[6].

وحكومة الاسلام التي تمثله حق التمثيل مكلفة بصد الباغي ودفع العادي، و بتأديب الخارج على نظم الاسلام المستكبر على أحكامه وحسم ظلمه وقمع عاديته وهذه هي الموئل الاول للمظلوم لرفع العدوان عنه، أما الموئل الثاني له فهي القوة... فهي الحرب.

وحين يشب الكادحون بحقوقهم المشروعة. و يشنونها حرباً عادلة في وجوه المستأثرين فان المسلمين الآخرين وعلى رأسهم حكومة الاسلام لايسوغ لهم أن يتخذوا من ذلك موقف القريب المحايد أو الغريب المتفرج: (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فان بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين)[7].

(ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً)[8].

فاذا أعيا على المظلوم أن يدرك حقه، وإذا عز عليه الناصر وصعب عليه الانتصار فهل يباح له في شريعة الاسلام أن يتطامن للذل وأن يستلين مهاده؟.

إن الاسلام يحرم عليه هذا النمط المرذول من الحياة و يأبى له الاقامة عليه.

يحرم عليه أن يخلد الى الهون، و يوجب عليه الهجرة عنه، و يأنف له من أن يفتدي قراره في

١ــ الاعراف: ٨٤. ٢ــ القصص:٨٣. ٣ــ البقرة: ١٨٨. ٤ــ القصص: ٥٨.
٥ــ الانبياء: ١١ــ١٥. ٦ــ الحج: ٦٠. ٧ــ الحجرات:٩. ٨ــ النساء: ٧٤.

مكان ما بكرامته.

وليست كرامة الفرد في رأي الاسلام حقاً من حقوقه الخاصة ليكون مختاراً في إهدارها. إن كرامة الفرد المسلم هي بذاتها كرامة الاسلام وكرامة المجتمع المسلم فليس من حق الفرد البتة أن يتغاضى عنها و يتساهل فيها.

و يبتغي الاسلام من مختلف تشريعاته وهداياته أن يرتفع بشخصية المسلم و يعتلي بطباعه وملكاته، وكيف يبلغ به هذا المبلغ اذا استطاب الحياة الوضيعة وسهل قياده لها، ومرنت طباعه عليها.

ان الاسلام يحرم عليه ذلك.

فان هو لم يستجب لنداء العزة، ولم يهاجر بكرامته عن دار الهوان فقد عرض نفسه لمقت الله وغضبه واستوجب منه العقاب الشديد: (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفوعنهم وكان الله عفواً غفوراً)[1].

إن الاسلام يأبى الضيم، و يأبى لأحد من أبنائه أن يقر عليه أو يهادنه أو يجد مسلماً يرزح تحت أثقاله ثم لايخف الى نصره والى فك اساره، وهو يجند لذلك ضمير المسلم وإرادته وقواه وعامة مشاعره، و يوطئ له في عقيدته و يربط به أعماله، و يؤسس على ذلك بناء المجتمع المسلم و يقيم عليه صلاته ويحكم وشائجه.

وقد غنم الثائرون في تأريخ الاسلام ــ المصلحون منهم والمفسدون ــ هذا الاحساس القوي الملتهب في نفوس المسلمين فصرفوه لغاياتهم، ومن أجل ذلك كثر الناهضون في الاسلام وربا عديدهم ولم يعرف التأريخ لهم ضريباً في ذلك.

وقد عرف الاسلام بذلك عند ألد خصومه فأعدوا ما استطاعوا لقمع هذه الروح، وإماتة هذا الوعي، وقد تحدثنا عن ذلك قريباً.

نعم. وهذا دأب كل دين حق، ولكن غبار الارض قد يتراكم فيحجب محاسن السماء..

* * *

وحديث الرجعية والجمود حديث موصول السند بما تقدم.

إذا خرج الانسان من منزله الى وجهة معينة، فكلما سار خطوة نحو مقصده فهو متقدم، وكلما عادت به الخطى نحو منزله فهو راجع، واذا انقطع عن المسير فلم يتقدم ولم يتأخر فهو واقف (جامد) وإذا جنح في مسيره نحو وجهة اخرى فهو منحرف. هذا هو المعنى الاصلي للتقدم والرجوع

١ ــ النساء: ٩٦ ــ ٩٨.

والجمود والانحراف.

و يولد الانسان في هذه الدار فيبتدئ شوطه في الحياة، و يبتدئ نموه الطبيعي في مختلف أجزاء جسده، ولا يمكن له في هذا الشوط أن يرجع ولايمكن له أن يقف، ولا يمكن له أن ينحرف لأنه غير مختار في ذلك. و يتبدئ نموه الطبيعي في الشعور والوعي. ولا يسعه في هذا الشوط كذلك أن يرجع ولايسعه أن يقف او ينحرف لأنه غير مختار في هذا أيضاً.

و يبتدئ ــ مع الايام ــ نشاطه الفكري الاختياري، و يبتدئ كذلك سلوكه الانساني الارادي، يبتدئ من الانسان الطفل الى الانسان الرشيد الكامل الانسانية.

وهنا في هذين الشوطين يستطيع الانسان ــ لأنه مختار في سلوكه ــ أن يسير نحو الغاية فيكون متقدما، وأن يقف في بعض الطريق فيكون جامداً، وأن يتقهقر الى سلوك الطفولة فيكون راجعاً، وأن يخرج عن الخط المستقيم الذي يبلغه الغاية فيكون منحرفا.

والمجتمع كالفرد في هذه الأشواط وهذه الاقسام، وهومتقدم اذا انطلق في خط الرشد الانساني والاجتماعي، وهومتأخر إذا رجع الى أوهام الطفولة الاجتماعية وأحلامها، وهو جامد واقف اذا استمسك ببعض المظاهر فشغل بها عن السعي، واكتفى بناتجها عن الغاية، وهو منحرف اذا سلك سبيلا لا يوصله اليها.

هذه هي التفاسير الواضحة لهذه المفاهيم، وعليها يجب ان نعتمد في تقدير الاشياء وفي ايتائها ما تستحقه من الاوصاف والأحكام، فكل ما دفع بنا أو اعاننا على نيل الكمال الانساني فهو وسيلة من وسائل التقدم. وما قعد بنا عن الرشد أو حوّل وجوهنا نحو سلوك الحيوانية او الطفولة الانسانية فهو عامل جمود أو رجعية او انحراف.

وقد عرفنا في مباحث سبقت أن الدين هو السبيل المستقيم الذي يبلغ به الانسان الى كماله، وأن مناهجه هي المناهج التي توفر للانسان كرامته وتضمن له غايته وتسعد له حياته وتحمد له عقباه، فاذا استطاع أن يبر للانسانية بهذا الوعد واذا ملك ان يفي بهذا الضمان. فهو ــ دون تردد ــ العامل الاعظم للتقدم، والعدو الأول للجمود والرجعية، ونظام الاسلام هو برهانه الذي يقدمه على الوفاء.

ويحلو لبعض الناس ولبعض المتأدبين منهم أن يفسر الرجعية بالالتفات نحو الماضي، فكل ما تقدم به الزمن فاتباعه رجعية لن تحمد من الرجل التقدمي، ولم يضع هؤلاء السادة حداً لهذا الماضي الذي يجب نبذه ولم يذكروا نوعا للتراث الذي يحرم أخذه.

وان القرآن يعيب على الأخلاف ان يستمسكوا بعقائد أسلافهم، و بتفاسيرهم للمفاهيم العامة، و بنظراتهم في الكون والحياة، ولكنه يفرض عليهم أن يجمعوا هذه المواريث ثم ينصبوا لها الموازين، موازين الفطرة الصحيحة، والتجربة الصادقة والمنطق السليم، وما أعدته لهم الطبيعة وزودهم به الفكر، فما رجح من تلك الموروثات اخذوه وما خف نبذوه، فهل هذا هو ما يعنيه

السادة بتفسيرهم للرجعية؟.

انهم يطلقون التعبير، وانهم يشيرون من طرف خفي أو ظاهر الى الدين فيما يشيرون!. والدين لا يتوجس من هذه الاشارة ولكنه يستوحش من ذلك الاطلاق.

لا يتوجس أبداً من أن يتناوله النقد، ولا يستنكف من أن يخضع للبرهان، وما نصح للناس أن يعرضوا الاشياء كافة على الميزان ليستثني نفسه من هذا الحكم، ولكنه يخشى أن تهدر القيم والحقائق هدراً دون مبرر ولا حساب.

وفي تراث الماضي آراء وأفكار تحترمها الانسانية وتشمخ بها. وفي تراث الماضي خلاصات ونتائج جديرة بأن يعتز بها ويحرص عليها، وفي تراث الماضي عبر وتجاريب يجب أن تتدبر و يفاد منها، وفي تراث الماضي كنوز ثمينة من المعرفة لا يسوغ أن تهمل وتضيع، وفي تراث الماضي مفاتيح لكنوز جديدة لم تفتح بعد ولم تعلم محتو ياتها، وفي تراث الماضي مادة ضخمة تكفي لبناء مجد مستأنف ان لم نعترف لها بمجد غابر. فهل يحتم علينا هؤلاء السادة أن نهدر هذه الثروة كلها لنكون تقدميين كما يشتهون؟.

إنهم يهزلون ــ على ما يبدو ــ حين وضعوا هذا التفسير للرجعية والتقدمية.

واذا صح لنا أن نسمي ذلك انطلاقا في الغرائز وتقدما مع دوافعها، فانه دون ريب تأخر عن الرشد الانساني وعودة إلى الطفولة العقلية، وأي رشد في أن يتعرى المرء من ذخيرته السابقة، ثم يندفع مع التيار يرتجل الرأي ارتجالا في أي حادثة تلم به، و يفترض النظرية افتراضاً في كل ظاهرة تعن له.

ينطلق مع الغرائز والحيوان الأعجم، كذلك ينطلق و يندفع حتى ترتوي غرائزه وتكف عن دعوتها. و يرتجل الآراء و يفترض الأحكام والانسان البدائي يرتجل آراءه أيضاً و يفترض، وقد يحار و يرتبك مثله سواء بسواء، فما هو ميزان الرجعية اذن؟.

انهم يهزلون حين وضعوا هذا التفسير على ما يبدو، ونتائج الفكر الانساني وتطور السلوك الاجتماعي كالهرم لا تثبت له قمة مالم ترس تحته قاعدة وما لم تقم على القاعدة اضلاع متينة تشد البناء وترتفع بالقمة.

* * *

والطعن على الدين بأنه يمنع للمحترفين سخفهم ويحرم على الامة مناقشتهم؟.

إنها كذلك تهمة صلعاء وفرية مفضوحة. والقرآن الكريم يقول في ابطال هذا الأفك: «ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب. ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع قليل ولهم عذاب اليم»[1] و يقول: «ان الذين يكتمون ما

١ ــ النحل: ١١٦، ١١٧.

انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون»[1] و يقول: «فو يل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عندالله ليشتروا به ثمناً قليلا، فو يل لهم مما كتبت أيديهم، وو يل لهم مما يكسبون»[2].

من هؤلاء المتلصصون على قدس الله المختانون لأمانته، الكاتبون بأيديهم و بأهوائهم ما يكتبون، والقائلون لما كتبوا وما كذبوا هذا من عند الله، يحتالون بذلك على الناس ليأخذوا من دنياهم، ثم لا يبالون أن تتحطم بذلك عقباهم وتخزى به اخراهم؟.

ومن هم اولئك المراوغون المخاتلون الذين لا يذكرون شريعة الله إلا حيث لا تكلفهم عناءً ولا تصطدم لهم ببغية؟

ومن أولئك الطامعون في أن يتعبد لهم الأنام كما يتعبدون لبارئهم وأن يدينوا بأقوالهم كما يدينون بشريعته؟ من هؤلاء وأولئك الذين ناقشهم القرآن الحساب وأوعدهم أشد العذاب؟.

أليسوا هم المحترفين باسم الدين المتاجرين بشرائعه؟ «ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق؟»[3]. إن هؤلاء المتكبرين من الناس يشرئبون لأن ينازعوا الله حقوقه و يطمعون في أن يقاسموه سلطانه فلا مساغ معهم لهدنة ولا مكان لمسالمة، و ان الحرب معهم لطو يلة شديدة فان لم نخضعهم في هذه الحياة الاولى ولم ينيبوا الى ربهم و يسلموا إليه أمره فلسوف تمتد معهم الى الحياة الاخرى: «و يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين»[4].

و يسوءني أن أشير إلى موقف المسلمين من هذا الحكم، والى مقدار حرصهم على الوقوف أمامه!. و يسوءني أن اعترف بأيد تخبط ثم لا تني عن الخبط واهواء تلعب ثم لا تكف عن اللعب!. و يسوءني أن اعترف بأن هذا الموقف المزري وهذه الايدي العابثة هي التي مكنت للطاعنين أن يشيعوا قالة السوء عن الاسلام. ومن للانصاف بأن يفهم هؤلاء أن حقائق الاسلام غير اعمال المسلمين؟!.

والفروق. والفرق؟

انها النتائج المعلومة المحتومة لركوب الارؤس وامتطاء الاهواء، وانها اول القائمة التي ينابذها الاسلام، و يشن عليها الحرب العوان، وآيات الكتاب تجعل الغارة على الاهواء أول عمل يبدأ به الدين. ولاغرو فالأرض لن تكون صالحة للغرس الطيب المجدي حتى تستل منها آخر جرثومة من الطفيليات والاعشاب السامة.

١ ــ البقرة: ١٥٩.
٢ ــ البقرة: ٧٩.
٣ ــ الاعراف: ١٦٩.
٤ ــ الزمر: ٦٠.

«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[1]، ارأيت؟ ان الآية الكريمة لتكاد تقصر اهداف الله من شرعه في ان يقام دينه ولا يتفرق فيه!. ثم اقرأ اذا شئت قوله سبحانه: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء. انما امرهم إلى الله. ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون»[2].

لست منهم في شيء..

إنها المقاطعة التي تعلن بها الحرب... وانها القذيفة الاولى التي تبتدأبها.

ليس الرسول منهم في شيء، وإذا لم يكن الرسول منهم في شيء، فليسوا من الحق ولا من العزة، ولا من النصرة، ولا من المنعة، ولا من لطف الله الشامل ورحمته الواسعة، ليسوا من هذه كلها في شيء... إنما امرهم الى الله... الى الله وكفى، فهو ولي أعمالهم وهو ولي جزائهم، وإذا كان دين الله هو السبيل المستقيم الذي ينتهي بالانسان إلى رشده و يفضي به إلى كماله فالتفرق ــ لا محالة ــ ينحرف بالانسان عن الاستقامة ويخرج به عن السبيل و يبعد به عن الغاية.

والقرآن يذكر المتفرقين من أهل الأديان، و يذكر البواعث التي فرقتهم، والمعرات التي لزمتهم، يذكر ذلك و يشرحه و يكرره في كثير من المناسبات ليعتبر المؤمنون بماحدث، وليحذروا الانزلاق إلى مثله، فان البواعث بذاتها هي البواعث وان التبعات بأعيانها هي التبعات: «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم»[3].. «وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم»[4].

التفرق شؤم مصدره البغي وسبيله الضلال وغايته العذاب العظيم، والتفرق خروج على نظام الوحدة الذي بني عليه الاسلام، وفصم لعرى الاخوة التي وثقها القرآن، والمتفرقون دخلاء أدعياء، ليس الرسول منهم في شيء، وليسوا هم من منهاجه على سبيل.

هذه نظرة الاسلام للتفرق، وهذا حكم القرآن على المتفرقين... ولكن.

ما يصنع الاسلام والقرآن إذا لم يقم لهما اتباعهما على العهد ولم يقوموا معهما بالحق؟

ما يصنع دين محمد «ص» وكتابه إذا اشترى أشياع محمد بدينه ديناً من اهواء و بكتابه كتابا من اوهام، فاعتصموا بغير حبل الله واستمسكوا بغير ما امر الله؟ وما على دين الله من حجة بعد هذه التقدمة، وما على كتاب الله من غضاضة بعد هذه النذر.

وأخيراً أسمعت قرآن محمد يدحض هذه الشكوك قبل أن تورد، و يصد هذه التهم قبل أن تولد؟!

١ ــ الشورى: ١٣.
٢ ــ الانعام: ١٥٩.
٣ ــ آل عمران: ١٠٥.
٤ ــ الشورى: ١٤.

وقالوا: الدين عامل مؤقت اضطر اليه الانسان في طفولته الاجتماعية، يوم كان مفتقراً الى من يمسك بقياده في التوجيه، وإلى من ينوب عنه في التشريع. ولقد احسن القيام بوصايته على الانسان إذا استثنينا كبوات بان فيها ضعفه عن القيادة، وانحرافات عرف بها قصوره في الملاحظة.

وعلى اي حال فمن الحق على البشري أن يعترف له بهذه اليد وان يشكر له هذا الفضل، من الحتم على البشري ان يعترف للدين بالقداسة وان يكنّ له الحب وفاءً بالحق.

أما وقد رشد القاصر واستقل التابع وأدرك الصغير، فلا مسوغ لدوام الوصاية، ولا مبرر لفرض السيطرة..

وقائل هذه الشبهة ـ على مايبدو ـ اشرف خصاما وانظف سخيمة اذا كان في السخائم ما يعد نظيفاً، و بعد فهي شبهة تنشأ ـ على الاكثر ـ من قلة الخبرة بمهمة الدين وضآلة العلم بمناهجه و مآربه.

ومن يجهل وجوه الحاجة الى الدين والينابيع الاولى لعقائده والركائز الاصيلة لتشريعه يحسب انه قانون كهذه القوانين التي يضعها الانسان، تقتضيه مناسبة، وتحدده بيئة، فاذا حالت مناسبته او اختلفت بيئته وجب أن يطرح او ان يعدل.

ونظرة حرة منصفة فيماذكرناه من الوجوه وفيما لم نذكره منها تذهب بآثار هذه الشبهة و بغيرها من الشكوك ..

أما سقطات اخذها هذا القائل على قوامة الدين فلا أجحد وقوعها، ولا اتعرض للمعذرة عنها. ذلك انني لا ادعي نزاهة اي دين، ومن ينكر التياثات تؤخذ على اليهودية والمسيحية القائمتين بله غيرهما من اديان الارض؟ ومن ينكر وهنهما عن قيادة الانسانية في عصورها المتقدمة فضلا عنها في عصورها الحديثة؟.

ولكنني اعود فأقول: ضعف دين او اديان معينة عن القيام بالاعباء لا يعني ضعف الديانات اجمع. ومن حمل دينا اوزار غيره فقد جار عن القصد وشط في الحكم. واتحدّى الباحثين اجمع ان يقيموا ولو شاهداً واحداً ضعف فيه الاسلام عن القيادة.

فهل يستطيعون؟

* * *

وقالوا: ان الدين اذا امتلك المجتمع وتغلغلت فيه عقيدته واستتب عليه سلطانه، وسيطرت عليه احكامه اصبحت مراسيم ذلك الدين عادات اجتماعية قاهرة لا محيد من أن تطبق ولا سبيل لأن تخالف، وأصبح المحيط الاجتماعي قوة صارمة لتنفيذها والرقابة الشديدة على مخالفتها واصبح الفرد مطالباً بالطاعة العمياء لها، لانها مما يفرضه مجتمعه ولا يجيز له التسامح فيه، ولم تعد بعد مجالا للتفكير لتقبل أو ترفض مع دعوة البرهان، ولا موضعاً للخيرة لتطاع او تعصى بمحض ارادة. وتفقد موازين الصحة، وتلتبس امارات الحق وتنتفي فائدة التدين.

وقد عني واضع هذه الشبهة أن يلبسها أردية فضفاضة، وأن يقيمها على أسس من علم النفس وعلم الاجتماع فطول ومدد. وماذكرناه خلاصة وافية بمراده وهي على مازوقت لها من عبارة و بذل في تركيزها من جهد لا تبلغ بقائلها مايريد.

لا تبلغ به مايريد في دين لايقبل الايمان الاعمى والخضوع الأبله، ولايقيم لهما وزناً ولا يدخلهما في حساب.

ولا تبلغ به مايريد في دين لايرتضي العقيدة حتى تمكن لها الحجة، ولا يحفل بالعمل حتى يمحضه الاخلاص، ولا يعبأ بالايمان حتى يغرسه و ينميه الاختيار الحر.

ولا تبلغ به ما يريد في دين ينشر دلائله في كل صوب و يكشف حقائقه لكل ناظر، و يتيح الفرصة الكافية لكل متأمل.

والاسلام حين يمتلك المجتمع و يستمكن فيه روحه وتسيطر عليه تعاليمه لا بد وأن يطبع الروح الاجتماعي العام بطابعه، ولا بد وأن يقفه عند حدوده، فلا يخدش حرية الفكر، ولا يهدر حقوق الفرد، ولا يضيع حرمة الاختيار.

و بعد كل ذلك فلن تفقد موازين الصحة، ولن تلتبس امارات الحق ولن تنتفي فائدة التدين.

و بعد ذلك أيضاً فقد جعل الاسلام للمسلمين فيما بينهم ولاية التواصي بالحق والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، والحراسة لحدود الله وحرماته، وهي ولايات يبتغيها نشر الحق في أرحب دائرة تستطاع، و بسط العدل في أكبر مجال يمكن وهي ولايات يقتضيها التآزر على إقامة دين الله بعد استبانة هداه والتزام نهجه.

بعد استبانة هذا بالبرهنة القوية، و بعد التزام نهجه بالاختيار الحر.

فهي اذن لا تمس حرية الفكر ولا تطلُّ حرمة الاختيار.

* * *

وقالوا: الدين يؤدي الى الكبت والى ازدواج الشخصية.

فمن دأب الغرائز المودعة في الانسان انها تهوى الانطلاق، ومن دأب الدين أنه يكافح هذه النوازع، والمتدين من بني الانسان قد يقوى فيه عنصر الدين، فيعمل على قمع الغرائز وقهر ميولها وخنق رغباتها، وهذا هوالكبت المؤدي الى القلق والى الصراع النفسي الدائب، والى العقد النفسية الشديدة.

فان الغرائز لن تفتأ تتحرك لتنطلق، والدين يوالي عليها ضرباته لترتد، و يستمر الصراع و يشتد الضغط و يربو أثره. وترتد الرغبات والانفعالات مكبوتة الى أعماق النفس، وتتحول فى منطقة (اللاشعور) عقداً لاتحل واضطرابات لا تقاسى.

وقد تقوى دفعة الغرائز. فينطلق المرء انطلاق المنهوم وراء شهواته، و ينكمش عامل الدين

في زاوية من زوايا النفس، يتحفز ليثور، ثم ينظر الى الأمر الواقع فيخضع، والمرء بين العاملين المتناجرين قد يستولي عليه الشعور بالخطيئة فييأس ثم ينغمس وقد يغلب عليه الرجاء، فيلبي غريزته بالعمل، و يقنع تدينه بالأمل و يتقمص في ذاته الواحدة شخصيتين مؤمنة راجية، وفاسقة غاوية.

وقد يحار و يرتبك و يشذ و يشرد. وعلى أي حال فالواقع يعمل عمله، والانسانية تهوي وتتحطم والدين يشكو و يتبرم.

أسمعت؟ ولعله أنفذ سهم ظنَّ الناقدون أن العلم يسدده الى مَقاتل الدين.

وانه لسهم نافذ قاتل، ولامهرب عنه أبداً لدين يحمل الحملة الشعواء على واقع الحياة، ولا مهرب عنه أبداً لدين ينكر الضرورات الاولية في الانسان فيقمعها أو يحاول قمعها.

وإن ديناً هذه صفته ليستوجب ذلك وأكثر منه. ليستوجب الحرب من العلم، والحرب من الطبيعة، وأول من يحارب به الله الذي جعل هذه الغرائز في تركيب الانسان، وأمده بها. فما أودعها في كيانه سدى، وما ركبها فيه لتكبت وتظلم و يتقرب اليه تعالى بكبتها وظلمها!

ومحال على الله أن ينقض ما يعمل بما يقول، ومحال على حكمته أن يشرع مالا يستطاع، نعم وكل ذلك سديد لامرية فيه. ولكن أيُّ صلة لذلك بالدين الحق؟.

بدين يقدر هذه الضرورات حق قدرها و يفي بها حق وفائها.

دين الاسلام يعترف بضرورات الحياة و بضرورات الانسان، ولا ينكرها ولا يتنكرلها، و يرى من الحق أن تغاث لهفتها وأن تجاب. وقد يجد من الظلم المحرم أن لا تغاث ولا تجاب.

بلى. وقد يرتفع بالاستجابة المشروعة العادلة فيجعلها عبادة توجب القرب من الله وتسبب المثوبة لديه. ولتفصيل هذا بحث آخر من حلقات الكتاب.

دين الاسلام يعترف بهذا كله والمسلم يدين الله به و يستعين الله على ادائه. ولكن الاسلام يعلم حق العلم أن غرائز هذا المخلوق البشري كثيرة، وان رغباته وأشواقه أكثر. وأن شؤونه واتجاهاته في الحياة وفي لوازم الحياة أربى من هذه الكثرات بكثير. و يعلم حق العلم أن نشاط المرء وطاقته الحيوية لن تفي بهذه النواحي كافة مالم توزع توزيعاً عادلا لا حيف فيه ولا عدوان.

وقد أثبت العلم التجريبي أن النشوز في بعض غرائز الانسان أو في بعض رغباته لايكون إلا على حساب بعضها الآخر، فاذا استهلكت بعض نواحيه مزيداً من الطاقة فلا بد وأن يضعف نشاطه في ناحية توازيها. وإذا مالت الكفة بشأن من شؤونه فلا بد وأن تخف الثانية بشأن يعادله!

لقد عرف الاسلام ذلك جيداً واثبته العلم وحققته التجربة ولم يعد مجالا للشك.

واذن فلا معدل عن التحديد، ولا معدل عن النظر في مقدار مايجب، وفي مقدار ما ينفق.

انها طاقة الحياة فلا معنى للتسامح في إنفاقها، وإنها حقوق تتكافأ وتتقابل بين الغرائز والجهات الكثيرة فلا معنى للتساهل في حدودها.

وضبط الغريزة وتحديد مطاليبها غير كبحها وإبادة ميولها.

والطب الذي يعرف جوعة المعدة الى الطعام و يعرف كذلك فاقة الجسد اليه لايكون كابتاً لهذه الضرورة اذا حدد للممعود أكله ومأكله. والقانون الذي يعترف بالطاقة الجنسية و يعلم بالحاحها الشديد على الانسان لا يعد كابتاً لهذه الغريزة إذا حرّم تصريفها بطريق غير قانوني أو بغير رضى • الطرفين على أقل تقدير.

لا كبت في الاسلام ولا انطلاق. بل موازنة ومعادلة.

موازنة في النشاط الحيوي المبذول، ومعادلة بين الحاجات المقتضية.

أما أن يتمرد مسلم أو مسلمون (!) على نظم دينهم فيصابوا بالكبت، أو ينالوا مغبة الانطلاق فهذا وزر لا يحمله منصف على الدين.

موازين ونتائج

الدين ضرورة تقتضيها كل خافية من خفايا الانسان وكل ظاهرة من ظواهره..

والدين نظام تشير الى الحاجة اليه كل ذرة من ذرات هذا الملكوت وكل حركة من حركاته.

هذا ما فصلنا مجمله في البحوث السابقة واقمنا على ثبوته وجوهاً من البرهان.

واذا كان من الأديان ماهوحق يجب الخضوع له، ومنها ما هو باطل يلزم التجنب عنه، فلا بد للدين الحق من شيات يمتاز بها عن الدين الباطل، ليرفض الانسان ما يرفض منها عن علم، ويقبل ما يتقبله منها عن هدى. وقد أفدنا من بحوثنا الماضية عدداً من هذه المميزات، وعلينا أن نرجع اليها إذا اردنا التمييز.

فقد عرفنا أن الدين الحق ما نفذ الى اعمق دخيلة من دخائل النفس، وابعد غور من أغوار القلب، وادق مسرب من مسارب الروح، فأقام العدل في جميع هذه الانحاء، وأشاع التوازن بين عامة هذه الاصقاع. فلم يغفل غريزة من رشده ولم يهمل خليقة من تهذيبه، ثم لم يخالف حكم الطبيعة الحكيمة التي ركبت هذه الاشياء في الانسان، فلم يحف على جهة منها في حكم، ولم يتحيز لناحية منها في تشريع.

وعرفنا ان الدين الحق ما وهب الضمير الانساني بصيرة نفاذة الى الحقائق وطاقة مطبوعة على الخير، وزوده بالاقيسة العادلة والموازين المعصومة ثم بسط سلطان هذا الضمير على ارادة الفرد، ومد رقابته الى اعمال الغير مدأ رفيقاً يحقق به معنى التعاون على البر والتواصي بالحق، ولا يمس به كرامة الاختيار.

وعرفنا أن الدين الحق ما كان للمجتمع البشري روحاً حياً يكوّن وحدته، ونظاماً ثابتاً يشد علائقه و يضبط حدوده، وعقلا مرشداً يدبر حركاته و يوجهه في اعماله. ثم قوة وازعة تتولى صون العلائق فيه وتنفيذ الحقوق..

وعرفنا أن الدين الحق ما شمل الانسانية بجميع حدودها وتخومها، و بكل عناصرها وظلالها، فلم يختص بعنصر منها دون عنصر، ولم يميز فريقاً منها عن فريق..

بهذه الالوان الثابتة نملك ان نتعرف على الدين الصحيح متى اردنا ذلك، وعلى هذه الموازين نستطيع ان نعرض الاديان المختلفة اذا اردنا احقاق الحق منها وتزييف الزائف. أما ادلة هذه الفتاوى فقد تقدم البعض الكافي منها في الفصول السابقة.

ولا أغلو فأزعم أن كل واحدة من هذه الخصائص سمة مستقلة تكفي بمفردها للتعريف بالدين الصحيح. لا أقول هذا، فان تعيين الدين الحق لا يكفي له وجود خاصة واحدة من خصائصه مهما كانت تلك الخاصة مهمة فيه.

والشيء الذي لا ريب فيه أن فقد أية سمة من هذه السمات في دين من الاديان حجة قاطعة على قصور ذلك الدين، وان اجتماعها مكتملة فيه بينة على أنه دين الانسانية الحق وسبيلها القاصد الى وجهة الكمال ودليلها المأمون الى استقامة الفطرة.

واذا كان الدين هو المنهاج الصحيح لرقي الانسان الى كماله الاختياري المنشود فمن الحتم ان تجتمع فيه هذه الخلال.

من الحتم أن ينفذ الى ادق خفية من خفايا المرء وإلى أوضح ظاهرة من ظواهره، الى جميع خصائصه فرداً والى عامة علاقاته مجتمعاً، ثم الى المجتمع البشري في كل اجزائه ومقوماته وفي كل اعماله وغاياته، الى صلة الانسان بالحياة التي تعمه و بالكون الذي يضمه و بالمكون الذي يدبره.

كل هذه ميادين لنشاط المرء في فكره ونشاطه في عمله، وكلها مؤثرات عميقة التأثير في نشاطه في فكره وفي نشاطه في عمله، فمن الضروري للدين أن يتصل بها كافة متى أراد أن يقدم للانسان المنهاج التام لكماله التام.

أما طبيعة التشريع في الدين الحق فيجب أن تكون مرتكزة على الملاحظات العميقة لكل هذه الانحاء والموازنات الدقيقة بين مقتضياتها.

اذن ففي ضوء هذه المميزات لا بد لنا ان نستعرض الاسلام إذا أردنا ان نبحث عن صحته، أو اردنا أن نخوض في اسراره.

* * *

البشرية نوع واحد.

فالكمال الاعلى الذي تبتغيه كمال واحد.

والسبيل الذي تتجه فيه الى ذلك المقصد سبيل واحد، ولا مرية في شيء من ذلك.

البشر نوع واحد. هذه هي المقدمة الأولى التي يقوم عليها الاستنتاج، وهي بديهية الثبوت، وهل يدخل في روع عاقل أن البشر أكثر من نوع واحد؟.

فالغاية القصوى التي يؤمها هذا النوع غاية واحدة. وهذه هي النتيجة الأولى، والمقدمة

الثانية، وهي واضحة ثابتة كوضوح المقدمة الأولى وثبوتها، فان السنة المتبعة في هذا الكون وفي جميع ذراته، وفي جميع بسائطه ومركباته أن لكل نوع واحد منها غاية واحدة، وليس بمقدرة الانسان أن يشذ عنها، لأنه لا يملك أن يشذ عن نواميس الكون.

فالقانون الذي يصل البشر بغايته قانون واحد، وهذه هي النتيجة الثانية، وهي واضحة أيضاً وثابتة بعد وضوح المقدمات وثبوتها فان المبدأ الواحد والنهاية الواحدة لن يصل بينهما اكثر من خط مستقيم واحد.

والبشرية مجتمع واحد فهو بحاجة الى نظام اجتماعي واحد.

ويهدمه و يصدع وحدته أن يكون له أكثر من ذلك.

والركائز الحقيقية لهذا المجتمع واحدة فلا يشتق منها اكثر من قانون واحد.

هذه الفكرة المستندة الى هذه اليقينيات هي فكرة الاسلام عن (الدين) وقد جرى عليها في جميع أشواطه، و باستطاعة الباحث أن يقرأها صريحة في كثير من نصوصه، فقد جرى عليها لما هتف بالانسانية جمعاء بكل شعوبها وأجناسها ليجمعها على الصراط الواحد المستقيم. «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون»[1]. ولما انذر العالمين اجمعين بالخسران إذا هم ابتغوا غير دين الله منهجاً واتبعوا غير وحيه دليلا: «ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»[2] بلى. ومن يتنكب سبيل السعادة فلا بد وأن ينتهي الى الشقاء ولا بد وان يشعر بالخسران في نهاية المطاف.

وأديان السماء كافة ــ في رأي الاسلام ــ دين الهي واحد وضع بوضع الشريعة الاولى وآكتمل باكتمال الشريعة الاخيرة، ولم يختلف الا بما تفرضه سنة التطور، ولم يتبدل إلا بما يقتضيه سير الحكمة وحاجة المجتمع. فدين الله هذا الذي أرسل به رسوله الاكبر هو بذاته دين الله الذي اوصى به أنبياءه السالفين، وفرض على الناس أن يقيموه ونهاهم ان يتفرقوا فيه «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[3].

والرسل المطهرون من مبدئهم الى ختامهم انما يدعون الى اعتناق ملة واحدة لا تشعب فيها والى عبادة رب واحد لا شريك معه: «يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم. وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون»[4].

وقد جرى الاسلام على هذه الفكرة لما لازم بين اديان السماء في العقيدة وربط ما بينها في

١ ــ الانعام: ١٥٣.
٢ ــ آل عمران: ٨٥.
٣ ــ الشورى: ١٣.
٤ ــ المؤمنون: ٥١، ٥٢.

الايمان، فالمؤمن لن يكون مؤمناً حقاً حتى يصدق بكل من بعث الله من نبي و بكل ما انزل الى الانبياء من كتاب و بكل ما أوحى اليهم من شريعة: «ياايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي انزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً»[1]. «قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق و يعقوب والاسباط، وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون»[2].

وقد جرى عليها ايضاً لماسبر الانسان من اضعف مشاعره الى اقوى صلا ته، ومن ادنى خواطره الى ابعد غاياته، ثم وازن بين غرائزه القو ية والضعيفة حين تتصادم، و بين غاياته القريبة والبعيدة حين تتقابل، وحين صعَّد نظرته في الانسان الى حدوده العليا ثم صوبها الى حدوده السفلى، ليجمع كل هذه المجاري في مجرى و يؤلف جميع هذه المختلفات في وحدة، على هذه الفكرة جرى الاسلام حين صنع ذلك ليعد للانسان نظامه الواحد الذي لا اختلاف معه، القيم الذى لا التواء به، السمح الذي لا حرج فيه، العام ماوجد فرد من ابناء الانسان، الخالد ما بقيت حياة على ظهر هذا الكوكب. أما دلائل هذه الدعوى فيجدها الباحث في كل حكم من احكام الاسلام وفي كل هداية من هدايات القرآن. وسنتعرض لبعضها في الكتاب اذا امدنا الله منه بالتوفيق.

على أن الفكرة المتقدمة لا اختصاص لها بدين الاسلام، ولا يدعي الاسلام انه يختص بهادون ما سواه من الاديان، فهي فكرة رسالات الله عامة، وقد رأينا الاسلام كيف يقرر الوحدة بين اديان السماء وكيف يقيم على هذه الوحدة ربطاً وثيقاً في عقيدة اتباعه، رأيناه كيف يجعل منها سلسلة واحدة موصولة الحلقات متماسكة الاجزاء فالسابق منها مهاد للاحق، والاخير امتداد للاول.

والتفسير المفهوم لهذا الترابط هو ان الاديان في رأيه.تنفجر من ينبوع واحد ثم تسير في مجرى واحد الى مصب واحد. نعم وما بشارة أوائل النبيين بأواخرهم ولا تصديق اواخرهم لأوائلهم إلا تثبيت لهذه الفكرة، وسير مع مقتضاها.

ذلك ان الايمان ببعض رسالات المرسلين واغفال سائرها او الجحود به معناه الاول اقتطاع الجزء عن كله، ومعناه الاخير عدم الايمان بذلك الجزء أيضاً، لأن الجزء لايستقيم ولا يؤدي وظيفته مبتوراً، فلا محيد من تصديق النبيين بعضهم بعضا تمكيناً للغاية وتوجيهاً للانسانية.

وإذن فالاسلام يجد أن شرائع السماء تتحد معه في القاعدة المتقدمة وتتحد معه كذلك في كل سمة يمتاز بهاالدين الحق.

على اننا نلاحظ مايخالف ذلك في الأديان الموجودة المنسوبة الى السماء، وهذا إنما يدل على تحريف ماسخ يبعد هذه الأديان عن الصور الحقيقية لشرائع الله الاولى، اما الفكرة المتقدمة نفسها

١ ــ النساء: ١٣٦.
٢ ــ البقرة: ١٣٦.

فلا ريب فيها بعد ان مكن لها البرهان وعززها اليقين.

واعتراف الاسلام بأديان السماء الصحيحة لايعني اعترافه بهذه الصور الشائهة الممسوخة التي لا تجتمع وإياها في الفكرة ولا تتفق معها في الخطة، وقد لا تتحد معها بغير الاسم... وللبحث صلة تأتي ان شاء الله تعالى في فصل قريب.

* * *

«مايريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم، وليتم نعمته عليكم، لعلكم تشكرون»[1].

بهذه الآيه الكريمة الحكيمة يوضح الله غايته من تشريع الدين ورفع قواعده.

ليطهر الناس المؤمنين به المتبعين لأحكامه، وليتم نعمته عليهم، هذه الغاية التي ابتغاها رب الناس للناس من تشريع دينه ووضع أحكامه.

تطهير وإنقاء.. ثم تزكية وإعلاء

انه هدف مزدوج على ما يبدو، وكل شيء يرام أن يؤخذ به الى غاية فلا بد من إعداده لها ولا بد من تصفيته من أضدادها. والنفس البشرية جهاز كالاجهزة لايجدي نفعاً مالم تنظف أعجاله ومحركاته عما يعلق بها من أدران، وعما يقر في خزّاناته من رواسب، ولا يجدي نفعاً مالم يحسن مديره كيف يوجهه الى العمل المطلوب وكيف يستخدمه للانتاج الحسن الكثير.

تطهير وانقاء، هذا هو المأرب الاول الذي يعمل له الدين.

أجل. فللنفوس من أهوائها ومطامعها معوقات تصدها عن الخير، وعليها من سواها مؤثرات تصرفها عن الاستكمال، وللنعم أضداد من صفات الانسان تمنعها عن التحقق. ولها حواجز من ملابسات الانسان تعتاقها عن التمام. ولا مناص من اجتثاث هذه الآفات، وإقصاء هذه الغرائب اذا لم يكن مناص من بلوغ الغاية. والمعوقات المذكورة تتمثل في كل عمل محظور نهى عنه دين الله، وفي كل صفة ذميمة منعت منها إرشاداته وفي كل غاية وضيعة حرمت السعي اليها تعاليمه.

ثم تزكية وإعلاء، وهذا هو المأرب الثاني من مآرب الدين، وهو كذلك دور اتمام النعمة على حد تعبير الآية الكريمة، وبهذا تتم الغاية التي أرادها الله يوم وضع العقيدة وشرع الشريعة.

وواجب الدين في الدورين المذكورين أن يعد الذرائع المبلغة الى المدى، وان يوجه النفوس بصفاتها و بأعمالها الى الهدف، ثم عليه غير ذلك أن يلون الغايات المتفرقة حتى يرجعها الى غاية، وأن يضم المسببات المختلفة حتى يجمعها في مسبب هو الغاية الكبرى للدين والكمال الاقصى للبشر والنعمة العظمى لجاعل الدين وخالق البشر.

على الدين أن يهيّئ الوسائل المبلغة وأن يمهد السبل المستقيمة، وأن يتيح الفرص الكافية،

١ ـ المائدة: ٧.

وأن يقيم الدلائل الواضحة، وأن ينشر الدعوة الحكيمة. أما الاستجابة للدعوة وسلوك السبيل واغتنام الفرصة، أما ذلك فهومن شؤون المرء ذاته. فليس من خليقة الدين أن يكره، وليس من حكمة الله أن يضطر، وليس من كرامة الانسان ان يجبر.

الانسان ذاته هو الذي يتحكم في عقبى أمره فيحرز لنفسه الفوز أو يكتب عليها الخسار.

والهدفان المذكوران مترتبان في طبيعتها، فما يكون لنفس أن ترقى وأن تستكمل وهي لا تزال ملوثة السر قذرة العلانية، وما يكون لنفس مثقلة بالجرائر مرتكسة في ا لخبائث أن ترتفع الى منال الكرامة.

وطبيعي أن تنقّى الأرض وأن تستأصل ما في تربتها من جرثومة أو آفة قبل أن تبذر فيها أول حبة أو تغرس فيها أول نبتة.

وآفات النفوس ومعوقاتها عن طلب الخير ـ كما قلنا من قبل ـ تفوت الحصر وتمتنع على الحاصر، وهي كذلك غير محدودة الوقت ولا محدودة الأثر. ومقتضى ذلك أن يستمر التطهير مادامت مظنة للتلوث ومادامت مظنة للانتكاس.

من أجل ذلك كانت مهمة الدين مركبة أو مزدوجة طوال الحياة.

ومن هنا كانت عنايته بطب الوقاية تضاهي عنايته بطب العلاج.

ومن هنا كانت محرماته تربو على واجباته، وكانت تحذيراته أشد تغليظاً من ترغيباته.

ومن أجل ذلك أيضاً وثق الاسلام مابين الغايتين في الأسباب ولازم ما بينهما في التحقق حتى أصبحت أسباب التطهير بذواتها أسباباً للترقية ووسائل الترقية بأنفسها وسائل للتطهير،فقد قال مثلاً في الكتاب الكريم: «ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً»[1] وقال: «وأقم الصلاة طرفي النهار و زلفاً من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين»[2].

يصنع الدين ذلك لأنه يرى أن إفراد الغايتين في المنهاج تضييع للزمن وتفريط بالفرصة. وقد ينتهي بالانسان الى الحرمان من الغاية، ولأن التكامل الاختياري في مدرجة الرشد كالتكامل الطبيعي في سائر القوى الطبيعية كلاهما نموٌّ متصل مطّرد لامجال فيه لوقفة ولا مساغ لابطاء.

و بعد ففي الآية الكريمة إيحاءات يجمل بنا أن نقف على قليل منها.

يريد ليطهركم. وليتم نعمته عليكم، لهذه الغاية شرع الله الدين ووضع اسسه وأقام بناءه، ليتم نعمته عليكم، وإن النعم موجودة موفورة على الانسان منذ يوم خلق، إلا انها لا تستتم حلقاتها الا بالدين، ولا تبلغ تلك الحلقات غايتها المرجوة المحمودة ولا تؤتي ثمراتها الزكية الطيبة إلا باتباعه.

هذا ما توحي به الآية أفليس الواقع كذلك؟

١ ـ النساء: ٣١.

٢ ـ هود: ١١٤.

ومن البين أن أسبق النعم على المرء هي نعمة الوجود، وان جميع النعم الاخرى متفرعة على هذه في التكوين، ومن البين كذلك أن نعمة الوجود لن تصل الى تمامها الا يوم يصل الموجود الى ذروة كماله.

وماذا في الانسان غير وجوده (إذا صح مناهذا التعبير)؟.

ماذا فيه غير كيانه المادي الخاص، وغير الحياة التي تعمر الكيان، والعقل الذي يدبر سلوك الحياة؟.

فيه أجزاء مادية داخلية وخارجية يتألف منها الجسد، وفيه قوى وطاقات آليّة وإرادية يبرز فيها نشاط الحياة، وفيه أشواق وغرائز تشير الى ضرورات ذلك الجسد وفاقات تلك الحياة. وفيه أشياء كثيرة وعجيبة تدهش العقل وتحيّر اللب.

فيه هذه المجموعة الكبيرة من الاشياء المختلفة التي يقوم بها كيانه وتستقيم بها حياته، وكل واحد من أشياء هذه المجموعة نعمة كبيرة على الانسان لاصلاح له بدونها، ولو أنها فقدت أو نقصت منه لتعذرت عليه حياته أو لتنغَّصَتْ عليه معيشته واضطربت احواله.

فاذا استعرضنا هذه المجموعة واستقرأنا مافيها من أجزاء ومظاهر وخصائص وجدناها مليئة بالحوافز والاستعدادات. الاستعدادات للتكامل الانساني والحوافز على طلبه والحصول عليه.

وحتى نمو الانسان الطبيعي والاجهزة الكثيرة التي تعمل له، والطاقات الكبيرة التي تنفق فيه انما هي إعدادات لتلك الغاية.

فاذا كان الدين هو المنهاج الذي ينال الانسان به رشده و يستكمل به غايته فهو دون شك متم هذه النعم لا نها لن تستكمل فعليتها الا يوم اتباعه.

فالدين متم هذه النعم بمعنى أن تشريعه يضم نعمة كبيرة الى أعدادها الكثيرة.

والدين متم هذه النعم بمعنى انه السبيل الذي تبلغ به نهايتها.

و بعد أن يستحق الدين هذه الصفة، و بعد أن يكون بحق هو المتم لنعمة الله على عبده، فلا محيد من أن يكون تشريع الدين حقاً لله وحده، ولامساغ لأن يدان فيه لأحد سواه. هذا ما توحي به الآية أيضاً. أفليس الحق هو ذلك؟

الله وحده مفيض نعمة الوجود في ابتدائها ولا شريك له في ذلك ولا ظهير له عليه، أفلا يكون من حقه وحده أن يكون مصدر هذه النعمة في استكمالها وان لايكون له فيها شريك ولاظهير؟ والله وحده هو الذي استودع الانسان نزعة التكامل ومكن له في طبيعته وأعد له قواه ومشاعره، أفليس من حقه وحده كذلك ان يسن له المنهج الذي يتكامل فيه وان يهديه سبيله و يقيم له دليله.

الدين حق خالص لله فلا يؤخذ إلا منه.

والكمال البشري غاية الله من تكوين الانسان فلا يرجع في رسم حدوده ولا في تعيين سبيله الى أحد سواه. هذا ماتوحي به الآية الكريمة وهذا مايجب أن يكون، ألم نقدم جميع هذا

مبسوطاً بدلائله؟.

ولست أريد الاستقصاء في الآية لفتات اخرى حول الدين وحول الانسان، وفي القرآن الكريم إيضاحات اخرى لهذه المضامين وفيه آيات جمة تصف الدين بانه تطهير وتزكية و بأنه اتمام للنعمة وشفاء لما في الصدور.

* * *

ينظر العقل المستنير في أي شيء يلقاه من اشياء هذا الكون، فيرى وجود ذلك الشيء متوقفاً على غيره، فاذا نظر الى ذلك الشيء الثاني وجده كالاول حادثاً معلولا لشيء ثالث، فاذا ارتقى مع سلسلة الأسباب وجد الحكم مطرداً في كل حلقة منها، وهكذا في كل شيء وفي كل سبب، وكل ذلك محسوس متيقن.

وهكذا يثبت لدى العقل من هذا الاستقراء الشامل، حكم متيقن شامل هو (أن كل موجود حادث يفتقر الى سبب موجد)، وهذا الحكم الاستقرائي المطرد هو قانون السببية أو قانون العلية.

على أن هذا القانون أبين لدى العقل من أن يستعين عليه باستقراء بل واظهر من أن يفتقر في اثباته الى برهان، إنه من بدائه الفطرة فلا يرتاب فيه أحد، حتى الاطفال لأول عهدهم بالادراك .

يسمع الطفل صوتاً فلايرتاب في ان له مصدراً، ويمد عينيه الى جهة الصوت يفتش عن مصدره، و ينفتح الباب فلا يتردد في ان له فاتحاً. و يظل طامح البصر اليه يبحث عن فاتحه، و يتمادى به الفضول فيسأل عن مبعث مايراه من حركة، وعن سبب ما يحس به من امر، وقد تحدّثنا عن هذا فيا تقدم.

وكل انسان ذي شعور يفتح عينيه على هذه الحياة يتساءل في نفسه عن سرها وعن بداءة تكوينها وعن سببها الذي اوجدها يوم كانت، وعن امور كثيرة تتعلق بها، ويمعن في تفكيره، و يطلب من نفسه او من غيره اجوبة لهذه المسائل و يسميها مشكلة الكون ومشكلة الحياة ثم إما يؤمن بالسبب الاعلى لهذا الكون واما يلحد، فما الذي يحدوه الى التساؤل والى التعمق في الطلب؟

إن فراغ النفس من بذور الفكرة وجذورها معناه الغفلة عنها وليس معناه الالتفات اليها ثم الشك في تحققها والنتيجة لذلك ان يصبح الناس غافلين عنها الا أن يثيرها لهم مثير.

ما الذي يحدو بالمرء الى التساؤل ثم الى الالحاح فيه لولا قانون السببية الذي يحسه بفطرته؟.

نعم. ذلك القانون الفطري هو البذرة الاولى للفكرة، ثم إما توكده للانسان نظرة تفصيلية في مشاهد الكون فيؤمن، واما يعارضه هوىً مخالف في النفس فيلحد.

وحلق العلم وتوالت كشوفه وتتابعت خطواته، في الطبيعة، وفي الفلك، وفي الأرض. وفي

المعادن. وفي الجماد. وفي النبات. وفي الحياة. وفي الأحياء. وفي الانسان وفي مختلف جهات الانسان، وفي عناصر هذه المركبات، وفي طاقاتها، وفي الدقائق التي تأتلف منها العناصر. والوحدات التي تتكون منها الطاقات. وفي كل ماتناله التجربة وتبلغه الآلة.

وكشف قوانين تدبر هذه المكونات وقوانين تشد بعضها ببعض. وقوانين تحفظ علاقات بعضها ببعض، وما هذه الخطوات وماهذه الكشوف الا اطراد لقانون السببية أو اطراد لقانون الغائية.

وكم اثبتت المشاهدة العلمية أثراً، فقال العلم: لابد هنا من سبب لأن الفرض لا يتم بدونه، ووقفت المشاهدة ووقفت الآلة لأنها لا يملكان أن يقولا شيئاً، وأصر العلم على قوله، ومرزمان والعلم يقول، والمشاهدة لا تقول. ثم ثبت ذلك للعلم، وثبت للتجربة وثبت للمشاهدة وماقصة اكتشاف الكوكبين (نبتون) و (بلوتو) والسيارات الصغرى الواقعة بين المريخ والمشترى، ما قصص هذه الاكتشافات الفلكية من العلم ببعيد.

وجاء قوم فانكروا قانون السببية وأنكروا شهادة الفطرة وانكروا شهادة الاستقراء. انكروا جميع ذلك لينكروا نتيجة واحدة من نتائجه. هي دلالة هذا الصنع العظيم على صانع. أنكروا كل ذلك ثم وقفوا عند شهادة العلم لانهم لايستطيعون أن يقولوا فيه ماقالوا في سواه.

وأخيراً ألجأهم الموقف أن يعترفوا بقانون السببية في جزئيات الكون، في مجالات العلم التجريبي فقط، فيما تستطيع ان تكشفه الآلة و يناله الاختبار. أما الطبيعة ذاتها، وأما المادة التي يقوم بها بناء هذا الكون فلايجب أن يكون لهماسبب.

لماذا؟

لأن السبب الذي يتحدث عنه الالهيون لايناله الحس، ولا تبلغه الآلة ولا تدركه التجربة، أما ائتلاف المادة وقيام المكونات فمنشؤه المصادفة.

وليتهم يستطيعون أن يقيموا دليلا واحداً محسوساً على هذا الاستثناء الغريب، وأقول محسوساً لانهم لايدينون بغير الحس على مايقولون.

و بعد فما أعتى القوانين العقلية على الاستثناء وما اكثر الحقائق التي تستعصي على التجربة، أما المصادفة والاتفاق والتعاليل المضحكة التي ينحدر اليها تفكير الانسان في هذه المجالات فلها بحوث اخرى في غير هذا الكتاب.

* * *

«قل أغير الله ابغي رباً وهورب كل شيء»[1]

وهذا نهج آخر من التدليل يسلكه القرآن الكريم ليوحد الارباب في رب ثم ليحصر

١ ــ الانعام: ١٦٤.

الأديان في دين.

وكلمة الربوبية في لغة العرب تدل على مزيج من معاني العظمة والرفعة. ففيها معنى السيادة وفيها معنى المالكية وفيها معنى الرعاية والتربية الحكيمة.

والتربية حين يطلقونها يريدون منها تنشئة الكائن وتغذية جسمه وروحه وتنمية مداركه ومواهبه، وتعهده بالتهذيب والتقويم حتى ينمو و يستكمل، وحتى ينال غايته المرجوة من النمو والاستكمال. وإذن فكلمة الرب في الآية تدل على معنى التدبير الحكيم للمربوب بايتائه النظام التام لكماله التام.

وشيء آخر وضعته الآية الكريمة موضع التسليم، فلا ينبغي أن يثار حوله جدل، ولا ينبغي ان يسمو اليه ارتياب، فان العقول اسمى خطراً من أن تمتري في حق أو تجادل في برهان. ذلك الشيء الذي لاريب فيه أبداً هو أن الله رب كل شيء، فهل فيه مرية؟.

ان هذه حقيقة الحقائق، ودلائلها ملء الكون وملء الامكان و بعدد مافي هذا الملكوت من ذرة ومافيه من طاقة ومافيه من قانون.

ما في هذا العالم الرحب إلا أثر، والاثر لن يحدث أبداً دون محدث ولن يستقيم دون مقيم، وما في هذا العالم إلا مقدر تستعلن فيه الحكمة، وتستبين فيه القدرة، ثم لايزايله أثر التدبير والتقدير ما اطرد له البقاء. و ما اقتضى له الابداع.

افما ترشد هذه الخليقة الى خالق ثم هذا التدبير الى مدبر، وهذا الاتقان الى حكمة، وهذه الدقة الى علم؟؟.

ثم الا يدرك اي عاقل متبصر أن للكون وحدة شاملة كاملة في نظمه وفي حركاته وفي مجاريه وفي غاياته؟.

واخيراً — وقد أتاح العلم للانسان أن يبصر أشد من بصره وأن يحس أبعد من احساسه— فقد وجد ان الوحدة الكونية حتى في الذرة التي يتألف منها بناء الكون، وفي النظام الذي يحتويه تركيب الذرة، وفي الطاقة التي يتقوم بها ذلك النظام، والتجاذب الذي يتم به تأليف الكون وتستقيم حركاته وتترابط أجرامه، ثم في هذا التناسق المدهش بين أجزاء هذه المجموعة، الحي منها والجامد، المتحرك منها والساكن، التناسق الذي يكشف عن قانون واحد عام يدبر مجموعة القوانين.

أفليست هذه الوحدة المتكاملة دليلا على وحدة في قوة الايجاد والتدبير؟.

أو ليس هذا الطابع الواحد للوجود في عامة الاشياء رمزاً إلى صانع واحد؟.

والآية الكريمة بعد هذه التوطئة وهذا التوضيح تقول: إذا كان الله هو المدبر لكل شيء في الكون المربي له في كل دور، القيوم عليه في كل آن، واذا كان تدبيره للموجودات كلها على وفق أنظمة دقيقة لا تخطئ، وعلى نهج حكمة صالحة لا تضل، إذا كان الامر كذلك فلماذا يحاول الانسان وحده أن يشذّ فيبتغي له رباً آخر لم يعهد له الحكمة ومدبراً لا يأمن عليه الضلال؟.

أليست التربية في الدين فرعاً من مطلق التربية واذا كانت كذلك أفلا تكون حقاً خالصاً لله رب كل شيء؟.

أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء؟ هذا تساؤل يتوجه به القرآن إلى العقل المفكر ليوحي اليه أن كل ما سوى الله خاضع ومربوب فلا يصح أن يكون ربا ومدبراً. والى المنطق الحر ليعرفه أن انقياد المرء في الدين لايسوغ لغير العلة التي يخضع لها في التكوين. وإلى الفطرة الواعية ليقول لها: ان الكون بجملته يجري على سنن واحد ولا يملك الانسان أن يشذ عن قاعدة الكون: «افغيردين الله يبغون وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون»[1].

* * *

«قل أرأيتكم ان اتاكم عذاب الله او أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين. بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه إن شاء وتنسون ما تشركون»[2] وفي هذه الآية الكريمة يلتفت القرآن لفتته الحازمة إلى هذه النزعة المستكنة في اعماق الانسان، نزعة التعلق بغيب مجهول، والتوجه إلى قوة مسيطرة عليا يستمد منها التدبير و يسند اليها التقدير.

هذه النزعة القوية التي عصفت بالانسان منذ عصوره القديمة فلم يستطع الا أن يتوجه، ولم يملك الا ان يستجيب، وإن قصر به التفكير فلم يحسن الاستجابة وزاغ به الخيال فلم يفلح في التصوير.

قصر به التفكير فكانت استجابته عبودية عمياء، وزاغ به التصور فكانت آلهته حجارة صماء.

إلى هذه النزعة القوية الخفية التي قال كثيرمن علماء النفس وكثيرمن علماء الاجتماع وكثيرمن مؤرخي الاديان: إنها غريزة من غرائز النفس، وقد دللنا على صحة قولهم هذا في بحث سابق.

الى هذه الغريزة المؤمنة يلتفت القرآن في هذه الآية ليدل الانسان على ركيزة الدين من نفسه، وعلى برهان الربوبية من فطرته!!.

يطلب المشركون من الرسول (ص) آية تثبت لهم صدقه في دعوى الرسالة، فبم يجيبهم الرسول على طلبهم هذا؟.

وما أعدله طلباً وما أحقهم به لو كانوا يرومون منه تركيز العقيدة وتعزيز الايمان، وما كان الرسول (ص) ليترك الآية التي تثبت لهم صدقه حتى يطلبوها، فانه ما ارسل إلا للبلاغ وإلا لاقامة الحجة، ولقد أقام لهم من قبل هذا صنوف البينات وأبان لهم ضروب الحجج وقرعت أسماعهم آيات الكتاب، وهل فوق ذلك من مطمع؟ «أولم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في

١ ــ آل عمران: ٨٣.
٢ ــ الانعام: ٤٠، ٤١.

ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون»[1] «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد»[2].

انهم يطلبون من الرسول آية تثبت صدقه بعد كل هذه البينات و بعد كل هذه الدلائل فما معنى ذلك؟ وبم يجيبهم الرسول على طلبهم هذا؟ وانهم لايسألونه برهاناً يرشد العقل، ولايطلبون منه بينة تركز الايمان، ولو كانت هذه طلبتهم لكانت لهم فيما أبداه بلغة. بل يحتكمون عليه نزول آية تخرق النواميس وتعجل لهم العقوبة! فبماذا يجيبهم رسول الرحمة على هذا الاقتراح الغريب؟

سنقول: إن الاسلام في غنى عن اللجوء الى الخوارق، فما في الكون إلا آية تدل على صدق رسول الاسلام وما في الكون إلا معجزة تؤ يد له دعوته، وسنقول أيضاً، من طبيعة الآيات التي تخرق النواميس انها تأخذ النفوس بالايمان أخذاً ودين محمد ينشد الايمان الحرالمكين القائم على الحجة، المرتكز على الاقتناع، الايمان الحر الذي يتشرب به العقل وتمتلئ به النفس.

ولكن ما يصنع لهؤلاء؟ إنهم يطلبون منه آية من هذا النوع الذي يخرق النواميس. وخرق النواميس الكونية ليس أمراً تافهاً ليجاب اليه كل من يتشهاه.

ان الله وضع القوانين الكونية وفقاً لحكمة لا تحيد ولا تضعف، واطلق حكمها في الاشياء بارادته وعلمه، ولن يبطل الله قوانينه ولن يخلف حكمته مالم تعارضها حكمة خاصة هي أجدر منها بأن تراعى وأحرى بأن تطبق، وليس منها البتة هذه الاقتراحات البليدة التي يتبنّاها العابثون.

وخرق النواميس آية حاسمة لا نظرة معها ولا مهلة، فإما الايمان بعدها وإما الدمار.

ذلك أن المصدَّ على الكفر بعد هذه الآيات مصر على عناد، وقلبه قلب مو بوء لايرجى صلاحه ولا تؤمن عدواه، ومن الخير للمجتمع أن يحسم منه هذا العضو.

ولكن ما يصنع الرسول لهؤلاء، انهم طلبوا منه ذلك، وأصروا عليه إلا أن يكون: «وقالوا لولا نزل عليه آية من ر به؟...»[3] هذا هو سياق الآية الكريمة.

وهاهنا، وفي معرض اقتراحهم الغريب، وفي مجال طلبهم نزول آية تحيق بهم يلتفت القرآن لفتته الحكيمة فيصور لهم دهشتهم في موقفهم الذي يطلبون، ويخلص من ذلك الى الدليل الفطري الذي يؤثر، الى الدليل الذي لايرتاب فيه انسان ولا يغيب عن وجدان.

«أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله؟».

بهذه الجملة القصيرة ينقلهم الى الموقف المفزع المرعب، وانها لجملة تحضر في القلب الواعي كل ما للفزع والرعب من حدود.

١ ــ العنكبوت: ٥١.
٢ ــ الزمر: ٢٣.
٣ ــ الانعام: ٣٧.

أتاكم عذاب الله. والاضافة وحدها تجهر بما لهذا العذاب المطل من نكال و بطش، إنه العذاب الساحق الماحق،... إنه عذاب الله وكفى.. عذاب الله المقتدر المنتقم الذي لا يقاوم غضبه كما لا تحد رحمته. نعم. وكفى ذعراً، وكفى هولا أن يكون الموقف مما تحتجب فيه رحمة الله و يضيق واسع حلمه و يوصد باب عفوه!!..

ولا يخفف من الرعب أنه فرض اقتضاه عرض الحديث، ولا يهون من شدته أنه تقديم استدعته إقامة الدليل، لأنه عذاب الله لا يأمنه مستطيل عليه بشرك او متمرد على ربو بيته بجحود.

ها قد وقع الامر، وحقت الكلمة. وانزلت الآية. وتدلى العذاب.

ها قد وقع الأمر. واخذتكم الصيحة بغتة، وانقطع رجاؤكم من النجاة، وانبتّت آمالكم من المجير، و يئست عقولكم من الحيلة وعجزت قواكم عن المكافحة.

ها قد حل ما تستعجلون، وحاق بكم ما كنتم به تستهزئون.

واذا كنتم لا تزالون في فسحة فهبوا الأمر كذلك. هبوا العذاب قد حل فأدهشكم هوله، واخذتكم غاشيته. أو هبوا قد أتتكم الساعة، ألكم من الساعة مهرب؟ هبوا أنها قد دنت وتفاقمت خطوبها ووقعتم في مضائقها.

أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو اتتكم الساعة أغير الله أحداً تدعون لكشف هذه الشدائد وتفريج هذه الغمم؟.

ألستم في هذه المضائق تفزعون الى قوة قادرة قاهرة توقنون أنها تسيطر على هذا الملكوت وتهيمن على تدبيره وتنتهي اليها سلسلة اسبابه؟ أليست الفطرة تفزع بكم خاشعين الى هذا الموجود الاعلى تجأرون اليه بالدعاء، وتنزلون به الرجاء؟

ألستم تشعرون بسبب متين يشدكم إلى اعلى اذا تقطعت بكم الاسباب، و بسند قوي يثبّت رجاءكم إذا انهارت منكم الآمال؟ أليس هذا هو حكم الفطرة ساعة تستقل بالحكم؟ والفطرة تستعلن أحكامها في امثال هذه المآزق[1].

فلماذا ترشدكم الفطرة ثم تضلكم الفكرة؟!.

هذه القوة العظمى التي تؤمن بها الفطرة وتتجه اليها الغريزة حتى عند أبعد الناس عن الحضارة، وأقربهم الى حياة الغابة، هذه القوة هي الآله الحق، وتشريعه العادل لتدبير الانسان هو الدين الصواب، والاعتراف به والانقياد لشريعته هو الايمان الصحيح، وهذه الامور البديهية

١ ــ وقد ورد في الاثر الشريف ان رجلا قال للامام الصادق «ع» ياآبن رسول الله «ص» دلني على الله فقد اكثر عليَّ المجادلون وحيروني، فقال له يا عبدالله هل ركبت سفينة قط؟ قال نعم. قال فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال نعم. قال فهل تعلق قلبك هنالك ان شيئا من الاشياء قادر على ان يخلصك من ورطتك؟ قال نعم. قال «ع» فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حيث لا منجي وعلى الاغاثة حيث لامغيث.

(الباب الرابع من كتاب معاني الاخبار للشيخ الصدوق القمي ره).

الناصعة هي ما يدعو اليه محمد(ص) في دينه، فهل في صدقه ريب لمرتاب؟.

ولأمر ما أودعت هذه الركيزة في أعماق الانسان. انها اودعت فيه لتحفزه على التوجه الى الله ولتدفع به الى التفكير فيه، فما يكون له بعد أن يغفل وما يكون له ان يغضي، وما يكون له أن يعتذر، وكيف يغفل وكيف يغضي ومبدأ الفكرة (الالهية) مطوي بين جوانحه، ودليلها القوي البسيط مطبوع في قرارة نفسه، ولولا هذا الباعث الذاتي الى التوجه والطلب لأمكنت له الغفلة ولصح منه العذر، ولكنها حكمة الخلق تمهد لحكمة الدين.

هكذا يستبطن الاسلام خفي الغرائز وكامن النزعات ليفهم الانسان كيف يستخلص عقيدته من صريح الفطرة، ثم يبني عمله على خالص العقيدة.

مالي ولهذا النوع من الحديث يستدرجني اليه من حيث لا أدري، و يصرف قلمي نحوه من حيث لاأعلم؟ وقد أوعدت القارئ العزيز أن لا أتبسط. فلأعد الى نواحي الاسلام الاخرى، أما هذا البحث فأرجو ان يكون موضوعاً لحديث خاص عن (التوحيد في القرآن) اقدمه للقراء اذا أمدني الله سبحانه بالمعونة والتوفيق.

* * *

الدين هو المنهاج السوي لتكامل الانسان في رشده.

هذا ما فصلناه من قبل، واسلفناشيئاً من أدلته.

واذن فالدين نظام اختياري لاسبيل للجبر فيه ولا مساغ للاضطرار، لان تكامل الانسان في رشده اختياري لاسبيل للجبر فيه ولا مساغ للاضطرار. واذن فالسبيل لإ ثبات أي دين انما هو الاقتناع الكامل بصحة ذلك الدين، ووسائله هي بذاتها وسائل الاقتناع التي يعرفها العقل و يعول عليها في الاستنتاج.

البيان المشرق الذي لاغموض في أساليبه، والبرهان الناصع الذى لاالتواء في منطقه، والحكمة الرفيعة التي لاضعف في مراميها، هذه أدوات العقل متى حاول أن يقنع أو يقتنع، وهي بذاتها وسائل الدين في التدليل على صدقه أوعلى صحة عقائده، لانه انما يتحدث الى العقل. والاسلام دين الفطرة القويمة السليمة أحفل الأديان بهذه الحقائق واكثرها إشادة بها، وأشدها اعتماداً عليها.

يحاول الاسلام ان يبلغ الى كل نفس نفس فيملؤها عقيدة، وأن يتصل بكل عقل عقل فيفعمه يقيناً، وأن ينفذ الى كل قلب قلب فيغمره إيماناً. وكيف يتسنى له أن يدرك هذه الغاية مالم يصل الى النفوس بجمال البيان، والى العقول بنصاعة الحجة، والى القلوب بوفرة الحكمة؟.

ويحاول الاسلام أن يوحي الى النفس بكرامتها وهويلقنها العقيدة، وأن يثبت للعقل حريته وهو يرشده الى الحجة، وأن يشعر المرء بسمو منزلته وهويقبسه الايمان. يريد ليفهم الانسان أنه موفور الكرامة عزيز المكانة حر التفكير، فهذه هي الصفات التي يؤمل بصاحبها بلوغ الغاية،

ويريد ليوحي اليه بذلك ايحاءً فان الايحاء بالصفة أبعث الى اقتنائها، وأدعى الى الاستمساك بها والحرص عليها.

الانسان موفور الكرامة عزيز المكانة، ومن وفور كرامته وعزة مكانته ان يومى اليه بذلك ايماءً و يوحى اليه ايحاءً اذا اريد إفهامه ذلك.

و يريد الاسلام اخيراً أن يغرس العقيدة في نفس الانسان عوداً عوداً، وأن يعلل عقله من اليقين بها نهلة نهلة، وان يثبت الايمان بها في قلبه ركزة ركزة، فقد علم مشرع الاسلام أن التمكين في الغرس أرسى للأصل وانمى للفرع واجدى للثمرة.

هذه بعض مطامح الاسلام حينما يخاطب الانسان، وهل يتحقق شيء منها بغير البيان المشرق والحجة القاطعة والحكمة الرفيعة؟.

هذه سبيل الاسلام في دعوته، وهذا نهجه الذي يتبعه الى غاياته، وقد امر الله رسوله ان يجهر بها و يدأب فيها و يكدح من اجلها: «قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني»[1]. وهي كذلك سبيل من تقدم من الرسل المطهرين قبله «فهل على الرسل إلا البلاغ المبين»[2].

أما الآيات الخارقة لنواميس الكون فلا تعدو أن تكون حاجات مؤقتة قد يحدو اليها ضعف في عقول البشر عن الانتفاع بالبرهان، وقصور في مداركهم عن استجلاء الحكمة، ومن أجل ذلك كان أكثر وقوعها في الاديان الأولى وعلى أيدي الانبياء السابقين، أيام كان المجتمع البشري في أول السلّم وكان ادراكه العقلي في دور الطفولة. فهي اذن آيات تتضمن علاجا و تدليل يحتوي على تربية.

وخاصة هذا الضرب من الادلة انه يأخذ النفوس بالايمان أخذاً و ينتزع التصديق منها انتزاعا قبل أن يتشربه العقل بالمنطق السليم، وقبل أن تتذوقه الانسانية بالبيان المركز، فهو من أجل هذه الخاصة احتجاج يشبه القسر.

ودفقة الايمان السريعة على القلب كهجمة النور القوية على البصر لابد من ارتباك النفس أمامها قليلا إذا كانت النفس قوية، ولا بد من انخذالها اذا كانت ضعيفة.

وتفاديا عن عروض أمثال هذه الشوائب في هذه الادلة، وتنزيهاً لحكمة الله سبحانه في الاستعانة بها والاستناد اليها، وتقديساً لدين الله من أن يتطرق اليه وهن أو يظن فيه جبر، تنزهاً عن هذه الظنن التي قد يتعلق بها المتعلقون أوكل الله المقدمة الاخيرة من هذه الادلة الى العقل... الى العقل وحده، فهو المرجع الوحيد فيها وهو الحكم المصدّق.

ذلك ان الآيات الخارقة لنواميس الكون انما تدل ــ بحسب دلالتها الأولى ــ على قدرة الله

١ ــ يوسف: ١٠٨.
٢ ــ النحل: ٣٥.

وعظيم صنعه، واما صدق الرسول وثبوت الرسالة فانما تدل عليها بدلالة ثانية، و بضميمة مقدمة مطوية يستنبطها العقل الواعي ويحكم بثبوتها و يعول في الحكم عليها.

إن الخارق من صنع الله وحده يجيب به الرسول و يصدق دعواه، ومحال على الله القادر الحكيم العليم أن يصدق كذباً وان يرشد الى ضلال.

هكذا يتدخل العقل في امر المعجزات، وهكذا يحكم بصدق النبوة استناداً اليها، فهو اذن برهان عقلي تكون المعجزة إحدى مقدماته.

وهذا الضرب من الآيات لا يقوى بذاته أن يبلغ الايمان الى القصي الذي لم يشهد، وإلى الآنيّ الذي لم يولد، لايستطيع أن يبلغ الايمان الى أحد من هؤلاء ما لم يبلغ به السماع درجة اليقين.

من أجل هذا كله كانت الادلة الخارقة لنواميس الكون علاجات تحدد بحدود العلة، وحاجات تقدر بقدر الضرورة. ومن أجل هذا كله وجب أن يكون صدورها مسبوقا بالبلاغ الكيفي من الرسول و بالطلب الملح من الامة، فهي اذن عاضدة للبرهان ومجلية للحكمة، وموجهة للفكر القاصر الى تفهمها وتركيز الايمان الجدي عليها.

نعم. ومن أجل هذا كله كانت الأدلة الكبرى التي يستند اليها دين الاسلام معجزة المعجزات وخارقة الخوارق..

ليس في تدليل الاسلام على ذاته خرق لناموس من نواميس الكون، ولا تغيير لمجرى من مجاري الطبيعة. ولكن فيه بروزاً لعظمة الله في آيات كتابه، وسطوعاً لنور الله على بينات دينه، وتجلياً لحكمة الله في تعاليم رسوله.

نعم. ليس في تدليل الاسلام على ذاته خرق لناموس من نواميس الكون، ولكنه أخذ بيدالمرء بما لا يجهل من معجز القول الى ما لاينكرمن سمو المعنى.

هذا هو سر السر في إعجاز القرآن وفي آيات الاسلام الاخرى.

أما تفصيل هذا المجمل فله البحث الآتي.

* * *

قد يرتاب العلم الحديث بالخوارق فيشكك فيها ثم ينكر، وقد يتردد بعض العقلاء في وجه الاعجاز بها فيمتري ثم يجحد. إلا ان هذه الريبة وهذا التردد لا يتسربان الى معجزات الاسلام ولا يسري أثرهما اليها بوجه.

قد يرتاب العلم المادي بالخوارق لأنه يريد أن يخضع كل شيء لمختبر الكيموي أو لمبضع الجراح أو لمرقب الراصد، فاذا استعصت الخوارق على محاولاته شك في صحتها ثم جحد، وقد يتردد عاقل فيها لأنه يطمع أن يكتشف كل مبهم وأن يستبين كل سر فاذا استغلق على فهمه سر الاعجاز تردد في أمره ثم انكر.

أَلِفَ العلم بين اشياء هذا الكون نوعا من الترابط، وكشف ضروبا من القوانين، وشاهد وجرب واستقرأ وضبط، فدلت مشاهداته ودلت تجاريبه ودل استقراؤه وضبطه على أن الترابط محتوم وان القوانين معلومة، فلايجيء المسبب المعين الا من سببه المادي المعين والا من قانونه الطبيعي المعين. السبب الذي شاهده العلم والقانون الذي عرفه وجرّبه.

ومضى في طريقه يفيد من هذا الترابط و يفيد من هذه القوانين، و يدأب و يكدح ليكتشف جديداً أو ليستوضح بعيداً، وما يكتشفه وما يستوضحه يرتبط بتلك الصلات أيضاً، و يدين لتلك النظم.

فمن الصعب عليه جداً أن يرى ــ ولو نادراً ــ شيئا يشذ عن ذلك فلا يخضع للروابط ولا ينقاد للقوانين. ومن أجل ذلك ارتاب في شأن الخوارق وأنكر، و بتعبير أدنى الى الصدق اتهم بالريبة والانكار.

وموقف العالم ها هنا يجب ان يكون موقف الناظر المعتبر مادام الامر خارجا عن حدوده، وخارجا عن القوانين العامة المألوفة لديه، والذي عليه أن يتثبت من صحة ما وقع، ثم عليه أن يفيد من هذا الاستثناء اذا كان الواقع صحيحاً.

وما هو موضع الغرابة في وقوع المعجزة مادام كل حادث لن يحدث إلا بسبب وإلا بقدرة وإلا بحكمة؟ وما هو موضع الغرابة فيه ما دام كل حادث لا بدان يستند الى الله والى قدرته والى حكمته؟ والقوانين الكونية التي كشفها العلم وأفاد منها قوانين وضعها الله لتدبير الكون وربطه بأسبابه، وما وضعها سبحانه لأنه لا يستطيع سواها.. وما وضعها لتتحدد بها قدرته وحكمته.

ومادام الامر امر حكمة وتدبير فلنقدر ان مورداً قامت فيه حكمة خاصة تقتضي فيه ما يخالف الحكمة العامة، أيستحيل أن تتعارض الحكم في الاقتضاء؟. ولنقدر كذلك أن الحكمة الخاصة التي يحتوي عليها الشيء أشد اهمية من الحكمة العامة واجدر بالمراعاة. فما يصنع الفاعل القادر الحكيم؟.

أفيضحي بهذه الجهات الخاصة استمساكا بالقانون العام؟!

وابن آدم مخلوق محدود النظرة، وهو يريد أن يحدد قدرة الله في فعله اذا هو لم يدرك وجهاً لذلك الفعل. وقد مضى العلم يثبت له انه بذاته يستطيع ان يفعل الخوارق بعد أن وضع بيديه مفاتيحها، ثم هو لم يفتأ بعد ينكر و يستنكر على الله أن يأتي بالخوارق. لأنه هو لم يجد مفاتيحها!!.

اقول قد يرتاب العالم الذي لايذعن إلا للتجربة والعاقل الذي لا يؤمن بسوى المحسوس، قد يرتاب هذان في أمر الخوارق، وقد يتأدى الشك بهما الى الانكار، إلا ان هذه الريبة لا تتسرب ابداً الى معجزات الاسلام.

المعجزات التي يعتمد عليها دين الاسلام لاثبات صدقه محسوسة مسموعة لكل حس ولكل سمع فلا يرتاب فيها علم، وهي لا تنقض ناموساً من نواميس الكون ولا تغيّر مجرى من مجاري

الطبيعة فلا يمتري فيها عقل، وهي عامة شاملة لكل عصر ولكل جيل فلا يتردد في حكمتها عاقل.

معجزات الاسلام لا تفجأ الانسان من قبل خرق النواميس الكونية فهي ليست في الطرف الأدنى من حدود الاعجاز، بل تأتيه من جهة الكمال في هذه النواميس فهي في الطرف الاسمى من تلك الحدود.

لا أوقف قارئي طويلا ثم لا أحيله بعيداً. فهذا القرآن معجزة الاسلام الاولى لنضعه بين أيدينا ثم لننظر أي ناموس من نواميس الكون نقض وأي مجرى من مجاري الطبيعة غيّر؟.

لم يحي القرآن ميتاً، ولم يحول لهب النار برداً، نعم ولم يرسل طوفاناً من ماء ولا فجر ينبوعا من حجارة صماء. لم يصنع القرآن شيئاً من هذا القبيل ولكنه جاء بالبلاغة، والبلاغة كمال يطمح اليه الانسان، و يتباهى بالتحليق اليه كل عربي وكل قرشي على الخصوص، والعرب وقريش أئمة البيان ولا منازع، وأمراء البلاغة ولانكير.

هذا الشيء المحسوس المرغوب أتى به كتاب الاسلام، ثم تحدى الفرد وتحدى الامة، وتحدى الجيل والأجيال والجن والانس، تحدى هؤلاء جميعاً ان يأتوا بسورة من مثله... بلى بسورة واحدة من أقصر سوره لا بأكثر!!.

وظن الانسان من نفسه القدرة بادئ بدء فأثاره التحدي لأن يساجل، وحفزه الطموح لأن يقارع، ثم مد بصره نحو القمة فأخذه الدوار، ونقل قدمه الى الغاية فملكه الرعب، وحرك لسانه للقول فعقده العي.

فتراجع مبهوراً... ثم اعترف مقهوراً!..

ومعجزات الاسلام لاتجمع الايمان جمعاً ثم تدفقه في القلوب دفقاً كالسيل يزلزل الثوابت ان تقيسه، وكالبرق يخطف بالابصار أن تحده و يكد النفوس أن تحققه. بل تعلن تباشير الايمان للقلوب كما يعلن السحر تباشير الفجر للكون المظلم، ثم تبعثه كما ينبعث الفجر ضعيفاً على قوته خفياً على ظهوره.

ثم يترفع النور قليلا قليلاً، و يسفر الصبح رو يداً رو يداً، و يشع الافق، وتشرق الشمس، و يرتفع الضحى حتى لايشك بصر ولا تجحد بصيرة!!.

بينات الاسلام معجزات قو ية قو ية تقطع العذر وتكشف السر، و براهين قاطعة قاطعة تنير السبيل وتقيم الحجة، ففيها تبسط البرهان وعليها جلال الاعجاز!!.

هي تسير مع البرهنة في التقديم والترتيب، وتتمشى مع الفكر الى النتيجة، وهي تستنطق الفطرة عما خبأت وتستفتي العقول عما أدركت، وتحاكم الانسان فيما اعتقد وفيما أخذ ونبذ، وكل ذلك في طريق سافر وبمنطق وثيق، ثم هي في جميع هذا تبهر الانسان بجمال الصوغ وتقهره بقوة الاسلوب وتمتلكه بعظمة المعنى وتقطعه عن المجاراة في كل هذه الأشواط. وقد قدمنا نماذج من هذه الحجج التي يلتقي فيها صفاء الفطرة بوثاقة البرهان وإعجاز القرآن. على ان التحدي ذاته تحكيم

للعقل في شأن الاعجاز واثبات له من طريق البرهان.

ومعجزات الاسلام عامة خالدة.

عامة كعموم الاسلام خالدة كخلوده، فباستطاعة كل جيل أن يراها. وبمقدور كل فرد أن يتبينها، و بامكان كل ناقد أن يبلو دعوى الصدق فيها.

ذلك كله سر التفوق والعظمة في معجزات الاسلام اقول هذا ولا انقص معجزات النبيين المطهرين كرامتها. ولا أبخسها قيمتها، ومعاذ الله ان أهدف الى ذلك أو يفهمه أحد من حديثي أو يحاول أن يفسره به، ولكنني أقول: الفارق بين المعجزة العظمى واخواتها من صغار المعجزات هو الفارق بين الرسالة العظمى واخواتها من صغار الرسالات.

معجزة كريمة أن يقف رسول على ميت في الاموات فيقيمه بأمر الله حياً من الاحياء.

ومعجزة كريمة أن يمر نبي يده على بائس قد كربته العلة وأقعدته الزمانة فيرده باذن الله صحيحاً في الأصحاء سو يا فى الأسو ياء.

ومعجزة كريمة أن يضرب بعصاه الحجر القاسي فيفجره عيوناً. وأن يفلق بها البحر الطامي فيقسمه أفراقاً. كل أولئك معجزات كريمة تبدي للمرء من قصوره عبرة، وتقيم عليه من قدرة خالقه حجة.

ولكن معجزة المعجزات ان يؤتى الانسان من حيث يزعم لنفسه القدرة، وأن يمتحن من حيث يدعي لذاته الكمال، حتى إذا عجزعن المجاراة كان عجزه أوفى في الدلالة على القدرة الفائقة، وإذا قصر كان قصوره أجلى في الابانة للكمال المطلق.

والمعجزة آية قريبة المدلول رصينة الدلالة، ولذلك فهي تقطع المعاذير من أول وهلة وتثبت الدعوة من أقرب طريق، وموضع العجب منها انها تنهض الدلالة على مبدأ محسوس وتركز الدعوة على قاعدة ملموسة.

ولكن اعجوبة الاعاجيب ان تكون هذه الآية بمبادئها المحسوسة و بدلالتها القوية المتينة عامة يستضيء بنورها كل انسان. وثابتة ينتفع بهداها كل جيل. وعظمة العظمات ان تكون الى ذلك بأجمعه معجزة باهرة تغمر النفس، و برهاناً ساطعاً ينير العقل وحكمة بالغة تغذي الفكر.

وميزة اخرى تختص بها بينات الاسلام انها تتصل بالدعوة اتصال الجزء بكله، أو الجسد بروحه. في الصميم من دعوة الاسلام تقع معجزاته، ومن لباب هداياته تكون بيناته وهذا مما يتسامى به الاسلام على كل دين.

لابد لكل دين من البيان، و بيان الاسلام معجزته الاولى.

ولابد لكل دين من البرهان، و برهان الاسلام معجزته الثانية.

ولابد في تشريع كل دين من الحكمة، وحكمة الاسلام معجزته الثالثة.

وكل واحدة من هذه المعجزات ثابتة مع الازمان للنقد. خالدة مع الأجيال للهداية!!.

فلسان الاسلام هو الذي تحدى كل ناطق فأبكمه، وقارع كل بليغ فأفحمه، ثم لم يفتأ يقارع و يتحدى ليفهم الانسان أن قصوره لن يزال هو قصوره الأول وأن عظمة القرآن لن تبرح هي عظمته الاولى!!.

و برهان الاسلام هو الذي استفهم كل صورة من صور الكون، واستنطق كل مجلى من مجالي الطبيعة، واستشهد كل سر من أسرار الحياة، فأبان للناس كافة ــ على اختلاف عقولهم واختلاف علومهم ــ أن دلائل هذا الدين ملء الكون وملء الطبيعة وملء الحياة!!.

وحكمة الاسلام هي التي ثبتت للتمحيص في كل دور وأحرزت السبق في كل رهان، ثم لم يفتأ العلم يستكشف كل يوم منها جانباً خفياً و يستشرف الى جوانب أخرى لا تزال مستورة!! وسر ذلك ان الاسلام دين الانسانية جمعاء، وحقيق على دين الانسانية أن تكون دلائله مبثوثة في كل وجه، منتشرة في كل صوب، بحيث يجدها كل طالب و يستجليها كل ناظر.

والناس مختلفون في درجات افهامهم، متفاوتون في مراتب عقولهم، ولكل صنف من الناس حظه من الادراك وطريقته في الاقتناع، ومن مدهشات هذا الدين انه اعدلكل صنف ما يقنعه، ولكل فهم مايسيغه!!.

* * *

«و كأيِّن من آية فى السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون»[1].

أصحيح أن الناس يطلبون دليلا واضح الدلالة يؤ يد الاسلام في دعوته و يصدق رسول الاسلام في دعواه؟.

أصحيح أنهم يرومون التثبت في الدين قبل الاعتقاد والتأكد من الهدف قبل الاندفاع؟.

أصحيح أن خشية الكذب تدفعهم الى طلب الدليل، وان خيفة الزلل تحملهم على ترسيخ القدم؟.

حق أن يتثبت الانسان من دينه قبل أن يعتقد، وحق كذلك ان يتثبت فيه بعد أن يعتقد، وعادل أن يطلب الانسان ذلك ويجهد فيه و يتأكد منه، ودين الاسلام في طليعة المشجعين له على ذلك، بل وأول الناقين عليه إذا هو لم يطلب ولم يجهد ولم يتأكد.

وإن المسألة مسألة فوز وخسران وسعادة وشقاء وهدى وضلال، وخطر المنساق فيها على غير علم لايقل عن خطر المنحرف مع العناد أو الهاوي مع الالحاد حق لهم أن يصنعوا كذلك وأن يطلبوا و يتأكدوا، ولكن.

ما بالهم يحاولون أن يلجوا البيت من ظهره وأن يبلغوا الشيء من أبعد سبله؟!.

يطلبون على صدق محمد في رسالته بينة تنقض النواميس وتغير المجاري، وأية مزية يمتاز بها

١ ــ يوسف: ١٠٥.

هذا الضرب من البينات على غيره ليقترحوه على الاسلام وعلى نبي الاسلام؟.

لعلهم يظنون أن الرسول يظهر الآيات بقدرته ومن تلقاء نفسه فهم يقترحونها عليه ليستبينوا صدقه ويمتحنوا طاقته.

ان كان هذا ظنهم فهو وهم خاطئ «انما الآيات عندالله»[1] «وما كان لرسول ان يأتي بآية إلا باذن الله. فاذا جاء امرالله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون»[2].

أية مزية يختص بها هذا الضرب عما سواه من الادلة ليقترحوه على الرسول؟.

ميزته الاولى انه يدل على قدرة الخالق بعجز المخلوق، وعلى كمال الرب بنقص المربوب، وكل ظاهرة وخافية في هذا الكون الرحيب تشاركه في هذه الدلالة.

وبعد ان تقدم العلم المادي واتسعت آفاقه، وظن الانسان من نفسه القدرة على كثيرمن الامور، وتوفرت بيديه آلات التحليل والتركيب، وأحصى عناصر المركبات، وضبط مقاديرها، اتراه يستطيع ان يؤلف من هذه العناصر المتفرقة مركباً يسعد بالحياة.. ولو بحياة النبات.. بهذه الحياة التي تنمي وتثمر، وتحفظ نوعها وتستبدل فرعها؟.

لقد جرب الانسان وجرب العلم فاستبان انه عاجزعن ذلك، وسيتبين له أنه عاجز كلما جرب و كلما حاول.

وصدق الله العظيم حيث يقول: «ياايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب»[3].

والميزة الاخيرة لذلك النوع من الادلة انه يصدق رسالة الرسول من حيث اعتضادها بالقوة الخالقة، وكل ظاهرة وخافية من هذا الكون تصدق رسول الاسلام من حيث انها تركز دعوته وتثبت تعاليمه..

بلى. الميزة الفريدة لتلك الأدلة انها خوارق. أنها جديدة في طريقة تكوينها... أن الانسان لم يألفها فتبعد به الالفةُ عن الالتفات اليها والتفكيرفيها و الاعجاب بها، وهي ميزة لها شأنها عندالرجل (البدائي) ومن يقرب منه في الطفولة العقلية.

أما الانسان الراقي الذي يكبرفكره على العادة وتعتلي نفسه عن الالفة فانه لا يأبه لهذه الفوارق، فكل نظرة له في آيات الكون تفيده اعتباراً جديداً.

والانسان محتاج الى ما يمده بالايمان في كل لحظة وفي كل نظرة، لترقى نفسه ويعتلي ايمانه، وآيات الكون هي التي تكفل له بذلك، ونظراته اليقظة الواعية هي التي تفي له بهذا الضمان.

١ ــ الانعام: ١٠٩.
٢ ــ المؤمن: ٧٨.
٣ ــ الحج: ٧٣.

لينظر المرء فيما حوله مما يسمع وما يبصر، وليتأمل في كل مايحيط به مما يحس ومايعقل، في الكون الأعلى وحركاته ومداراته، وفي الكون الادنى ومجاريه وغاياته، في الشموس البعيدة البعيدة التي لا تُكشَفُ إلا بالمراصد، وفي المنظمات الصغيرة الصغيرة التي لا تبين إلا بالمجاهر، لينظر في ذلك بعين المتدبر المتطلع الذي لم تصرفه الالفة عن استجلاء الروائع ولم تفقده لفتة الاعتبار وهزة الاستغراب، لينظر في هذا الملكوت الفسيح المديد كمن يدخله أول مرة و يرسل فيه أول نظرة، فهل يلفي إلا معجزة؟ وهل يشهد إلا آية؟ معجزة تعيى دونها القدرة المحدودة، وآية يدهش لها العقل الحصيف..

ثم لينظر في كل واحدة من هذه الاعاجيب ألا يجدها دليلا صريحاً على قدرة جبارة، على علم محيط، وعلى حكمة بالغة، وعلى كمال مطلق، ثم على وحدة لا يدنسها شرك ، وغنى لا تشوبه فاقة، وقوة لا ينالها ضعف؟.

وهذه بذاتها هي ركائز الاسلام الاولى وتلك هي براهينه على ثبوتها منتشرة كانتشار النور في كل وجهة، واضحة كوضوح اليقين في كل قلب. فهل يطمع طامع في تعاليم اسمى من هذه التعاليم؟ وهل يرقب أحد حججاً اسطع من هذه الحجج؟ وهل للريب ظل حول دين تلك أصوله و تلك آياته، وفي رسول هذه دعواه وهذه بيناته؟

ولكن القلوب الغلف.. ولكن النفوس المدخولة لا يطيب لها ان تؤمن، ولا يطيب لها أن تفكر، ولا يطيب لها أن تنتفع بتفكيرها لو فكرت. ذلك هو العرض الدائم لمسخ الضمائر واظلام البصائر.

إن هذا القطيع من المخلوقات يستمرئ الجهل و يستلذ العمه، فان عطف عليه عاطف ليدله على رشد او ليستنقذه من هلكة صخب واجلب كمن يقاد الى نحر«وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين. ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين. إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون. ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الاولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين.

ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا انما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون..

ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين، وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وان من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم. وارسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين»[1].

١ ــ الحجر: ٦ ــ ٢٢.

ديـن الاسلام في غنى عن الاستدلال بالخوارق، فمنشآت الكون بأجمعها آيات تشهد لدعوته بالصدق ودلائل تثبت لشريعته الحكمة.

على أن البينات الكونية بادية لا تحتجب عن أحد،باقية لا تنتهي في زمان، عامة لا تختص بمكـان، فاذا شهدت لدين بالصدق كانت شهادتها أجدى من معجزة منقطعة المدى لا يشهدها إلا يسيرمن الناس، ثم لا يؤمن بها إلا النزرمن هذا اليسير.

ديـن محمـد(ص) في غنى عـن الاسـتـدلال بالخوارق فآياته منتشرة في كل صوب مستعلنة لـكل طالب، ذلك أن الله الذي فرض على البشرية بأجمعها أن تتبع هدى محمد حتم على كل شيء في هذا الكون أن يدل على صدق محمد(ص).

وذلـك أن الكمـال الاكبر الـذي يـؤمه محمد في دينه و يوجه البشر نحوه في تعليمه هومطمح كل شيء ظاهر في الوجود، وقبلة كل سر مستودع فيه.

وذلك هو سر الوحدة الكونية الجامعة التي نهج اليها محمد لما بدأ دعوة الاسلام، وعناها رب محمد لما رفع قواعد الاسلام.

و بـعـد فـان الاسـتـيعاب هنا مما لا يسعه وضع كتاب ولا يبلغه جهد كاتب، وحسبي عن الـتـفـصـيـل هـذه الاشـارة العابرة، وحسب الاسلام أن كل ضرورة تدعو الى الدين لن تجد سداداً بغـيـره، وأن أي سـمـة تـذكـر للـدين الحق لن تجد مصداقا لها في سواه، حسب الاسلام أن ينهض بذاتـه دلـيلا على ذاته. أرأيت الدعوى تقوم على نفسها دليلا قاطعاً لايدحض ولا يستطاع؟ غريب أن يقع هذا في النظريات المحض، وأشد غرابة منه أن يقع في مقررات الأديان.

ان دين محمد(ص) وحده هو الذي يستطيع ذلك.

دين محمد وحده هو الذي يقرر أصوله و يوضح غايته و يبين مناهجه وإرشاده فتكون له من رسوخ هـذه الاصـول وجـلال هذه الغاية وخطر هذه المناهج وروعة هذا الارشاد آيات بينات على صـدقه لا يشك فيها عقل ولا يتمارى بها عاقل!!. و كتاب محمد وحده هو الذي يدعو الناس بسورة منه فيبلّغهم جيعاً، و يتحدى الناس على الا تيان بمثل هذه السورة فيعجزهم جيعاً!!.

رسـوخ الاصـول مـن هـذا الـديـن وارتـبـاطها مع دعوة كل ناموس من نواميس الكون ومع هـداية كل سر من أسرار الطبيعة، وارتكازها على حكم الفطرة الذي لاينقض وعلى منطق البرهان الـذي لايـدحـض. وسـمـو الـغـايـة فيه واتساقها مع الغرض الأول من خلق الانسان، ومع المقصد الاعلى مـن ايجـاد الحـيـاة، ومـع الـغـايـة العامة التي يستقبلها كل جزئي من جزئيات هذا الوجود، ويهـدف الـيه كل نظام من أنظمته. ودقة المناهج التي شرعها للانسان لتبلغ به المدى، المناهج التي اسـتـخـلـصـهـا مـن صـمـيم مـركـز الانـسـان في الحـيـاة ومـن مختلف منازع الحياة في الانسان ومن المـلاحـظات العميقة لطباع هذا الكائن والموازنات الدقيقة بين نزعاته. ثم روعة هذا الارشاد وهذا مـالا يفي بـوصـفـه قـلـم كاتب، ولا تملك أن تصوره ريشة مبدع. هذه كلها وعلى رأسها كتاب الله

الذي أخرس كل ناطق بينات محمد على صحة دينه وعلى صدق دعواه، فهل يتسرَّب اليها أو الى بعضها ظل من الرَّيب؟؟.

* * *

أما هذه المقارنات الطويلة التي يفيض فيها كتّاب الاسلام المعاصرون، مقارنة الاسلام بما سواه من الملل، ومقايسة القرآن بما عداه من الكتب، فهي نمط من التدليل قد يؤثره الداعية المسلم ليستظهر به على خصيم من اشياع تلك الملل، أو ليرد به شبهة من أتباع تلك الكتب، وقد يركن اليه ليدل على عظمة صفة في الاسلام أو في القرآن بحقارة ضدها، وعلى جمال معنى فيهما بقبح نقيضه.

أما وراء هذا وذاك فهو لون باهت من الجدل. لون باهت حائل ليس له نصوع الحجة ولا رسوخ البرهان.

وما يفيد الاسلام أن يسلم من عيوب تأصلت في بعض الاديان؟ ومايجدي القرآن ان يتنزه عن نقائص توطنت في بعض الكتب؟ أفيثبت لمجرد سلامتها من تلك العلل ان الاسلام هو دين السماء الحق، وأن القرآن هو كتاب الوحي الصحيح؟

لست أظن أحداً من الناس يتوهم ذلك.

سلامة الاسلام والقرآن من هذه العلل لا تعدو ان تكون علامات سلبية، وأداؤها الى النتيجة المقصودة يستدعي من الكاتب ان يظهر براءة الاسلام من شتى العلل لا من عيوب هذه الاديان فقط، و يثبت نزاهة القرآن عن عامة النقائص لا عن نقائص هذه الكتب فحسب.

والكتاب المحدثون يهدفون من هذه الخطة الى ناحية توجيهية خالصة، هي إلى الدفاع أقرب منها الى التدليل، وهي (بالدعاية) أشبه منها باقامة الحجة.

أخذ المفكرون من الغرب على المسيحية خللا في المعارف ينكره العقل، والتياثاً في التشريع تجحده الطبيعة، واسفافاً في التوجيه تأباه الضرورة. فكان من المنتظر أن تهزم المسيحية بل تنهار أمام هذا الثالوث، فان العقل و الطبيعة والضرورة خصوم عنيدة شديدة لايقام لها بسبيل.

وتبنت الكنيسة أفكاراً رائجة عند العامة عن الكون والفلك والأرض والطبيعة واعتبرتها افكاراً مقدسة، وأشاعت أنها من مقررات الوحي، ومن نظريات السماء، فلايمكن أن تكذب أبداً ولايسوغ أن تخالف، ولايسوغ أن تناقش.

وجاء بعض العلماء الطبيعيين والفلكيين يقولون إن هذه الافكار معلولة، وإن التجربة تثبت غير هذا، وإن الآلة تشهد بصدق ما تقول التجربة.

وانتفضت الكنيسة لهذه الجرأة على مقررات الوحي، وانتصبت لتأديب المعتدي على نظريات السماء، وانتصب العلم وآلاته وأدواته ورجاله لعداء الكنيسة، أتُنتَهَك حرمة العلم، وتنتهك الحرية الفكرية باسم وحي السماء والنظريات المقدسة؟!

وانضم العلم وانضمت الحرية الفكرية الى المعسكر الذي يناصبها العداء، وانصار العلم

وأنصار العقل وأنصار الحرية الفكرية من الحتم أن يكثرَوا، ومن الحتم ان ينتصروا ، وإذا كان العلم والعقل والحرية الفكرية في جانب، فلا بد وأن يكون الجهل والحمق والعبودية الفكرية في الجانب الآخر لأن تلك لاتحارب نظائرها.

ورامت الكنيسة ــ وكانت نافذة السطوة ــ أن تتلافى الأمر قبل أن يستفحل، فاتخذت من القوة اصلاحاً للخلل. ومن العنف والفتك تقويماً للاضطراب، فكانت محاكم التفتيش تقضي بالموت لأضعف تهمة، وبالاحراق والتنكيل لأوهى علة.. نعم وكان التأريخ المرعب الكالح الذي تقززت منه الانسانية، والذي أطل الدماء بلاحساب، وأودى بمئات الألوف من المفكرين والأحرار دون مبرر!!.

ومن جراء هذا و هذا كانت ثورة الغرب الكبرى التي حطمت الكنيسة وألغت المسيحية، واتهمت كل دين.

واستيقن الكتاب المسلمون أن حقوق البشرية تفرض عليهم النصيحة، وأن أمانة الحق تقتضيهم الوفاء، وان عهد الله سبحانه يلزمهم بالتبليغ. فطفقوا يلوّحون للسادرين بالأيدي و يومئون بالأكف و يرشدون بالألسنة، و يوجهون بالاقلام الى النبع الصافي الذي لايرنقه كدر، والرواء الكافي الذي لا تعكره غصة، الى العقيدة المتزنة التي توحي بها الفطرة و يعززها البرهان والتشريع الحق الذي تقرره الحكمة و يثبته العدل. الى عقيدة الاسلام العليا وطريقته المثلى. وهذه المقارنات إحدى الصيغ التي يؤدّون بها هذا النصح، و يوفون بها هذا العهد، و يبلغون بها هذه الدعوة.

أما الامور التي انكرها العقل والضرورة والطبيعة من تلك الديانة ومن تلك الكتب. أما المآخذ التي حكمت على المسيحية بهذه العقبى وأفضت بها الى هذا الخسران، أما هذه الامور فهي كثيرة، و يكفي للدلالة عليها:

[١] هذا الاسفاف الزري في تفسير معنى الألوهية، وفي تصوير حقيقة الآله. فرب (العهد القديم[١]) يجهده عمل ستة أيام و ياخذ منه الاعياء حتى يكاد يتهالك في اليوم السابع ليستريح ويختبئ عنه آدم وزوجته حواء بين شجر الجنة كيلا يراهما عاريين، فلا يعلم بهما أين ذهبا، ولا يدري لماذا اختفيا عنه، ويحذر من آدم أن يأكل من شجرة الحياة كما أكل من شجرة المعرفة فيشاركه في الخلود كما شاركه في التمييز بين الحسن والقبيح، فيطرده و زوجته من الجنة و يقيم حرساً على طريق الشجرة[٢].

و يكثر بنو آدم ــ بعد حادثة الطوفان ــ ويجتمعون ليبنوا لهم مدينة و يقيموا لهم برجاً فيخشى رب (العهد القديم) وحدة هذا الشعب، ويحذر قوتهم و ينزل اليهم و يبلبل لغتهم و يبدد

١ ــ العهد القديم: الاسفار التي كتبت قبل المسيح ــعلى مايقولونــ من مجموعة الكتاب المقدس والعهد الجديد: الاسفار التي كتبت بعد المسيح من هذا الكتاب.

٢ ــ ٢، ٣: من سفر التكوين.

كلمتهم[١].

و يصطرع هو مع يعقوب بن اسحاق ليلة بطولها فلا يملك أن يظهر عليه، و يطلب الخلاص من قبضته فلا يقوى على ذلك، ويخلع الرب فخذ مصارعه يعقوب بضربة قوية ليتخلص منه فلا يجديه ذلك نفعاً، ثم لا يترك البطل يعقوب ربه حتى ينتزع البركة لنفسه منه انتزاعاً[٢].

ويحاول أن ينزل ليضرب فرعون وقومه المصريين في ليلة الفصح، ولكنه يخشى أن تلتبس عليه بيوت بني اسرائيل حين يجتاز بين البيوت في تلك الليلة، فيأمرهم أن يلطخوا أبوابهم بدم الفصح ليعرف بذلك بيوتهم فلا يعمهم بضربة الهلاك[٣]

و يراه موسى وهارون ومن معهما من شيوخ إسرائيل. يرون الله وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده الى أشراف اسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا[٤].

ثم هو يجيء و يذهب و يأكل و يشرب ويماري و يكذب ويحزن و يأسف ويخادع و يغش ويجهل و يتحير و يستشير جند السماء و يستعين بهم على الاغواء[5] و...و

ورب (العهد الجديد) واحد في العقيدة ثلاثة فى العدد، ولاهوت في الحقيقة ناسوت في الجسد. و(في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عندالله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عندالله كل شيء به كان، و بغيره لم يكن شيء مما كان)[٦] و (الله ظهر في الجسد)[7] و (استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة، لأن جهالة الله احكم من الناس)[٨]

ثم هو يضعف و يتألم و يضحك و يبكي و يقتاد في البرية اربعين يوماً ليهرب من ابليس و يضطهد و يستغيث و يقهر و يغلب و يقويه الملك و يدعو و يصلي و يصلب و يدفن..

[٢] وهذا القرف الشائن لانبياء الله ورسله المطهرين وهذا النيل من قدسهم، فنوح يشرب الخمر و يسكر حتى يتعرى وحتى يهزأ منه ولده حام[٩] وإبراهيم يدعي أن زوجته سارة أخته، يدعى ذلك ليجعلها حظية لبعض المصريين ولينال خير بسببها[١٠] ولوط تسقيه ابنتاه خمراً وتضطجعان معه وهو سكران لا يعي فيزني بهما[١١] وهارون يصنع العجل ليعبده بنو اسرائيل و يبني مذبحاً أمام العجل و ينادي بهم (غداً حج للرب) يعني للعجل[١٢] وموسى يسيء الآداب مع ربه و يشك فى

١ــ ١١: التكوين. ٢ــ ٣٢: التكوين. ٣ ــ ١٢: الخروج. ٤ــ ٢٤: الخروج.

٥ــ ٢٢: الملوك : الأول و١٨: الايام: الثاني، اما الصفات المذكورة فيجدها القارئ منتشره في أسفار العهدين.

٦ ــ ١ يوحنا، و يعنى بالكلمة المسيح: الاقنوم الثاني من أقانيم الذات الالهية.

٧ ــ ٣: رسالة تيموثاوس الاولى.

٨ ــ ١: كورنثوس الاولى، والكرازة الوعظ بالحقائق المسيحية على ما يقول الاب اليسوعي لويس معلوف في (المنجد). ٩ ــ ٩ : التكوين. ١٠ــ ١٢: التكوين. ١١ــ ١٩: التكوين.

١٢ــ ٣٢: الخروج.

صدق مواعيده[1] وموسى وهارون لم يؤمنا بالله[2] وعصيا قوله[3] وخاناه[4] وداود يزني بزوجة اوريا الحثي، وتحمل هذه من زناه بها، ثم يكيد زوجها و يبتغي له الغوائل حتى يسبب له القتل في إحدى المعارك، و يضم الزوجة اليه بعد أيام المناحة[5] وسليمان يخالف تعاليم الشريعة وتميل به نساؤه وراء آلهة اخرى و يبني لتلك الآلهة مرتفعات، و يعمل الشر في عيني الرب [6].

أما المسيح فانه يكذب[7] وهو شريب خمر[8].

وأما تلاميذ المسيح فليس لهم ايمان مثل حبة خردل[9] وهم غلاظ القلوب[10] وقد و بخهم المسيح بعد قيامته من الاموات على عدم أيمانهم وقساوة قلوبهم[11].

[٣] وهذا التناقض البين في الأقوال فالله إله واحد لا إله سواه[12] والآلهة متعددة[13]، والله لم يره احد قط[14] وقد رآه موسى وهارون في جبل سينا و من معهما من شيوخ إسرائيل، ورآه قبل ذلك يعقوب وجهاً لوجه وصارعه ليلة كاملة، وظهر لابراهيم عند بلوطات ممرا وفي أمكنة أخرى[15] ورآه قبل جميع هؤلاء آدم في الجنة وكانت له مع جميعهم شؤون.

وأحكام الرب حق عادلة كلها[16] وهو يحب البر والعدل[17] وهو يأخذ الأبناء بذنوب آبائهم، و يأمر بني اسرائيل أن يحرموا (اى يبيدوا) مدن الحثيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ولا يستبقوا منها نسمة من البشر والبهائم[18].

و ينظر يوحنا المعمدان يسوع مقبلا فيقول: هو ذا حمل الله الذي يرفع الخطيئة عن العالم[19] وتأتي يوحنا هذا وهو في السجن انباء المسيح بعد ظهور أمره فيرسل اليه يسأله أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟[20].

وشريعة الله التي أنزلها على موسى والانبياء خالدة لا ينقض منها شيء ابداً الى أن تزول السماء والارض[21] وهي منقوضة منسوخة كلها إلا احكاما يسيرة منها[22].

والرسل بعد المسيح يعلعون من آمن به من اليهود يحفظ الناموس واتباع تعاليمه، و يعلمون من آمن بالمسيح من غير اليهود بأن لا يحفظ الناموس ولا يتبع تعاليمه[23] و بولس الرسول يكون لليهود كيهودي وللذين تحت الناموس كأنه تحت الناموس وللذين بلاناموس كأنه بلاناموس، يتلون هكذا مع الناس ليربحهم جميعا[24].

وعقيدة الصلب والفداء والخطيئة الأصلية الموروثة، خطيئة أبينا الاول آدم لما أ كل من

١ ــ ١١: العدد. ٢ ــ ٢٠. العدد. ٣ ــ العدد. ٤ ــ ٣٢: التثنية.
٥ ــ ١١: صموئيل الثاني. ٦ ــ ١١: الملوك الاول. ٧ ــ ٧: يوحنا.
٨ ــ ١١، ٢٦: متى، وغير ذلك. ٩ ــ ١٧: متى. ١٠ ــ ٦: مرقس. ١١ ــ ١٦: مرقس.
١٢ ــ ٣٢: التثنية وقد تكرر في مواضع. ١٣ ــ المزمور ٨٢، ١٠: يوحنا. ١٤ ــ ١: يوحنا. ١٥ ــ ١٨: التكوين.
١٦ ــ المزمور ١٩. ١٧ ــ المزمور ٣٣. ١٨ ــ ٢٠: التثنية. ١٩ ــ ١: يوحنا. ٢٠ ــ ٧: لوقا، ١١: متى.
٢١ ــ ٥: متى. ٢٢ ــ ١٥: أعمال الرسل. ٢٣ ــ ١٥: اعمال الرسل. ٢٤ ــ ٩: كورنثوس الاولى.

الشجرة فأخرج بسببها من الجنة، الخطيئة الكبرى التي لزم إثمها ذريته أجمعين واستوجب كل فرد منهم عليها العذاب المهين، ثم الخلاص من ذلك لمن آمن منهم بالوهية المسيح و بأنه صلب ليكون فداءً للعالمين من هذه الجريرة!. هذه العقيدة التي يقوم عليها أساس المسيحية، والتي تلزم كل فرد من البشر ذنباً لم يجنه، ثم تكفر عنه ذنبه بعقاب قد حل على غيره!. فيرتكب الخطيئة مرتكب، و يدان بها آخرون، وتحل العقوبة على ثالث غير العامل وغير المدانين!. وهذا الثالث الذي تنزل به العقوبة هو الاله ذاته أو هو ابن الآله يتجسد ويختار الصلب ليفتدي الخاطئين! و يطالب الناس أن يؤمنوا بهذه المتناقضات ليتخلصوا من الذنب وتظلهم الرحمة و يسعهم العفو، عفو الآله المصلوب عن ذنبهم غيرالمكسوب![1].

[٤] وهذه الانماط المضحكة من الأمثال، فالله يأمر نبيه إشعياء أن يحل المسح عن حقو يه ويمشي بين الجموع عاريا حافياً وهو يقول: هكذا يسوق ملك آشور سبي مصر... عراة حفاة ومكشوفي الاستاه خزيا لمصر[2].

و يوحي الله الى نبيه ارميا أن يشتري ابريقاً من خزف، و يكسره أمام شيوخ الشعب وشيوخ الكهنة و يقول لهم: هكذا قال رب الجنود: هكذا اكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يكسر الوعاء الفخاري بحيث لا يمكن جبره[3].

و يقول الله للنبي هوشع: إذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب، وكذلك يفعل هذا النبي ما أوحي اليه[4].

و يقول له: اذهب أيضاً احبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبني اسرائيل وهم ملتفتون الى آلهة اخرى ومحبون لأقراص الزبيب، وكذلك يفعل[5].

[٥] وهذا القصور الواضح في الملاحظة، فاليهودية دين خاص لاسرائيل بن الله البكر وشعبه المختار، واقرأ إذا شئت أسفار العهد القديم لترى محاباة الله لهذا الابن المدلل وايثار مصالحه وإن يك ذلك على حساب الآخرين، واقرأ تشريعاته المختلفة التي يوثر فيها رضى هذا الشعب و يتملق عاطفته و يفرق فيها بينه و بين الناس الآخرين، فهي إذن عنصرية دينية لا يقرها عدل الله ولا انصاف العقل ولا اتزان الحق. لايقرها عدل الله الذي وزع قوانينه العادلة بين أشياء الدنيا كلها على السواء، ولايقرها انصاف العقل الذي لا يرى أحداً أولى بالله من أحد ولا جنساً أحق برعاية الله من جنس، ولا يقرها اتزان الحق الذي ينكر هذه الحدود ويمقت هذه الفوارق، وتعالت

١ ــ انظر ذلك في مختلف كتب العهد الجديد.
٢ ــ ٢٠ ــ إشعياء.
٣ ــ ١٩: ارميا.
٤ ــ ١: هوشع.
٥ ــ ٣: هوشع.

حكمة الله وتعالى تشريعه عن سفاسف الشهوات.

وحري بدين يختص بشعب واحد من شعوب الدنيا أن لا يتوقع من الناس الآخرين ــعلى الاقلــ تصديقاً في دعوة أو ايماناً بعقيدة أو خضوعا لشريعة، وما يعني هؤلاء من أمره ما دام لا يعنيه أمرهم؟ وما يحدوهم الى التفكير فيه ماداموا خارجين عن حدوده بعيدين عن رعايته؟ و بالاحرى ماداموا في نظرته نافلة من البشر لا يؤبه لشأنهم، ولا ترعى حقوقهم.

والمسيحية أنفذ بصراً من اختها الكبرى في هذه الناحية، إلا انها قد تنكرت أشد التنكر للناحية المادية في الانسان، حتى أنها تكاد تؤمن بأن الانسان ملاك يجب أن تبتَّ أواصره بالارض، روحاني يجب أن تقتلع جذوره من الطين، وأن غرائز الانسان مخلفات من حيوانيته الاولى فيجب أن تكبت وتقهر ليسلم الانسان لروحه ولترتقي روحه الى مداها الأعلى.

وتجاهلت ان الانسان كلٌّ يفسده التبعيض، بل و وحدة تبطلها التجزئة. وما حياة جسد بلا روح؟ وما جدوى روح بغير جسد؟ ماجدواها في بناء هذي الحياة وتعمير هذه الدار؟.

ومارقي روح جسدها مرهق القوى مكبوت النوازع؟

أترى أن مثل هذه الروح تطيق حمل الاعباء، أعباء الدين الذي تمحضت له بله الحياة التي أعرضت عنها؟ فليس الدين هلوسة تعتزل في الصوامع وتبتعد عن المجامع، وليس الدين مخلوقا مائل الشق، وليس ميزاناً شائل الكفة، ينظر في صلة المرء بآخرته و يقطع اواصره بدنياه، وما عدل دين يحيف على ناحية ليوفر على اخرى؟.

و بعد فهي دعوة الى هدم الحياة ولا يحتملها دين يتطلب منه تنظيم الحياة، بل ولا يحتملها دين يرجىٰ أن تطول به الحياة.

كذلك فكرت المسيحية في نظرتها الى الانسان والى مركزه من الكون، ووظيفته في الحياة أن ينكمش في زاو ية لا يتخللها نور الدنيا، ولا ينفذ اليها نسيمها، وأن يقيم فيها على حذر، و ينظر الى ما حوله بتريّب!!.

وعلى هذه الاسس المنهارة بنت علاقة الفرد بالفرد و بالاسرة والمجتمع، وأعطت ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فالدين في رأيها غير عام النظرة لشؤون الدنيا، ولا تام الملاحظة في علاقات الانسان، ومن اجل هذه التعاليم الشائهة كانت هزيمتها النكراء وكان فشلها الذريع.

* * *

«قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قدضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل»[1].

في سابق هذه الآية الكريمة احتجاج قوي العارضة وإنكار شديد اللهجة على الذين زعموا

١ ــ المائدة: ٧٧.

أن الله هو المسيح بن مريم، وعلى الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة. واذن فالخطاب والنداء في الآية يتوجهان الى النصارى الذين غلوا في دينهم غير الحق فأحلوا السيد المسيح فوق رتبته من الرسالة، ومنحوه فوق منزلته من الكرامة ولايمتنع أن يعم الخطاب غير النصارى من أهل الكتاب فقد غلوا كذلك في دينهم، وركبوا متون الاهواء والشطط في أمر المسيح، ولعل هذا هو الوجه في نداء أهل الكتاب.

تقول الآية الكريمة ان اشياع المسيح حين يغلون في دينهم غيرالحق، و يُفرطون في مقام هذا الرسول الكريم من العقيدة فيزعمون وحدة اللاهوت فيه بالناسوت، او يقولون: الرب ذات واحدة لها ثلاثة أقانيم فانما يتبعون بذلك أهواء قوم درجوا من قبلهم على هذه الضلالة وسبقوهم بالخلود الى هذه المزاعم.

وتقول آية كريمة اخرى: «وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنى يؤفكون»[1] ولعل هذه أوضح من تلك في الدلالة على المعنى.

هكذا يقول قرآن محمد قبل عديد من القرون!. كتاب محمد العربي الأمي الذي لم يقرأ تأريخ الرومان والبوذيين والصينيين، ولم يدرس عقائد البراهمة والفرس والمصريين، ولم يبحث في تأريخ الأديان الاولى وعلاقات بعضها ببعض، ومدى تأثير بعضها في بعض، محمد الذي درج بين عرب مكة و بدو الجزيرة الذين لا يفقهون قليلا عن هذه الامم ولا يعلمون شيئاً عن هذه الاديان ولا يدركون سراً من هذه العلاقات.

بلى. هكذا يقول كتاب محمد الرسول العربي (ص) قبل أن يعرف الناس تأريخ هذه الامم وقبل أن يستبين لأحد مدى هذه العلائق!.

وجاء المنقبون من مؤرخة الاديان و باحثة العلاقات ومتتبعة الآثار، جاء المنقبون من كل هؤلاء. و بعد مئات من السنين وطويل من الجهود فاذا بعقيدة التثليث صورة منقولة عن عقيدة الرومان والبوذيين، واذا بفكرة الأقانيم تعود الى الفرس والهنود الاقدمين، واذا بوحدة الأب والابن ترجع الى مصدر برهمي قديم.

وحتى عقيدة الصلب وعقيدة الفداء فقد كانتا لأهالي (النيبال) في إلههم (أندرا) ولقدماء المصريين في مخلصهم (اوزيريس) وحتى البنوة الالهية للرومانيين في (روملوس) حيث زعموا أن امه (رياسلفيا) المنذورة للعفة، ولدته من (مارس) إلهِ الحرب. وللهنود القدماء الذين يؤمنون (بسافتري) الشمس الإله الواحد و بابنه (آني) النار الذي تجسد من (فايو) الروح الحي في بطن (مايا) العذراء. وكل هذا شهدت به آثار الامم القديمة.

١ ــ التوبة: ٣٠

ومن يتتبع تاريخ الاديان يجد ظلالا كثيرة من الوثنية الرومانية ومن البرهمية والصينية، ومن الديانات القديمة الاخرى قد ارتسمت بوضوح على اليهودية والمسيحية القائمتين.

* * *

«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»[1].

وهذه آية اخرى من قرآن محمد(ص) وليد مكة وربي الجزيرة وعشير العرب. فيها نبوءة صادقة بغيب مستور وفيها نبع فياض لأدلة لا تتناهى !!.

سنريهم آياتنا في الآفاق.. وفي أنفسهم. هذه القولة التي صدقها العلم التجريبي الحديث، وهذه الموعدة التي برت بها القدرة الفائقة المحيطة هي الانباء بالغيب في الآية الكريمة.

سنري الناس آياتنا رأي عين حتى لا يرتاب منهم أحد وحتى يتبين لهم أنه الحق. سنريهم ذلك في المستقبل الآتي فان الآيات الوفيرة الغفيرة التي يرونها الآن بأعينهم و يدركونها بعقولهم و بصائرهم لا تساوي قطرة من المحيط الذى سيكتشفونه فيما بعد من العجائب. من عجائبنا التي بثثناها في الافاق أو أودعناها في الانفس.

ولقد كان الانسان يوم انبأه القرآن بهذا الغيب، وحين قطع الله له هذا العهد جاهلا لا يفقه من أسرار نفسه ولا من بدائع الكون الذي يحتضنه والآفاق القريبة التي يحط به والاخرى التي تنآى عنه، لايفقه من ذلك إلا اموراً محدودة أدرك يسيراً منها بالحس، وعلم شيئاً منها بالفطرة، وأفاد قليلا منها بالتجربة، وتلقن أكثرها عن أساطير القدماء وأحلام اليونان.

ثم تلت قرون وتبدلت شؤون، واذا بالانسان هذا يقيم المراصد العظيمة ليعلم أسرار الآفاق، و يعد الاجهزة العجيبة ليحصي حركات النجوم، ويهيء المقاييس الدقيقة ليعرف أبعاد الكواكب، و يضع الموازين الحساسة ليقيس سرعة النور، و يبتكر الوسائل الفنية ليعين بها مدارات الاجرام في الحركة، وزنة أحجامها في الكتلة، وعدد عناصرها في التركيب، واذا بالمراصد تبدي له من شموس الآفاق ما لا يصل نوره إلى الارض إلا بعد ألف من ملايين السنين، بعد هذه الآماد الطويلة يقطعها النور، وقد أوضحت له مقاييسه التي ابتكرها واختبرها ان النور يقطع بسرعته في كل ثانية مئة وستة وثمانين ألف ميل.

واذا بالانسان يقف من نفسه موقف المتحسس المتطلع، يسبر اغوارها ويمحص طباعها، و يتتبع غرائزها، و ينوع ملكاتها و يصنف أخلاقها، و يبحث عن ينبوع كل خلق، و يتقصى آثار كل نزعة، واذا به يستحفي عن أجهزته وقواه، وعن عضله وأنسجته ومصادر نشاطه وجزيئات تركيبه وتفاعلات عناصره وعن كل شيء منه، واذا بكل ناحية من نواحي الانسان الكثيرة لها علم يختص بدراستها، وعلماء يدأبون في حل مغلقاتها، واذا بكل علم من هذه العلوم يطلع الانسان

١ ــ فصلت: ٥٣.

على غرائب من نفسه ليست تحصى، و يبين له اسراراً من تكوينه ليست تعد!!.

واذا بالمجهر يريه الوفا من الخلايا في العضو الصغير من اعضائه، وملايين من الكريات في القطرة الواحدة من دمه، واذا بعلم وظائف الاعضاء يوضح له كيف تكدح هذه الكريات في تغذية جسمه، وكيف تتناصر في دفع العوادي عنه، وكيف تساندها الخلايا في بناء ما ينهدم وسد ما ينثلم!!. واذا بالعقل يستوقفه عند كل خاصة من هذه العجائب ليجلو له حكمة جديدة أو ليدله على صنع متقن!. واذا بقرآن محمد (ص) ينبئه بهذا التقدم قبل هذا العديد من القرون!!.

بلى. كان الانسان يبصر بعينه المجردة فلا يرى من الاشياء إلا ظواهر، و يقيس بعقله المفرد فلا يدرك من أسرار الامور إلا بسائط، وقد وجهه القرآن ـ لتثبيت عقائده ـ الى الظواهر التي يحسها، والى البسائط التي يعقلها، فان في ذلك دلالة وافية كافية. «الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً. وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً. وهوالذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وانزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا انعاماً واناسي كثيراً... وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات و هذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً. وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً»[1].

هكذا يدفع القرآن بالانسان دفعاً لينظر وليتأمل في ماحوله من مظاهر وما يبدوله من أسرار، فما خلقت هذه العجائب الكونية وما ملئت بها الآفاق والاعماق ليقلب الانسان فيها بصره فينال منها متعة النظر فحسب، ولكن ليفتش اسرارها و يسبراغوارها فيفيد من ذلك علماً يكمل به نفسه و يصلح دنياه، وعقيدة يثبت بها دينه و يسعد حياته و يصلح آخرته. هكذا يدفع القرآن بالانسان في هذه الآيات وفي نظائرها.

ولكنه في الآية السابقة يومي الى هذا العملاق الجبار الذي يخضع الطبيعة لارادته و يسيطر على قواها بعلمه. الى الانسان المقبل الذي يكتشف خبايا الكون بالمناظير والمجاهر، ويحلل عناصر الموجودات بالمختبرات والمعامل، الى إنسان القرن العشرين الذي يقف على نبع النور في المواد البسيطة، و يستبطن طاقة الذرة في وحداتها الدقيقة، و يفتح المغلقات من رموز الكون، و يبرز المكنونات من أسرار الطبيعة. الى هذا الكائن الطموح الذي يحاول أن يرقى أسباب السماء بسلم، وان ينفذ من أقطارها بسلطان، والذي يثبت بالمشاهدة و بدقة الملاحظة أن الذرة الصغيرة تحتوي نظاماً شمسياً كاملا دقيقاً كنظام الافق الشمسي الكبير!!

يجد أن في هذه الهباءة التي لا تدرك لصغرها إلا بمجهر. يجد أن فيها فلكا صغيراً كهذا الفلك المحسوس الكبير، وأن في فلك الذرة نواة تتوسطه كما تتوسط الشمس هذه المجموعة الشمسية،

١ ـ الفرقان: ٤٥ ـ ٥٤.

وفيـه (ألـكـترونات) جسيمات صغار تدور حول أنفسها وحول النواة كماتدور الكواكب السيارة حـول انـفـسـهـا وحـول الشمس ولتلك السيارات الصغيرة في فلكها الصغير مدارات وميول محدودة مـضبوطــة كما للـكـواكب السيارة سواء بسواء. وفي الذرة قانون تجاذب يعدّل تلك الحركة ويحرس نـظـامـهـا كـقـانون التجاذب الذي يعدل الحركة في المجموعة الشمسية ويحرس نظامها. وأغراه هذا الـتشابه الذي ألفاه بين المنظومة الذرية والمنظومة الشمسية ان يمعن في النظر فيه وأن يتقصى حدوده و يـضـرب في ابـعاده، فأكب يفحص و يعادل و يدقق و يضبط. فوزن نواة الذرة و وزن الذرة كلها ثم وزن الشمس و وزن المجموعة الشمسية كلها و نسب النواة الى الذرة ونسب الشمس الى المجموعة فوجد أن النسبة بذاتها هي النـسبة، فكلا الشمسين يساوي وزنها (٩، ٩٩) من وزن مجموعتها.

وضبط المسافة مابين الالكترونات بالنسبة الى قطر الذرة، وضبط الأبعاد مابين الكواكب السيارة بالنسبة الى قطر المجموعة فوجد كذلك ان النسبة بعينها هي النسبة

وعـطف الى قوى التجاذب التي تنظم الكواكب في مواضعها من الفلك وفي حركاتها حول الـشـمـس والاخـرى التي تنظم الالكترونات في مداراتها من الذرة وفي سبحها حول النواة فرأى أن المعادلات الحسابية التي تتبعها قوى التجاذب هنا هي نفس المعادلات التي تتبعها هناك.

وجـد الانـسـان كـل هـذه المـدهـشات المحيرات في الذرة، أفتدري كم هو مقدار الذرة في الحجم؟.

إذا أخـذنا مليمتراً واحداً فقسمناه عشرة ملايين جزءٍ، فان أحد هذه الأجزاءِ ــعلى وجه التقريبــ ذرة يحتوي ذلك النظام الدقيق الرتيب!!.

ونـواة الـذرة والـبـروتـونـات والـنـيـوتـرونـات التي تتقوم منها النواة، والجسيمات الاخرى (الالـكـتـرونـات) التي يتم بهـا تـركـيب الذرة، ومافي النواة من شحنة كهربائية موجبة تعادلها مافي (الالـكـتـرونـات) مـن شـحـنـة سـالـبـة، كـل أولـئـك أسرار خطيرة كشفها رائد العلم وأخضعتها قـدرة الانـسـان!! و نواة الذرة هي مخزن طاقتها الرهيبة العجيبة التي يملك الانسان أن يدمر بها العالم وأن يضمن له بها الخير!!.

أسمعت أغرب من هذا الاكتشاف وأعظم من هذا المكتشف؟!.

هـذا هـو انـسـان القرن العشرين وما بعده من القرون الآتية، أفلايستحق من القرآن لفتة كريمه تميزه عمن سواه من اناسي القرون؟.

الى هذا المخلوق العظيم يلتفت القرآن في آيته السابقة ليقول له: ان كل ما تكتشفه من سر، وكـل ما تستوضحه من حكمة، وماتبينه لك الآلات من الدقائق والذرات ومايثبته لك التحليل من العـنـاصر والقوى، وما تبديه لك المراصد من الشموس والكواكب، ومايجلوه لك العلم من الحقائق والآثـار. كـل هـذا الـذي عـلمته من أسرار الكون وماستعلمه في الآتي القريب أو المستقبل البعيد كـلـه بـيـنـات قاطعة الدلالة على موجد حي عظيم القدرة نافذ الإرادة، واسع العلم دقيق الحكمة، غني

بذاته عن كل شيء مهيمن بقدرته على كل شيء، لا تنفد حكمته، ولا تضعف قدرته ولا ينقطع تدبيره ولا ينتهي وجوده.

هو قبل هذه الاشياء أجمع، وهو معها أجمع، وهو بعدها أجمع.

هو قبل الاشياء لانه خلقها، وخالق الشيء لابد وأن يكون قبله، وهو مع الاشياء لانه صرّفها من حال الى حال ومن صورة الى صورة ومن زمان الى زمان ودبرها بمقتضى الحكمة في جميع الاحوال والصور والازمان، ومصرف الشيء ومغيره لابد وأن يكون معه. وهو بعد الاشياء، لان ماليس له ابتداء لايكون له انتهاء.

و بعد أفليس من أشد الامور غرابة أن يقف الانسان العالم المفكر المتبصر دون هذه النتائج المحتومة المعلومة بعد أن يغرس بيديه بذرتها الحية، و يفحص بنفسه تربتها الزكية، و يتعهد بذاته ريها الكافي، و يلحظ بعينيه نموها الكامل وإثمارها المبهج النافع؟!. أليس غريباً ان يصده الهوى عن أجلى المقدمات و يشل منه التصديق دون أصدق النتائج؟!

أليس غريباً أن ينكر هو و يقول قد أنكر العلم، و يسفه هو و يقول قد سفه الحق؟. متى جاز في العقول أن يوجد شيء من تلقاء ذاته ليقول انسان له شعور وله علم: إن الكون قام وحده دون موجد ودون مدبر؟!

أم يقولون: هي الطبيعة الخالقة؟!.

ومن العجيب أن يصدر هذا القول من عاقل حصيف، إي وعينيك انه لقول عجيب.

أليس في هذه الكشوف العلمية الدقيقة ما يحول دون هذا الاسفاف؟

أليس في دقة الصنع ما يدل على ان الصانع حكيم؟.

أليس في هبة الحياة ما يدل على ان الواهب حي؟.

أليس في إفاضة ضروب الكمال مايدل على ان المعطي كامل؟.

فهل هذه صفات الطبيعة وهي كما يقولون صماء بكماء؟.

عجيب جداً ان يصدر هذا القول من عاقل حصيف بعد وضوح هذه الامور!

و بعد فهل يستطيع هؤلاء القائلون بأن الطبيعة هي الخالقة، أن يقيموا شاهداً واحداً من هذا الكون الفسيح الرحيب استقلت فيه الطبيعة بنفسها دون تدخل علة فاعلة مختارة؟ ان يقيموا شاهداً استقلت فيه الطبيعة فاستبدلت بنفسها قانوناً بقانون أو غيرت من تلقاء ذاتها وضعاً بوضع.

ليدلونا على شاهد واحد يشهد لها بهذا الاستقلال مهما كان صغيراً، بل ومهما كان تافهاً لنتبعهم فيما يزعمون!

ولا وربك ليس في مقدورهم ذلك، ولا في استطاعة أحد من المخلوقين سواهم، ليس في مقدورهم جميعا وإن فحصوا جسيمات كل خلية وفجّروا نُوَيَّاتِ كل ذرة...

ليس في مقدورهم ذلك لانهم لايملكون ان يوجدوا المعدوم او يوجدوا الممتنع.

أليس في هذا ما يدلنا على ان الطبيعة لا تملك من نفسها ان تصنع شيئاً، ولا تقدر ان تستقل فى عمل، وان كل ما هناك من خير ومن جمال ومن قوانين ثابتة وسنن دقيقة انما هو صنع يد مدبرة وقدرة مقدرة؟!.

إن العلم لاينكر ذلك أبداً لأنه لايجهل حدوده، ومحال عليه ان يطلب حقائق ماوراء المادة بأدوات لا تفحص الا المادة، ومحال عليه أن ينكر حقيقة مالانه لم يجدها في مرصده أومختبره. أما العلماء فيبدو في الآونة الاخيرة أن فكرة الله بدأت تملأ عقولهم وان الايمان به أخذ يدب في قلوبهم، واقرأ إن شئت كتاب (العلم يدعو للايمان) للاستاذ (ا. كريسي موريسون) رئيس اكاديمية العلوم بنيويورك، وكتاب (الله يتجلى في عصر العلم) الذي ساهم في إخراجه ثلاثون رجلا من اكابر العلماء التجريبيين، والكتابان ثروة علمية لاغناء عن الاطلاع عليها.

* * *

واعترافاً بالحق وتقديراً للعلم أود ان اضمن كتابي اول فصل من الكتاب القيم (الله يتجلى في عصر العلم) وكاتب هذا الفصل هو الاستاذ الدكتور (فرانك اللن) عالم الطبيعة البيولوجية، وعنوان فصله (نشأة العالم. هل هو مصادفة او قصد؟) قال:

«كثيراًما يقال ان هذا الكون المادي لايحتاج الى خالق، ولكننا اذا سلمنا بان هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته؟ هنالك أربعة احتمالات للاجابة على هذا السؤال: فاما ان يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده، وأما ان يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وإما ان يكون أبديا ليس لنشأته بداية، وإما ان يكون له خالق.

أما الاحتمال الاول فلايقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والاحساس، فهو يعني أن احساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لايعدو ان يكون وهما من الاوهام ليس له ظل من الحقيقة. وقد عاد الى هذا الرأي في العلوم الطبيعية أخيراً سير جيمس جينز الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي وأنه مجرد صورة في أذهاننا. وتبعاً لهذا الرأي نستطيع أن نقول اننا نعيش في عالم من الاوهام، فمثلا هذه القطارات التي نركبها ونلمسها ليست إلا خيالات، وبها ركاب وهميون وتعبر انهاراً لا وجود لها وتسير فوق جسور غير مادية... الخ، وهو رأي وهمي لايحتاج الى مناقشة او جدال.

أما الرأي الثاني القائل ان هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحماقة، ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر او المناقشة.

والرأي الثالث الذي يذهب الى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية انما يشترك مع الراي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الازلية. واذاً فنحن إما ان ننسب صفة الازلية الى عالم ميت واما ان ننسبها الى إلهٍ حي يخلق. وليس هنالك صعوبة فكرية في

الاخذ بأحد هذين الاحتمالين اكثر مما في الآخر. ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا وانها سائرة حتما الى يوم تصير فيه جميع الاجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، و يومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة. ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عند ما تصل درجة حرارة الاجسام الى الصفر المطلق بمضي الوقت. اما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والارض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على ان أصل الكون او أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذن حدث من الاحداث، ومعنى ذلك انه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه.

ان ملاءمة الارض للحياة تتخذ صوراً عديدة لايمكن تفسيرها على أساس المصادفة او العشوائية. فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها. فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام، فيكون في ذلك تتابع الفصول، الذى يؤدي بدوره الى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا، و يزيد من اختلاف الأنواع النباتية اكثر مما لوكانت الارض ساكنة. ويحيط بالارض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها الى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل).

و يبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً الينا منقضة بسرعة ثلاثين ميلا في الثانية. والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات الى مسافات بعيدة داخل القارات، حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيي الارض بعد موتها، والمطر مصدر الماء العذب، ولولاه لأصبحت الارض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة. ومن هنا نرى ان الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة.

ويمتاز الماء باربع خواص مهمة تعمل على صيانة الحياة في المحيطات والبحيرات والانهار، وخاصة حينما يكون الشتاء قارساً وطويلا، فالماء يمتص كميات كبيرة من الاوكسجين عند ما تكون درجة حرارته منخفضة وتبلغ كثافة الماء أقصاها في درجة أربعة مئوية. والثلج أقل كثافة من الماء مما يجعل الجليد المتكون في البحيرات والانهار يطفو على سطح الماء لخفته النسبية فيهيئ بذلك الفرصة لاستمرار حياة الكائنات التي تعيش في الماء في المناطق الباردة. وعند ما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الاحياء التي تعيش في البحار.

أما الأرض اليابسة فهي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الارضية، فالتربة تحتوي العناصر التي يمتصها النبات ويمثلها ويحولها الى أنواع مختلفة من الطعام يفتقر اليها الحيوان و يوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الارض، مما هيأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة ونشأة كثير من الصناعات والفنون، وعلى ذلك فان الارض مهيأة على أحسن صورة للحياة. ولا شك أن كل هذا

من تيسير حكيم خبير، وليس من المعقول أن يكون بجرد مصادفة أو خبط عشواء ولقد كان إشعياء على حق عندما قال مشيراً الى الله: «لم يخلقها باطلا. للسكن صورها» (١٨:٤٥).

وكثيراً ما يسخر البعض من صغر حجم الارض بالنسبة لما حولها من فراغ لانهائي. ولو أن الارض كانت صغيرة كالقمر، أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت. أما لو كان قطر الارض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة اضعاف، وأصبحت جاذبيتها للاجسام ضعف ماهي عليه، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي، وزاد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد الى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع، و يؤثر كل ذلك أبلغ الاثر في الحياة على سطح الارض، فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعا كبيراً، وتنقص مساحة الاراضي الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً، و بذلك تعيش الجماعات الانسانية منفصلة او في أماكن متنائية، فتزداد العزلة بينها و يتعذر السفر والاتصال بل قد يصير ضرباً من ضروب الخيال.

ولو كانت الارض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للاجسام التي عليها ١٥٠ ضعفاً، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوي الى اربعة أميال، ولأصبح تبخر الماء مستحيلا ولارتفع الضغط الجوي إلى مايزيد على ١٥٠ كيلو جراماً على السنتيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاواحداً إلى ١٥٠ رطلا، ولتضاءل حجم الانسان حتى صار في حجم ابن عرس أو السنجاب، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أزيحت الارض الى ضعف بعدها الحالي عن الشمس، لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس الى ربع كميتها الحالية، وقطعت الارض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض. ولو نقصت المسافة بين الارض والشمس الى نصف ماهي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الارض اربعة امثال، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس، ولآلت الفصول الى نصف طولها الحالي اذا كان هنالك فصول بالمرة، ولصارت الحياة على سطح الارض غير ممكنة.

وعلى ذلك فان الارض بحجمها و بعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها تهيئ للانسان اسباب الحياة والاستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا.

فاذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة. فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة؟.

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الاسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب الى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم... ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة

والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول إنها تحدث بالمصادفة والتي لانستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة اخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد). وقدصرنا بفضل هذه الدراسات قادرين على التميز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان. ولننظر الآن الى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة:

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية. وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون، والايدروجين، والنيتروجين، والاوكسجين، والكبريت. و يبلغ عدد الذرات فى الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة ولما كان عدد العناصر الكيمو ية في الطبيعة ٩٢ عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً، فان احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكونّ جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

(وقد قام العالم الرياضي السو يسرى تشارلزيوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكو ين جزيء بروتيني واحدإلا بنسبة ١ الى $١٠^{١٦٠}$ ، أى بنسبة ١ الى رقم عشرة مضرو با في نفسه ١٦٠ مرة. وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات. و ينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد اكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات. و يتطلب تكو ين هذا الجزيء على سطح الارض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لاتحصى من السنوات قدرها العالم السو يسري بأنها عشرة مضرو بة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين ($١٠^{٢٤٣}$ سنة).

ان البروتينات تتكون من سلاسل طو يلة من الاحماض الأمينية. فكيف تتآلف ذرات هذه الجزيئات؟ انها اذا تآلفت بطريقة اخرى غير التي تتآلف بها، تصير غير صالحة للحياة، بل تصير فى بعض الاحيان سموما. وقد حسب العالم الانجليزى ج. ب. ليثز الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين $١٠^{٤٠}$. وعلى ذلك فانه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً.

ولكن ما البروتينات الا مواد كيمو ية عديمة الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً. انه العقل اللانهائي، وهو الله وحده الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره واغدق عليه سرالحياة)».

هكذا يبلغ العقل الحصيف غايته العظيمة اذا عرف السبيل، ولم يقف به الخور ولم تنحرف به الاهواء. وهكذا يستبين صدق قول الله في كتابه: «وقل الحمد لله سيريكم آياته

فتعرفونها. ومار بك بغافل عما تعملون»[1].

١ ــ النمل: ٩٣.

في ظِلال العقيدة

طبيعي أن يكون العقل أول ناحية من الانسان تنصرف اليها عناية الدين وأحقها بالمزيد من تهذيبه، فالعقل أسمى موهبة يختص بها الانسان وأولى ميزة يرتفع بسببها عما حوله من الكائنات.

والعقل هو المصدر الاول لأفكار الانسان والملتقى الاعظم لتصوراته. الحق منها والباطل، المنتج منها والعقيم، الرفيع منها والوضيع.

وللعقل اشراف تام أو ناقص على صفات المرء التي يكتسبها بالتخلق، وعلى مراميه التي يندفع نحوها بالرغبة، وعلى أعماله التي يصدرها بالاختيار.

والعقل من وجهة خاصة هو المجال الاول للدين، فقد علمنا ان الدين هو منهاج الانسان الى كماله الأعلى الذى يبلغه بالاختيار، والتفسير الواضح لذلك: ان الدين هو النهج القويم لتزكية العقل في ذاته وتوجيهه الى الرشد في سلوكه.

وهذا ما نهج اليه كل دين فيما نعلم، فان العقيدة من كل دين هي الاساس المتين الذي يقوم عليه هيكله، أو الدعامة المكينة التي تشد بناءه. ومن أجل ذلك وجب ان تكون العقيدة جلية لا اثر فيها للغموض. وثابتة لامجال فيها للتزلزل، و يقينية لا ظل فيها للريب. لأن العقيدة وظيفة عقلية في مرحلتها الاولى والعقل صريح في احكامه لايقبل من الوظائف مافيه غموض أو وهن او اضطراب.

ولقد صدمت المسيحية كبرياء العقل حين دفعت اليه حزمة من العقائد لم يفقه للكثير منها مفهوماً، ولم يجد للبقية منها برهاناً، بل وادرك ان الكثير منها متناقض الفكرة منحل القواعد. حين دفعت اليه هذه الحزمة من العقائد، ولم تجعل له حقاً في نقدها، ولا خياراً في قبولها.

وانكمش العقل لهذه الصدمة ولم يدر ماذا يقول، ومايقول و قد ابعد عن الحكم وحجر عليه القول ومنعت منه الخيرة؟!

ولكنه بقي يتساءل: إذا كان الأمر خارجا عن يده فلماذا يطلبون منه الاقرار؟!.

وقال رجال المسيحية ــ يلطفون الجو و يعللون الأمرــ: اسرار الدين لا يسمو اليها العقل، ومن الخير له ان يؤمن وإن لم يفقه، فان الدين لا يدعوه إلا الى خير. وقال اتباع الكنيسة: الايمان مركزه الوجدان.

وقال بعض الفلاسفة المحافظين: سبيل الانسان الى المعرفة اليقينية هوالحس والتجربة، وهما لايستطيعان ان يدركا حقيقة الله ولا اسرار الدين. فموضعها القلب وليس موضعها العقل.

وانكمش العقل لأنه رأى الناس يتخادعون على حسابه. و بقي يتساءل مرة اخرى: اذا كان الدين لامكان له في العقل فبم يميز هؤلاء الخطأ في الاديان من الصواب؟!

إن العقيدة وظيفة عقلية في مرحلتها الاولى فيجب ان تكون جلية لااثر فيها للغموض، وثابتة لا مجال فيها للتزلزل و يقينية لا ظل فيها للريب. لأن العقل لايقبل من الوظائف ما فيه غموض او وهن او اضطراب.

ومن اجل ذلك تنوع الاسلام في البرهنة على اصوله واستحث الانسان على التأمل فيها وشجعه على نقد حججها كي يوقن عن بصيرة ثم يعتقد عن يقين:

الدين سبيل التكامل الاختياري في نفس المرء وفي عقله، ومحال أن يبلغ بالمرء هذا المدى ما لم يكن على صلة وثيقة بنفس المرء وعقله، ومحال ان يبلغ بالمرء هذا المدى مالم تخضع نفس المرء وعقله لأوامر الدين وارشاداته، ومالم يكن هذا الخضوع منهما عن طواعية واختيار، محال ان يصل الدين بالانسان الى تلك الغاية مالم يبلغ من نفس الانسان ومن عقله هذا المبلغ.

وكيف يخضع هذان لأوامر الدين وهداياته إذا لم يكن الانقياد لمشرعه والاطاعة لمبلّغه عقيدة راسخة يتفهمها العقل وتمتلىء بها النفس؟.

هذه السبيل الطبيعية للدين متى أراد أن يسلك سلوكا جديا الى الغاية.

على أن الدين في حقيقته المفهومة وفي وضعه اللازم. بل وفي مجاله اللغوي.أيضاً ر باط عبودية خاضعة يشد الانسان الى إلّه قادر قاهر، ورسوم ترتكز على معاني تلك العبودية وهذه الربوبية يشرعها الرب ويمتثلها العبد، وقد مرّ شرح هذا مفصلا فليراجعه القارئ اذا شاء.

وإذن فالعقيدة هي الركيزة الاولى للدين، وحجر الزاوية من بنائه.

على أن للاسلام من وراء العقيدة مرامي بعيدة الهدف بالغة الأهمية عظيمة الجدوى.

فالعقيدة في الاسلام مفتاح لتثقيف المرء وإذكاء مواهبه وتفتيق مافي ذهنه من طاقة وارضاء ما في نفسه من طموح، وللدفع به الى الثقافة العالية والسمو به الى المدنية الصحيحة.

يروم الاسلام من وراء العقيدة أن يدفع المرء ليكتشف و يوجهه ليبتكرو يستحثه ليتقدم و يرتفع.

يريد أن يقيم العقيدة على كشوف العلم حتى لايزيدها اطراد العلم إلا وضوحاً، وأن يربط

العلم بالعقيدة حتى لا يفيده رسوخ العقيدة إلاقداسة. يريد أن يتبنى العلم من حيث أنه سند له في تمكين العقيدة فلا يقولن متنطع إن الدين يناكر العلم، ثم يبارك العلم من حيث أنه وزر له على نيل الغاية فلا يفوهن متشدق ان العلم يصارم الدين.

الدين سبيل التكامل الاختيارى في نفس المرء وعقله، ولن يتم هذا التكامل إلا بالعلم ولن يتم إلا بالتهذيب.

من ثم كانت العقيدة في دين الاسلام مفتاحا للنظر في علوم الكون.. في علوم الكون كافة دون استثناء ودون اختلاف. فدلالة الخليقة على الخالق، ودلالة الابداع على حكمة المبدع ودلالة وحدة الأشياء في التصميم على وحدة المصمم، هذه الشهادات يجدها العالم في فطرة الخلية البسيطة كما يجدها في خلقة الانسان المعقدة، و يراها في تكوين الذرة كما يراها في تنظيم المجرة الكبيرة.

ففي هذا الدين يجب النظر في شؤون الفلك وفي أسرار الطبيعة وفي قوانين الحياة و في فلسفة التكوين وفى دقائق التركيب وفي خواص الاشياء وانظمة الاحياء، وفي خصائص كل نوع وفي مميزات كل صنف وفي حكمة كل جزء وفى غاية كل موجود.

كل أولاء يجب النظر فيه لتثبيت العقدة في دين الاسلام، والآيات الدالة على ذلك كثيرة في القرآن، وقد اطلع القارئ على عدد منها في الفصول السابقة.

العقيدة في صورتها معرفة ولا بد للمعرفة من الدليل.

وهي بعد استكمالها ايمان ولا بد في الايمان من الرسوخ.

وهي عند إثمارها عمل ولا بد في العمل من الاخلاص.

هذا هو هيكل العقيدة التي يبتغيها الاسلام من كل مسلم.

يريد منه أن يعرف حتى لا يساوره في معرفته ريب، وأن يؤمن حتى لا تعروه في إيمانه ذبذبة، وأنه يخلص حتى لا يخامره فى اعماله ولا في صفاته فسوق ولا رياء.

يريد منه أن يكون صورة ماثلة شاخصة للقوة والثبات والصدق فى عرفانه وفي إيمانه ثم في سلوكه وأعماله وصفاته و سماته «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون»[1] هذا التجنيد الكامل للعواطف والمشاعر والغرائز والإخلاق والسر والعلانية للايمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، هذا هو الايمان الصادق الذي يبتغيه الاسلام من أتباعه.

وأية شيمة من شيم الخير يفقدها المسلم وأية خلة من خلال السوء يدانيها إذا خضع لهذه القيادة واتبع هذا الهدى، واذا كان لا يعمل إلا عن عقيدة ولا يعتقد إلا عن برهان؟.

١ ــ الحجرات: ١٥.

أما خلاصة العقيدة في دين الاسلام فهي:

[١] توحيد الله في الالوهية والربوبية توحيداً نقياً صافيا لا شائبة فيه لشرك ولا ظل فيه لتركيب، ولا اثر لحلول أو اتحاد، عميقاً عميقاً تمتد جذوره الى ارادة المسلم فلا يعبد إلا الله ولا يستعين إلا به، والى خلجات نفسه فلا يخشى احدا إلا الله ولايضرع لكائن سواه، والى آمال قلبه فلا يرجو غير الله ولا يرغب إلا اليه.

أما توحيد الله في الصفات فهو شوط كبير يختص به المذهب الا ثنا عشري في مضمار التوحيد، و بالاحرى هو تفسير دقيق للتوحيد الخالص الذي يجب أن يعتقده المسلم.

ومرد هذه الفكرة الى أمرين:

(أ) أن لله وحده مطلق الكمال في كل نعت يعدظهوراً للكمال.

(ب) وأنه سبحانه غني بذاته عن أي علة او صفة هي غير ذاته.

فالله سبحانه حي بنفسه لا بعلة أو صفة غير ذاته توتيه الحياة، والله قادر بنفسه لا لعلة او صفة تكسبه القدرة، وهو عالم بنفسه لا من اجل علة أو صفة تفيده العلم، وهو سميع و بصير بنفسه لا بآلة او علة اوصفة توليه السمع.

ثم هو كامل وغني بنفسه لا بسبب علة او صفة غير ذاته تمنحه الكمال والغنى.

فليس لله صفة تزيد على ذاته، فان المدلول الصريح للصفات الزائدة أن الذات استكملت بها عن نقص وارتفعت من ضعة واستغنت عقيب حاجة. ولايجدي فتيلا في رفع هذه المحاذير أن الصفات واجبة كوجوب الذات وقديمة كقدمها وأنها لم تنفصل عنها في الأزل ولن تنفصل عنها الى الابد. لا يجدي ذلك في رفع المحاذير بعد أن كانت غير الذات واستكمال الذات بها لا يكون إلا عن نقص، عن نقص في الذات وان لم يحصل في زمان.

ليس لله صفة بالمعنى الذي يستلزم الهبوط في الذات وإنما صفاته في الوجود عين ذاته... عين ذاته الواحدة في الوجود المنزهة عن التركب المستجمعة للكمال، المستأثرة بالغنى.

[٢] تنزيه الله عن كل ناقصة من الصفات وعن كل شائن من الافعال. فلا وهن ينال قدرته العامة، ولا ظلم يثلم عدله الشامل، ولا جهل يدنس علمه المحيط، ولا عبث يشين حكمته التامة، ولا نقص يلحق كماله المطلق.

ومن مظاهر هذه العقيدة تنزيه الله عن الجبر في الاعمال وعن الاكراه في الدين، ومن أضوائها تنزيه أنبياء الله وحججه عن كل ما يهبط بالنفوس الزكية و يتضع بالصفات الحميدة.

[٣] إذا كان الدين ضرورة يلجئ اليها انتظام الحياة، واذا كان واضع الدين يجب ان يكون هو واضع نظم الحياة، واذا كانت كرامة الانسان وحريته توحيان اليه أن لا يخضع في الدين إلا لمن يخضع له في التكوين. اذا كان جميع هذا حقاً لامراء فيه ــ وقد علمنا من قبل أنه كذلك، وعرفنا أنه حكم البرهان وقضاء الفطرة ــ فلا بد لهذا الدين من مبلغ.

ولا بد له بعد فقد المبلّغ من الحجة الحافظ.

الدين نظام اختياري يرتكز على الارادة ويتكئ على البرهان، فهو لذلك يفتقر الى المبلّغ المأمون.

والدين شريعة وضعية تقوم على الموازنة وتستمد من الملابسات، فهو من اجل ذلك نصبٌ للطوارئ وعرضة للتحريف، وهو من اجل ذلك يفتقر الى الحافظ المأمون.

مبلِّغ يستوعب شريعة الله كاملة و يؤديها الى الناس غير منقوصة.

وَقيِّم يستودعه ذلك المبلِّغ أمانته و يقيمه ملجأ للامة بعد موته.

ذلك المبلغ الذي يحمل رسالة الله في دور التأسيس هو الرسول.

وهذا القيم الذي ينوب عن الرسول في حفظ الشريعة هو الامام.

[٤] اذا كان الله سبحانه مصدر كل شيء في البدء فان اليه مصير كل حي في النهاية واذا كان هو الرقيب على الاعمال في الدنيا فهو الحسيب المجازي عليها في الآخرة، واذا كان الدين منهاجا للانسان لا محيد من وضعه ولا مناص من اتباعه فلا محيص من يوم يقوم المرء فيه لتصفية النتائج واستيفاء التبعات.

اما البعث والنشور فان الحديث عنه أوضح من أن يسجل وأبين من أن يفتقر الى دلالة، أليس من الهزل العابث أن يقول قائل: إن فلاناً الصانع الماهر قادر على أن يعيد ما ابتكره؟!. ثم أليس من السخف المضحك بعد ذلك أن يطلب أحد من هذا القائل بينة على صحة هذه الدعوى؟!.

أرأيت بنّاءً يقيم عمارة عظيمة تبدو فيها براعة الفن ومهارة الصناعة وجمال الذوق، ثم يعيى عن تجديدها اذا طرأ عليها طارئ؟!. أم رأيت امرءً ذا مسكة من شعور يكبر على هذا البنّاء أن يعيد عمارته بما فيها من فن وبما لها من جمال؟!.

«أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم»[1].

* **

وللعقل في دين الاسلام منزلة سامقة لن تبلغها أية موهبة اخرى من مواهب الانسان، فالعقل هو المفزع في تمييز الخير والشر وتبيين الحق من الباطل، والعقل هو سر التفاضل في درجات الرجال، فهو الملاك في استيجاب المنزلة والكرامة في الدنيا وهو المدار في استحقاق المثوبة أو العقوبة في الاخرى، وقد قال الرسول (ص): «اذا بلغكم عن رجل حسن حال فانظروا في حسن عقله فانما يجازى بعقله»[2] وقال (ص): «ماقسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل

١ ــ يس: ٧٧ ــ ٧٩.

٢ ــ الحديث ٩: كتاب العقل من اصول الكافي.

أفضل من سهر الجاهل واقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبياً ولا رسولا حتى يستكمل العقل و يكون عقله أفضل من جميع عقول امته، وما يضمر النبي في نفسه افضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى وما يتذكر إلا اولوالالباب»[1] ان الله غني متعال لا ينظر الى العمل لكثرة ولا يرتضيه لتنسيق بل ينظر الى ما يوجبه ذلك العمل لنفس العامل من زكاة وما يتركه في قلبه من إشراق، وانما يدرك ذلك بالاخلاص، وانما يدرك ذلك بالمعرفة الكاملة الواعية، وانما يدرك ذلك بالعقل اليقظ المستنير الذي لم يقسم الله للعباد شيئاً أفضل منه.

والالباء من الناس المتبعون رشد عقولهم السائرون على هداها المميزون بين ما يحسن من الامور و من الاعمال والصفات فيأخذون به، وما يقبح منها فيجتنبونه و يأنفون منه. فاذا تعارضت الاقوال لديهم فحصوها فحص النيقد الخبير فأخذوا بأوفاها هدى واكثرها سدادا، هؤلاء هم العبادالحريون بتوفيق الله وهداه الجديرون منه بالبشرى في الحياة الدنيا والغبطة والنعيم في الدار الآخرة، «فبشر عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب»[2] وهم الحقيقون بصفة الانسانية في نسقها الاعلى، وهم الاحياء بمعنى الحياة المجدي «أوَمن كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها»[3].

أما الآخرون الذين يرتكسون في حمأة الجهل الى آذانهم و ينتكسون في بؤرته على رؤوسهم، ولا يستجيبون لدعوة الحق، ولا يصيخون لنصيح العقل، اما هؤلاء فليسوا من الانسانية في شيء وان اشبهوا الاناسين في السمات والحقوا بهم في العداد «ان شرالدواب عندالله الصم البكم الذين لايعقلون»[4] والعجماوات إنما خلقت لتأكل وتشرب وتنمو وتلد ثم لتُسرج وتُركب أوتذبح وتؤكل، وحواسها وغرائزها المودعة فيها تدرجها في هذا الطريق وتوفي بها على الغاية، اما ابن آدم فقد خلق لتكاليف اخرى في هذه الحياة.

والدواب البشرية تترك سبيلها الذي طرّقته لها الطبيعة واعدتها له الحكمة وتهرع مع البهائم زاعمة أن سبيلها هو السبيل الرشيد. نعم وتكب تهتدي بهديها وتأتي مثل اعمالها وقد عرف الاستعمار ما تنتظر هذه المخلوقات فأعد البرذعة وشحذالسكين.

إن الحواس في ابن آدم نوافذ يتصل منها نورالحياة بنور العقل، وترتبط حركات الكون بحركات الفكر، فاذا لم يؤد الانسان بحواسه هذه الوظيفة فقد سد على عقله منافذ النور وعطل

١ ــ الحديث ١١: كتاب العقل من اصول الكافي.
٢ ــ الزمر: ١٧ ــ ١٨.
٣ ــ الانعام: ١٢٢.
٤ ــ الانفال: ٢٢.

حواسه عن الانتفاع.

وما كان الانسان ليملك ان يوصد هذه الابواب لو ان عقله كان حر الحركة منطلق النشاط، إن تجميد الحركة فيها يعني تجميد حركة الفكر واطفاء شعلته واخماد نشاطه، ثم لا معدى للخابط من أن يرد نهايته المحتومة وأن يجني ثمرته المعلومة. «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»[1] لجهنم... للظاهرة العظمى من غضب الله... للعاقبة السوأى التي لا عاقبة أسوأ منها... لهذه النهاية الكالحة المرعبة المخيفة خلق هذا الهباء من الجن والانس. ولم تكن هذه عقباهم لو أنهم أحسنوا الافادة من هبات الله التي آتاهم، فأعملوا البصيرة وانتهجوا الحق.

وعمى البصيرة أشد وانكى واعظم معرة من عمى البصر «فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»[2]. وما ضر فاقد البصر أن لا يشهد الأضواء والألوان اذا كانت له بصيرة نفاذة الى الحقائق، جوالة في المعاني، غواصة الى التخوم. وماضر فاقد البصر أن لا يشهد الأضواء والألوان إذا استطاع بفطنته أن يحلل طيف كل ضوء ويحصي أخلاط كل لون، و يستجلي خصائص كل مرتبة من الاضواء ومميزات كل فصيلة من الألوان، وما ضره أن يكون كذلك إذا كان يسدد القول فلا يخطئ و يقيم البرهان فلا يدحض و يؤسس الفكرة فلا تنقض. هذا الانسان ليس بأعمى وإن كان فاقد البصر، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

والعقل انما يتبوأ هذه المكانة في دين الاسلام اذا احتفظ بشؤونه بما هو عقل، ونهض بمهمته بما هو دليل مأمون، فلم تزغ به اهواء النفس، ولم تجنح به ميول الغريزة، ولم يتخبط في معارفه و احكامه على غير علم ولا رشد «ومن الناس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هدى ولا كتاب منير»[3] «ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، ان الله لا يهدي القوم الظالمين»[4].

والاسلام يأنف للعقل أن يستبهظ تكاليف اليقين فيستريح الى الظنون: «ومايتبع اكثرهم إلا ظناً، إن الظن لا يُغني من الحق شيئاً ان الله عليم بما يفعلون»[5] و يأنف للعقل أن يصده إلف العادات او ارث الاسلاف عن النظر الحق والفكر المستقيم، و يندد بأقوام تراكمت على بصائرهم غشاوات كثيفة من نتائج الجمود على مواريث اسلافهم وقديم عاداتهم، فمنعتهم أن يبصروا طريقهم او يبحثوا عن اعلامه: «واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه

١ ــ الاعراف: ١٧٩.
٢ ــ الحج: ٤٦.
٣ ــ الحج: ٨.
٤ ــ القصص: ٥٠.
٥ ــ يونس: ٣٦.

آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون»[1].

ضعة بالعقل أن يستأثر به هوى أو تجمح به غريزة، وهبوط بمنزلته أن يخادعه وهم أو تصرِّفه عادة أو يستبد به تقليد، ومعرة شديدة ان ينقلب جهلاً أعمى ينكر ما يحس، أو صدى فارغا يردد ما يسمع. «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون»[2].

كل هذه مهاو ومزالق على العقل أن يتوقاها اذا أراد أن يسمو، وعلى العاقل أن يحترس من التردي فيها إذا طمع أنْ يرتقي، وأن يبلغ الغاية التي من اجلها خلق، ومن اجلها بدأت الحياة.

وركيزة العقل الاولى في حكمه على الحوادث واستنتاجه للحقائق هي الضرورة، هي القضايا التي يضطر الانسان بطبيعته إلى الحكم بصدقها دون حاجة الى مزيد فكر و دون حاجة الى طلب دليل. وسنده الثاني هو البرهان اليقيني القويم، البرهان الذي يقوم على الضرورة و ينتهي اليها. ومتى اعتمد العقل في أحكامه على هاتين الدعامتين استحال عليه أن تضطرب له قدم أو تخف به كفة.

ومن الناس من يحصر وسائل العقل الى المعرفة بالحس والتجربة، فلا وسيلة له الى تصور المفردات إلا الحس، ولا سبيل له الى العلم بأحكامها وأوصافها سوى التجربة.

وهكذا انحصرت المعارف البشرية لديهم ــ لانحصار أسبابها ــ بالمادة وما يتبع المادة.

وهكذا راموا أن يجدوا تفسيراً ماديا محسوساً لكل مفهوم من المفاهيم ولكل حكم من الاحكام.

وانجر المتطرفون منهم فانكروا وجود ما سوى المادة لأنه لا يدرك بالحس ولا تناله التجربة.

وسواء أكان حصر وسائل المعرفة هو الذي أدى بهم الى انكار غير المادة أم كان إنكار ماوراء المادة هو الذي انتهى بهم الى الحصر، فانه غلو لا مبرر له، وما أكثر المعاني التي يتصورها الذهن بعيداً عن الحس. وما اكثر المعاني التي يولدها مما يدركه بالحس، وما اوفر القضايا التي يحكم عليها بالثبوت أو بالنفي ولا تنالها التجربة.

ومعاني ماوراء المادة لا تنالها الحواس وهؤلاء أنفسهم لا يجحدون تصورها في الذهن وانما ينكرون تحققها في الوجود، ثم هم يحكمون عليها بأحكام كثيرة متنوعة لا تبلغها التجربة، وقد تحدثنا عن ذلك أكثر من مرة، وللموضوع كتب اخرى تستوفي الحديث عن هذه الاهواء.

القضايا التي يضطر الانسان بطبيعته الى الحكم بصدقها دون حاجة الى فكر ودون حاجة

١ ــ البقرة: ١٧٠.
٢ ــ البقرة: ١٧١.

الى دليل، والبرهان اليقيني القائم على هذه الضروريات والمنتهي اليها، هاتان هما ركيزتا العقل في حكمه على الحوادث واستنتاجه للحقائق.

على ان المعلومات الأولية التي يمتلكها العقل، والبرهان الذي يستند اليه في المعرفة النظرية لا يملكان أن يبديا للعقل كل مستور وأن ينيرا له كل سبيل، فمن الحقائق ما يستدق على الفطرة ولا تناله الضرورة، واذا خفي على الفطرة والضرورة فقد خفي على البرهان، ومن الحقائق ما يتعارض فيه الوجه و يلتبس فيه الحكم، ومن الحقائق ما يتعرفه العقل بوجه غير صحيح. فيحكم عليه بحكم غير مطابق. فالعقل مفتقر اذن الى ركيزة ثالثة تبين له ما تعيىٰ عنه وسائله،وماترتبك فيه موازينه، وهذه الركيزة هي وحي الله خالق الفطرة و بارئ العقل الى انبيائه المصطفين الذين تصدقهم الفطرة و يؤمن بهم العقل: «قدجاء كم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وما انا عليكم بحفيظ»[1].

* * *

في أعمق الأعماق من نفس الانسان يوجد الدليل الأول على الله، بل والدليل الأول على توحيده وتنزيهه والحافز الذاتي للانسان على التوجه اليه.

في أعمق الاعماق من نفس هذا المخلوق المفكر، حتى لو أطبق عينيه عن عجائب الكون، وصرف فكره عن التأمل فيها والتدبر في قوانينها.

في فطرته حين يدع لها الحكم و يسند اليها الرأي.

في فقره الذاتي وهو يشير الى غني مطلق يأمل منه الغنى، وفي نقصه الطبيعي وهو يتوجه الى كامل أعلى يرجو منه الكمال،وفي ضعفه الشديد وهو يتعلق بقوي غالب يستمد منه القوة، وفي عجزه المتناهي وهو يلجأ الى قادر قاهر يبتغي منه القدرة والنصرة. و بكلمة جامعة في قصوره الذاتي من كل ناحية وهو يتوجه الى قوة عليا كاملة من كل ناحية، متعالية عن الحدود، مرتفعة عن الحاجة تفيض الخير وتكفي السوء.

بلى وكل انسان له ساعات لايخادع فيها نفسه أو هو لا يستطيع أن يخادعها، ساعات تتعرى له فيها الحقائق فيؤمن انه لا يملك شيئاً مما في يديه، وإن يك أغنى الأغنياء أو أقوى الأقوياء في مقاييس الناس.

وتستلفته نِعمٌ عظيمة تحوطه من شتى نواحيه، ظاهرة و باطنة، نِعمٌ لايحصيها عدداً، ولا يملك لها وصفاً، ولا يفي بها شكراً، فيوقن بفطرته كذلك أن هذه الأيادي جماع صنيع تلك القوة العظمى التي لجأ اليها عند ضعفه وتعلق بها عند خوفه.

ويمتد بصره الى ما يكتنفه من أحياء و أشياء فتقول له بداهته: هذه آثار لها مؤثر. وتقول له

١ ــ الانعام: ١٠٤

فطرته: موجد هذه المكونات هو تلك القدرة الغالبة التي لاينتهي بها حد، ولا يعجزها شيء وهكذا يجد الانسان دليل الربوبية ودليل التوحيد مطبوعين في ركائز شعوره. فاذا ركن الى العقل الواعي ليفصل له ما اجملته الفطرة وجده يقول: خالق الكون يجب أن يكون كاملا، لأنه يهب الكمال لخلقه، وواهب الكمال لا يكون ناقصاً. وخالق الكون يجب أن يكون غير متناهي الحدود في كماله. لأنه لو تناهى كماله لافتقر الى المزيد، وهذا يعني انه مفتقر الى العلة فلا يكون إلهاً.

والنتيجة اللازمة المحتومة لذلك أن إلّه الكون لن يكون إلا واحداً، لأن الالّهين، او الآلهة الكثر لا محيد من أن يختص كل واحد منهم بحصة من الكمال لا تكون لشركائه، فان هذا هو المعنى المفهوم للتعدد. وهذا يعني أن كل واحد منهم متناهي الحدود في كماله. فلا يكون الّهاً ولا خالقاً.

فاذا رجع الى المنطق يتعرف حكمه في ذلك وجد البراهين النيرة متوافرة متضافرة عليه.

والعلم؟ ماذا يؤمل منه أن يقول بعد أن لمس الوحدة الكونية في كل خطوة خطاها، وفي كل ظاهرة أو خفية كشفها؟.

ماذا يؤمل من العلم أن يقول؟. لقد اعترف بوحدة الكون، أفلا تكون هذه دليلا له على وحدة المكون؟.

وهكذا تتآزر فطرة الانسان الخاصة، وفطرة الكون العامة، وفطرة كل شيء من أشيائه وكل جزء من اجزائه على إثبات هذ الحقيقة وتجليتها للفكر الواعي، حتى اذا جاء دور الدين، دور وحي الله الى انبيائه المطهرين لم يبق له في مجال هذه العقيدة غير تبيين حدودها ورسم ابعادها، وتوضيح لوازمها وآثارها. وغير هذا حفز الفطرة لتنتبه من سنة، وتوجيه العقل ليعرف طرق البرهان.

ولا أدعي عصمة الانسان في هذا المجال، وأن التوفيق حالفه فيه أنّى سار وانّى توجه، فكيف اذن ألحد من ألحد؟ وعلى مَ أشرك من أشرك ؟. ولكنني أقول: هذا هو الطريق اللاحب الذي أعده التكوين لتجلية هذه العقيدة، وهذا هو سبيلها المستقيم الذي اهتدى باتباعه من اهتدى وضل عنه من ضل. وقد تحدثنا في أول الكتاب عن المؤثرات التي تنحرف بالفطرة، والمعوقات التي تعترض الفكر.

وفي أعمق الأعماق من تأريخ الانسان توجد آثار هذه الفطرة، وتلمح ظلال هذه الفكرة، آثار الفطرة السليمة التي أرشدت الانسان الى التوحيد، والعقل المؤمن الذي أوضح له فكرة الألوهية وان وجدت معها كذلك آثار الفطرة الملتوية. او بالاحرى آثار الانسان الذي التوى عن الفطرة، وصدف عن هداها.

وهذه حقيقة لايمتري فيها علماء التأريخ ولا علماء الآثار. فالتوحيد الخالص والشرك الصريح والالحاد المرتاب وجدت جنباً الى جنب في جميع عصور التأريخ، وحالها في الازمان الغابرة كما في الأزمان الحاضرة سواء بسواء. ومواقف دعاة التوحيد من المشركين والملحدين معروفة

مشهورة في جميع الأدوار. بل والحقيقة التي تثبتها الحجج القاطعة ان التوحيد سابق على الوثنية في النشأة.

وتتشهى فئة من الناس أن تحكم أهواءها في التأريخ لتحكم أهواءها في هذه العقيدة، ثم في فكرة الدين!!.

لتقول: ان الله وهم أنتجه الخيال الاسطوري للانسان، وان الدين والنظم الأخلاقية وتعابير الشرف والاستقامة قيود صاغها السادة للعبيد!!.

تتشهى هذه الفئة ان تبتدع لعقيدة الالوهية تأريخاً لا يعرفه التأريخ.

تقول: إن هذه العقيدة نشأت عند الانسان القديم من فكرة بسيطة، من طريق تشخيص القوى الطبيعية. ثم مرت مع الأزمان تنمو وتربو وتتحور وتتطور، حتى بلغت الذروة في عقيدة التوحيد. ونشأت معها كذلك فكرة الدين، وتطورت بتطورها ونضجت بنضجها في الأديان التوحيدية. واذن فالآله وهم اخترعه الخيال وعمل فيه التطور. والدين خرافة وضعها السادة ليقيدوا بها العبيد. واقرأ ان شئت قول (فردريك انجلز) في كتابه لودفيج فيور بارخ:

[ولم تكن الحاجة الى العزاء الديني هي التي أدت الى نشوء الوهم الممل عن الخلود الشخصي، بل هي الحيرة القاسية التي نجمت عن الجهل العمومي المشترك بما ينبغي فعله مع هذه النفس ـ اذا ما قبلت فكرة بقائها حية ـ بعد موت الجسم وفنائه. وهكذا نشأت الآلهة الأولى أيضاً بطريق تشخيص القوى الطبيعية، ثم اتخذت ـ خلال تطور الدين اللاحق ـ صورة تخرج اكثر فاكثر عن نطاق العالم الأرضي الى أن ولدت هذه الآلهة العديدة، وهي ذات سلطة ضيقة على درجات متفاوتة، وسلطة كل منها تحد من سلطة الآلهة الأخرى ـ خلال عملية طبيعية من التجريد بل كدت أقول من التقطير ـ أقول ولدت في عقول الناس مفهوم الآله الواحد المنفرد الذي بشرت به الاديان التوحيدية][1].

واقرأ أيضاً قول فؤاد ايوب في مقدمة هذا الكتاب: [ان الله نتاج وجدان الانسانية الديني وخيالها الاسطوري، اما العكس اي ان الوجدان الديني والاسطورة نتاج الوحي الالهي فغير صحيح البتة. وان التاريخ ليثبت ذلك، فالفكرة أو الصورة اللتان صنعهما المؤمن عن الله قد تبدلتا خلال مراحل المدنية الانسانية ومع تبدل مستوى تطورها الأخلاقي، هذا التطور الذي لا يزيد تانك الصورة أو الفكرة عن ان يكونا انعكاساً له او اسقاطاً. ذلك ان الانسان يسمو بالصفات والقيم التي تدله المدنية على انها فضائل مرغوبة يستفيد النوع منها والتي لا ينجح هو الفرد الفاني الضيق الأفق في الحصول عليها او تحقيقها بصورة كاملة، يسمو اذن بتلك الصفات والقيم فيضفيها على فرد الهي متسام. وهذا يعني ان الصفات الالهية نعوت انسانية لا تخص الفرد بل تخص الجنس في مجموعه][2].

١ ـ لودفيج فيور بارخ ص ١٥.
٢ ـ ص ١٧ نفس المصدر السابق.

أقرأت؟

هذه هي دعواهم... وهذه هي حجتهم...! ودليل الهراء لا يكون غير افتراء.

و يبدو أن نظرية التطور هي التي ساقتهم الى هدا الفرض ثم الى هذا الاستنتاج.

التطور قانون تخضع له كل الأشياء فلا بد وان تكون عقيدة الألوهية خاضعة له ايضاً.

وإذن ففكرة الآله قد خضعت للتطور. واذن فقد نشأت في ذهن الانسان القديم نشأة بسيطة واذن فهي من مخترعات الانسان ومبتدعاته، وقد انشأها وطورها وفقاً لدوافعه... والماركسيون يقولون بتطور الأشياء وتطور الآراء تطبيقاً لمبدأ النقيض وللحركة الديالكتيكية. وقد تعرضنا من قبل لهذه الأوهام.

و يلاحظ أن انجلز في قوله المتقدم قد عجز أن ينشّئ الفكرة الالّهية نشأة اقتصادية وأن يجعلها انعكاساً للواقع الاقتصادي على مايراه في كل فكرة، وأن يصورها فكرة بورجوازية كما يقول في غير هذا الموضع.

ثم ماذا؟

ثم لنفترض ان فكرة الانسان عن الألوهية بدأت كذلك بسيطة ثم تطورت فهل يدل هذا على ان الآله وهم لا حقيقة له؟! وقد كانت للانسان في القرون الأولى فكرة ما عن الشمس والقمر والنجوم وظواهر الكون، ثم تبدلت الفكرة وتطورت حتى أخذت صورتها التجريبية في القرن العشرين، فهل يدل هذا على ان الشمس والقمر والنجوم أوهام ليست لها حقائق؟!.

ولماذا نذكر الشمس والنجوم وظواهر الكون فاكثر المفاهيم التي يتصورها الانسان للأشياء تبدأ هكذا بسيطة ومخطئة، ثم يمضي الانسان مع الزمان يحك ويجرب و ينقد ويمتحن حتى ينتهي المفهوم الى صورته الأخيرة وجميع المفاهيم والأفكار عند هؤلاء الماركسيين خاضعة للتطور. للحركة الديالكتيكية. فهل يدل ذلك على أن الأشياء كلها أو هام وأباطيل؟.

أي منطق هذا المنطق، وأي اسلوب من الاحتجاج هذا الاسلوب؟؟!.

فلنقل ــ ولاضير ــ ان الفطرة دفعت بالانسان الى معرفة ربه، فاندفع الى ذلك منذ قرونه الاولى، ولكنه أخطأ السبيل وقصر دون الغاية، ووضع للألوهية فكرة غامضة، قبس بعض حدودها من محيطه المحدود، وأكمل سائرها من تفكيره البسيط. ثم مضى مع الأزمان يصحح أخطاءه و يبتعد في حدوده. و يعمق في تفكيره، و يرجع الى ركائز المعرفة من نفسه والى دلائل التوحيد من سواه، حتى بلغ الغاية التي يستطيعها الانسان في هذا الميدان. وجاءت الأديان التوحيدية السماوية تبارك له جهوده وتسدد له خطواته. لنقل بهذا اذا لم يكن محيد عن تطور الفكرة، ولم يكن محيد عن تأخر التوحيد عن الشرك في النشأة.

اما الأديان. اما المناهج العملية التي تقدمها الأديان للاخلاق والتربية والسلوك والاجتماع والمعاملات فلا محيد من أن تهبط من السماء موافقة لمنزلة المجتمع من التطور. ولا محيد

من أن تترتب شرائعها بحسب تلك الأدوار. وقد تحدثنا عن هذا في بحوثنا عن الدين في ينابيعه الاولى.

* * *

والتوحيد في الاسلام فكرة عامة تتمثل في عقيدة خاصة.

فكرة عامة تقوم على طي الكون كله في وحدة، وربطه كله في نسق، وتأليفه كله على غاية.

الوجود المنبسط على هذا الملكوت، المحيط بكل باد منه ومستور، الشامل لكل صغير فيه وكبير، هذا الوجود من أدناه الى أعلاه، ومن أقرب مظاهره إلى أبعد تخومه كله ظل واحد لموجد واحد، والقانون العام الذى يسير عليه هذا الوجود المحيط توجيه واحد من مدبر واحد. والوجهة التي يتولى شطرها غاية واحدة لصانع مختار واحد. أما المادة فهي مظهر من مظاهر هذا الوجود، واما الطبيعة فهي الطريقة المعينة لسير الوجود في المادة، وأما الحياة فهي مرقاة من مراقيه، واما الانسانية فهي النموذج الأعلى من نماذجه وأما كمال الانسانية فهو القمة من التطور فيه.

فالكون والطبيعة والحياة والانسانية مجموعة واحدة نشأت من معدن واحد عن علة واحدة وعلى طريقة واحدة. ونظم الكون والطبيعة والحياة والانسانية متشابكة لا تنفصل، وغاياتها متداخلة لا تفترق.

هذه فكرة الاسلام العامة عن التوحيد العام، واقرأ إن شئت هذه الآيات الكريمة: «هوالذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب، ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وماذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون، و هو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون. والقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وانهاراً وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات و بالنجم هم يهتدون»[1].

لا اطوّف بعيداً فأذكر أسراراً أومأت اليها الآيات ثم كشفها العلم بعد نزولها بقرون. ولكن مع الآيات في دلالتها الواضحة وفي مدلولاتها القريبة.

للانسان ولمنافعه ولحاجاته هيأ الله الكون الأعلى وما يظل وأعد الكون الأدنى وما يحمل. هذا ما تقوله الآيات الكريمة. للانسان ولمنافعه ولحاجاته التي تتطلبها حياته و يتطلبها بقاؤه، وتتطلبها سعادته وهناؤه، بل وكرامته في الدنيا وسيادته في الأرض. للترفيه على الانسان في شتى نواحيه كل هذا الإعداد وكل هذا الإرصاد. للانسان لينتفع به في حياته الاولى، وله لينتفع به في

١ ــ النحل: ١٠ ــ ١٦.

حياته الاخرى. ليستدل بها على صانعها وعلى وحدته وحكمته و وجوب طاعته.

وسواء أكان نفع البشرية غاية مقصودة من خلق الكون والطبيعة والحياة أم كان فائدة مترتبة على وجودها فان في ذلك دلالة عميقة على التعاون البالغ بين مظاهر الكون وأجزائه وعلى الاشتباك القوي بين قوانينه وغاياته.

وشد العلم ازر هذه الفكرة فأبرز وجوهاً من وحدة الكون، وابدى ضروباً من أسانيد هذه الوحدة ومعززاتها، وهو لا يفتأ يكتشف و يستدل ولا يخطئه الاكتشاف ولا التدليل.

فهذه الارض الكدرة وهذه الشمس المنيرة وهذه الكواكب السيارة وما يتبعها من اقمار وما تحتوي عليه من أجرام وأجسام كلها من اصل واحد. ولقد كانت في بدء امرها شيئاً واحداً. هكذا يقرر العلم التجريبي الحديث. وقد قال الله سبحانه في القرآن الكريم: «أوَلَم يرَ الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما»[1].

وشمسنا هذه التي نعيش على ظهر كوكب صغير من كواكبها مع ما في المجرة من ألوف ملايين الشموس أمثالها، ومجرتنا هذه التي تحتل الشمس والكواكب ناحية صغيرة منها مع ما في الفضاء من ملايين المجرات أشكالها، كل هذه العوالم الكثيرة المتباعدة في الامكنة متحدة في المادة متسقة في النظم، متفقة في الحركة[2].

١ ــ الانبياء: ٣٠.

٢ ــ يقول علم الفلك الحديث: إن أرضنا هذه التي نحيا ونعيش عليها يبلغ متوسط قطرها سبعة آلاف وتسعمئة وسبعة وعشرين ميلا، وتبلغ كتلتها خمسة آلاف مليون مليون مليون طن. وهي اعداد كبيرة بل وهائلة اذا قيست الى ما يألفه الانسان من مسافات و أوزان.

ولكن العلم يقول أيضا: وكتلة الأرض هذه التي قدرناها بهذا العدد الضخم لا تزيد على جزء واحد من ثلاث مئة واثنين وثلاثين الف جزء من كتلة الشمس!!. فهي اذن صغيرة جدا إذا قسناها بالشمس، وكذلك الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس. واكبر هذه الكواكب هو المشتري، وكتلته على ما يقولون اكبر من الأرض ثلاث مئة وسبع عشرة مرة. ولكنه على ضخامته لا يبلغ جزءاً من الف جزء من كتلة الشمس.

و يقول علم الفلك الحديث: إن أرضنا تبعد عن الشمس بثلاثة وتسعين مليون ميل، أي بنحو من ثماني دقائق يقطعها الضوء بسرعته العظيمة. وأبعد السيارات عن الشمس هو كوكب (بلوتو) وقد قدروا متوسط بعده بثلاثة آلاف وستمئة وسبعين مليون ميل، أي بنحو من خمس ساعات ونصف بسرعة الضوء وهي أبعاد شاسعة سحيقة لا عهد للانسان بمثلها.

ولكن العلم يقول أيضا: إن أقرب النجوم الينا لا يصل نوره الى الارض إلا بعد اربع سنين ضوئية!. و يقول كذلك: إن قطر مجرتنا يبلغ نحواً من مئة الف سنة ضوئية!!. فما يكون قدر مجموعتنا إذن وما قدر أبعادها وابعاد مداراتها اذا قيست بهذه المسافات الهائلة؟. أليست ــ كماقلنا ــ إنما تحتل بقعة صغيرة من هذه الحدود السحيقة؟.

ــ وكشف العلم أن مجرتنا تحتوي على مئة ألف من ملايين النجوم. من ملايين الشموس.

وأن بعض هذه النجوم يكبر شمسنا مئات المرات حجما و يفوقها مئات المرات بهاءً ولمعانا.

وكشف أن في هذا الفضاء الرحب ألوفا من ملايين المجرات تشتمل المجرة الواحدة منها على مايناهز هذه الاعداد نجوما، وتقول مؤلفة كتاب (مع النجوم في تطورها): «لعلها (وتعني المجرات) تبلغ مئات الملايين».

←

والحيـاة المـوجـودة على هـذا الـكوكب جزء من نظام الشمس، لأنها تأتلف من عناصرها وتغتذي من ثمراتها، وتتقوم بحرارتها وإشعاعاتها.

والحيـوان والنبات صنوان قريبان يمد أحدهما الآخر بما يعوزه من العناصر و يرفده بما يفتقر اليه من الحاجات، والطبيعة أمهما الرؤوم والأرض مهدهما الوثير ومعهدهما المربي وحصنهما المنيع.

ونـظـام الـبصر في عين الانسان واعداد طبقاتها وعدساتها وتحديد مجاري الضوء منها وتقدير منـافـذ الـصـورة، كل هذا امتداد لقانون الأشعة التي توجهها الشمس ويمتلئ بها الافق وتنتشر على كل مرئي وتنفذ الى كل منظور.

وذرة الـرمـل الـصـغـيـرة مـع المنظومة الشمسية الكبيرة شيء واحد فالمعدن فيها هو المعدن والطاقة هي الطاقة والنظام هو النظام.

وهذا الملكوت الواسع بمجراته الهائله وعوالمه الكبيرة الكثيرة وأجرامه الفخمة الضخمة وما لـهـا مـن تـوابـع وظلال و من أنظمة وحركات كله يذعن لقانون عام واحد يقيه التصادم ويمنعه عن التخلف والاضطراب و يدفع به الى التناسق والانسجام.

←

ووجـد أن الاقـمـار تـتـحـرك حول نفسها وحول كواكبها، ووجد أن الكواكب تتحرك حول نفسها وحول الشمس، وان الاقمار تتبعها كذلك في هذه الحركة.

ووجـد أن الـشـمـس تتحرك حول نفسها وتتحرك نحو (النسر الواقع)، وان المجموعة بكواكبها وأقمارها تتحرك بحركة الشمس في ذلك الاتجاه.

ووجد أن المجرة تتحرك حول نفسها كذلك وأن الشمس وتوابعها والبلايين من النجوم التي تملأ أكناف المجرة تتحرك أيضا بحركتها:!.

ثم وقف ليس يدري ما وراء ذلك. لعل حشدالمجرات هذا الذي رآه رأي عين يؤلف مجرة للمجرات؟!.

ولعل لهذا الحشد أمثالا كثيرة في الكون تبلغ الملايين او مئات الالوف من الملايين؟!

ولعل هذه الحشود ايضا تتحرك حول نفسها وحول شيء آخر؟!.

وقـف العلم ليس يدري، فان المرقب الذي تمكن من صنعه إلى الآن لم تتجاوز مرآته مئة بوصة أو مئتين. وما ندري ما سيثبته لنا إذا بلغت مرآته المئات أو الالوف من البوصات!!.

إن العلم يسير بانتظام، و يكشف ان كل ما في الكون يسير على نظام.

و يـقـفز العلم و يتقدم، و ينمو، ويمتد،و يطرد .تقدمه في كل وجه، و يطرد فوزه في كل تجربة. و يقف الانسان الكنود الجحود. الانسان الذي يزعم لنفسه الحصافة والذكاء مدهوشا مذهولا، يسبح بحمد العلم لأنه كشف عجيبا، ولا يسبح بحمد الله لأنه خلق عظيما!!.

يرى في الكشف ما يدل على عظمة الكاشف، ولا يجد في الخلق ما يستحق أن يدل على وجود الخالق!!.

مـئـات الـوف مـن مـلايين النجوم تسير في مداراتها العظيمة و بسرعتها المدهشة ثم لا يصطدم بعضها ببعض ولا يقترب بعضها من بعض. وألوف من ملايين المجرات تتحرك طوال الدهر ولا تهدأ حركتها ولا تخف سرعتها ثم لا يخرج شيء منها ولا من نجومها عن سبيله ولا ينفرط عن نظامه.

يرى الانسان ذلك كله ولا يشك فيه، ثم لا يدله هذا القانون على واضع ولا يرشده هذا التدبير الى مدبر!!.

انه افتئات على العقل وخروج على حكمه.

من صميم هذا القانون العام الواحد ينشعب قانون كل موجود، وكل جزء من كل كائن، وكل خلية من كل جزء وكل ذرة من كل خلية وكل نوية وجسيم من كل ذرة، والى الغاية الكبرى المحيطة ترد كل غاية جزئية لأي كائن جزئي.

وعلى هذه الفكرة الجامعة يجب أن تقوم فكرة الدين ونظرة الاجتماع وفلسفة الخلق ومنهج التربية ونظام الاقتصاد وقانون السياسة والحكم، وعلى هذا الأساس يجب أن ترتكز كل نظرة تبحث عن الانسان الفرد او الانسان الأمة، وكل تشريع يعد للانسان الفرد أو للانسان الأمة.

هذه فكرة الاسلام الجامعة عن التوحيد وهي التي أثبت العلم كل مقطع من مقاطعها، وأكد العقل كل منحى من مناحيها.

وفي ضوء هذه الفكرة فالبشرية جماعة واحدة ذات اتجاه واحد و يتحتم أن يظللها دين واحد، وأن تذعن كذلك لحكومة واحدة يرأسها إمام واحد.

والمسلمون أخوة أشقاء يصل بينهم نسب البشرية ولحمة العقيدة ورحم الدين، والمسلمون أولياء على تنفيذ هذه الخطة وتحقيق هذه الفكرة، يرشدون من يجهلها بالحسنى و يقوّمون من يزيغ عنها بالحجة ويخضعون من يكيد لها بالقوة.

أما من لا يشاء أن يقتنع ولا يحاول أن يكيد فهو وإن نشز عن الوحدة التي يفرضها الاسلام، وعن الفكرة الجامعة التي يحتمها قانون التكوين، إلا ان دين الاسلام يقرر له حرية المعتقد، وحرية العبادة، وحرية العمل، وحرية المعاملة، والمساواة الكاملة أمام العدل، والكرامة الموفورة في الحياة. وله على حكومة الاسلام أن تصون له هذه الحقوق، وأن تفي له بهذه الضمانات.

يقرر الاسلام له هذه الحقوق و يضمن له هذه الحريات و ينجز له هذه الضمانات مادام لا يريد به كيداً ولا يقف له في وجه.

ما دام لا يريد كيداً بالاسلام بما هو دين، ولا يبدي له خلافاً بما هو دولة ولا يتربص به الدوائر بما هو وحدة، ولا يبتغي الفتنة بأهله ولا الصد عن سبيله فهذه جهات لا يتسامح فيها الاسلام، و يتناقض مع نفسه لو تسامح فيها.

* * *

وعقيدة التوحيد عميقة الأثر ضاربة الجذور في خلق المسلم وفي بناء شخصيته وتقويم طباعه وتزكية أعماله.

فهي تطوي جميع آماله في أمل، وتوحد كل صلاته في صلة، وتؤلف عامة أهدافه في هدف، فآمال المسلم الحق وروابطه وغاياته كلها محصورة في الله ربه الذي يخلص له في السر و يعبده في العلانية و يدعوه لكل نازلة و يلجأ اليه عند كل مهمة، في الله الذي بيده مساك الموت والحياة، و بتدبيره ملاك القبض والبسط، و بأمره تقدير النفع والضر. في الله الذي يأمله الآمل فلا يخيب و يلجأ اليه اللاجئ فلا يذل، و يتوجه اليه القاصد فلا يشقى.

تتوحد آمال المسلم كلها في أمل، وتنطوي صلاته بأجمعها في صلة، وتندمج غاياته بأسرها في غاية، ثم يشع أمله ذلك الواحد على كل أمل له في الحياة فيزدهر، وتمد صلته تلك كل صلة له في الدنيا فنزكو وتتصل غايته بكل غاية له في الكون فتعظم.

يوقن المسلم بان لله وحده هو المعبود الحق، وان بيده وحده مقاليد الأمور، وإليه وحده مصائر الاشياء فهو الآله الذي لا يُعبد غيره، والرب الذي لا يملك التقدير سواه. وهو الملك الفرد فلا ترجى إلا رحمته، ولا تخشى إلا نقمته. ولذلك فالمسلم لا يضرع ولا يتصنع لكائن سوى الله ولا يستعين ولا يرجو موجوداً غيره، ولا يحابي ولا يتملق ولا ينافق ولايرائي.

ولِمَ يفعل ذلك وهو يعلم أن من سوى الله عبد خاضع لن يملك لنفسه نفعاً، ولن يدفع عنها ضراً، عبد خاشع رضي العبودية أم أباها؟ فالمسلم رفيع النفس، عزيزالجانب، خفيف المؤونة، صريح الكلمة.

و يوقن المسلم بأن كل ما في الكون من القوى وكل ما بيد المخلوقين كافة من الحول فهو في قبضة الله وتحت سلطانه، ينفذ فيه حكمه وتتصرف فيه إرادته. والله مقدر الآجال ومسبب الأسباب، ثم لن تستطيع أية قوة في العالم نقض ما ابرم أو تأخير ما قدم. ولذلك فالمسلم لا يرهب إلا الله. ولا يحذر إلا بطشه ولا يخشى إلا غضبه.

وكيف يخاف أحداً غير الله وهو يعلم أنه ضعيف الحول إلا حين ينتصر بالله، واهن الكيد إلا حين يستعين به، معدوم القوة إلا حين يلتجئ اليه؟ فالمسلم ثابت العزيمة قوي النفس بعيد الهمة.

و يوقن المسلم بان كل ماني السماوات وما في الأرض من متحرك وساكن، ومن صغير و كبير، ومن حي وجامد، وكل ما بيد الانسان من مال وثروة وما يعتزّ به من مجد وسطوة فهو ملك خالص لله الغني الذي لامنتهى لغناه، الوهاب الذي لاحصر لجوده، القادر الذي لاحد لسلطانه ولا أمد لقدرته، ولذلك فالمسلم لايزدهي بثروة ولا يستطيل بقوة ولا يحسد على نعمة، ولا ييأس من رحمة، ثم هو لا يظلم ولا يحيف ولا يتكبر.

ولِمَ يصنع ذلك وهو يعلم أن كل ما في يده أو في يدغيره فهو لله الجواد الذي لايبخل، العدل الذي لا يظلم، العزيز الذي يهب النعمة أنى شاء بقدرته، و يسلبها أنى شاء بحكمته؟ فالمسلم عف الضمير، نقي السر، طاهر العلانية، موصول الأمل بالله شديد الثقة بتدبيره.

وهذه الدرجة من التوكل لن تقعد بالمسلم عن خوض غمار الحياة، ولن تقصر به في شيء من مجالاتها. فقد ألهمته الفطرة السليمة أن لكل أمر مدخلا، وقد لقنه الاسلام أن لكل شيء سبباً، ولا عذر له من أن يلتمس رزق الله من سبله التي يسرها ومن موارده التي قدرها، ولكن المسلم من اجل هذا اليقين الذي يفعم قلبه ويملأ جوانحه هادئ النفس حين يعمل، قوي الطمأنينة حين يكسب، ثابت الجنان حين يخفق، متزن المشاعر والاعمال حين يستغني وحين يفتقر

وهو من أجل هذا اليقين الذي يفعم قلبه ويملأ جوانحه معافى من العقدالتي تحشو نفوس الآخرين والاضطرابات التي تظلم آفاقهم وتسعر حياتهم.

والمسلم يرجو من كسبه سد العوز في دنياه ونيل المثوبة في آخرته فقد علم من بدائه دينه أن الكسب الحلال الطيب قربة كبيرة يتعبد بفعلها الى ربه، و يتطلب بها رضاه و يبتغي بها الزلفة لديه. فهو يسعى في الحياة بأملين و يكدح بحافزين، ولذلك فهو أقوى جلداً وأرهف عزيمة وادنى الى الفلاح وارجى للغاية من الكادحين الآخرين.

والمسلم يعلم ان في الفقر مهانة لا تتفق وعز الاسلام، وضعة لا تنسجم والكرامة التي يبتغيها للمسلم، وضعفاً لا يقوم للوظائف التي ينيطها به، فهو يكافح هذا الخصم ما وجد الى كفاحه سبيلا. وهو كذلك يتقرب الى الله بمناجزته و يستمد منه العون عليها و يتبع هداه في خوض غمارها.

و يوقن المسلم بأن الله مطلع فلا تخفى عليه خاطرة نفس، عليم فلا تغيب عنه خالجة قلب، محيط فلايضل عنه مثقال حبة ولا مقدار ذرة، ثم هو حاكم لا يجوز عدله ظلم، جبار لا يقوم لغضبه شيء، قاهر لا يفوت قدرته حي، ولذلك فالمسلم لا يعصي الله في سر ولا يتعرض لمقته في علانية، ولا يتباطأ عن حق ولا يتسامح في حد.

وأنى يجرؤ على شيء من ذلك وهو يعلم أن الله شديد الأخذ على الجريمة، أليم البطش على انتهاك الحدود، فالمسلم مأمون العثار صادق اللهجة زكي الروح، محمود السلوك .

و يوقن المسلم بأن الله الذي فرض عليه الايمان وحببه اليه وزينه في قلبه قد ربط بينه و بين سائر المؤمنين بالأخوة، وسوّى بينه و بين عامة البشر في الحقوق وأوجب عليه النصرة لكل مسلم إذا ظلم، وفرض عليه النصيحة لكل بشر اذا جهل والهداية لكل جاهل إذا ضل. ولذلك فالمسلم نزيه الطوية عن الحقد رفيع الهمة عن الخداع مجبول الطبيعة على الاحسان. والمسلم عون الله للضعيف، ودعوة الله الى الخير، وقيّم الله على إقامة الحق وافشاء العدل وانارة السبيل وايضاح الدليل.

و يوقن المسلم بأنه حين يؤمن بالله ويحكم صلته به وحين يمتلئ بهذا الايمان عقله ونفسه وقلبه وجوارحه فانما يصل عقله ونفسه وقلبه وجوارحه بالقوة التي لن تضعف، و بالعظمة التي لن ترام والعزة التي لن تضام، والقدرة التي لن يمتنع منها شيء و بالنور الذي لن يطفأ، والعلم الذي لن يجهل. ولذلك فالمسلم لا يعرف الجبن في موقف ولا يناله الخوف من حادث ولا يدركه الصغار في مقام، ولا يقيم على ضيم ولا يخلد الى مهانة، والمسلم مشرق الروح نير العقل والقلب، يستمد صنوف كماله من أعماق نفسه. من صلته الوثقى التي ملأت آفاقه وملأت حياته. من هذا السلك الذي يشده بمصدر كل كمال و ينبوع كل خير وجمال. من صلته العظمى بربه.

كذا تنفذ أشعة التوحيد في أعماق الفرد المسلم وتضيء آفاقه وتوقظ ضميره وتبني

شخصيته، وتوجه إرادته ومشاعره وتحكم أشواقه ورغباته. فلا يعتر ولا يتردد، ولا ينكب عن سبيل الهدى ولا ينكفئ دون الغاية، ولا يتهرب من واقع، ولا يلتوي في قصد.

ثم تنفذ في أعماق المجتمع المسلم وتطهر صلاته وتضبط حدوده، فلابخس لحق ولا خسر لميزان ولا أثرة ولا تحاسد ولا تباغي ولا نفاق ولا مداهنة، ولا إغضاء على ظلم، ولا حيف في حكم ولا استبداد من راع ولا التواء من رعية.

ان الاسلام بشرائعه ومعارفه وهداياته و آدابه و مفصلات نظمه و مبسطات مناهجه يتجمع و ينطوي وتتداخل حدوده، وتندمج تعاليمه، حتى يكوّن وحدة لا تعدد فيها من وجه، هي عقيدة التوحيد التي يدين بها المسلم لبارئه، ويخضع من أجلها لقوله.

فالاسلام هو التوحيد مجلو القسمات مبين الظلال والسمات.

وهذه هي الحقيقة الرائعة التي قررها داعية الاسلام الأول لما قال كلمته الاولى: «قولوا لا آله إلا الله تفلحوا». لما ضمن للناس الفلاح أن يقولوا هذه الكلمة و يؤمنوا بهذه العقيدة.

* * *

أما تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله من الصفات، وتقديسه عما ينافي حكمته من الأفعال.

أما هذه العقيدة فهي من شعب التوحيد الخالص والغنى الذاتي المطلق.

فما كان للعقل المستنير أن يؤمن بأن الله وحده واهب كل كمال في هذا الوجود ومصدر كل غنى ومؤتي كل رحمة، ثم يرتاب بعد ذلك أو يزعم أن هذا الوهاب ليس جامعاً لصنوف الكمال، او ليس متفرداً بضروب الغنى. ما كان للعقل أن يقول بهذا بعد أن آمن بذلك فان من بدائه الأشياء أن من لا يملك شيئاً لا يعطيه.

وما كان للعقل المستنير أن يعترف بان الله وحده واهب الكمال لكل كامل ومانح الرفعة لكل رفيع ومؤتي العظمة لكل عظيم، ثم يبتغي بعد ذلك أن يجد لله شبيهاً من خلقه و مضارعاً له في نعوته. ما كان للعقل ان يبتغي هذا بعد أن اعترف بذلك فما شباهة مفتقر في وجوده محدود في كماله بغني غير متناه ولا محدود؟

و ما كان للعقل المستنير أن يقول: بارئ الكون مستغن بذاته عن كل شيء، ثم يقول بعد ذلك، له صفات هي غير ذاته يستجمع بها ضروب الكمال. ما كان للعقل ان يقول بهذا متى أيقن بذلك لأنه تناقض صريح سواء أكانت الصفات التي يعنيها قديمة أم حادثة، وسواء أكانت واجبة أم ممكنة، مادامت زائدة على ذاته. (على حد تعبير علماء الكلام) ومادامت تعني أن الذات استكملت بها من نقص وأفادت بها من عدم.

وما كان للعقل المستنير أن يقول: واجب الوجود واحد يستحيل عليه أن يتعدد، أحد يمتنع عليه أن يتركب. ثم يقول : ولبارئ الكون صفات غير ذاته هي كذلك واجبة الوجود. ما كان للعقل أن يقول بهذا متى اعتراف بذلك. فانّ وحدة واجب الوجود تمنع أن يكون متعدداً، و بساطته

تحيل أن يكون مركباً. أما اذا ادعى أن الصفات ممكنه فانه يكون أشد إحالة واوضح منعاً.

وما كان للعقل المستنير أن يقول: مبدع العالم حكيم لامنتهى لحكمته وغني لاحد لغناه، ثم يقول: وهو الذي يقتاد العباد الى عمل الطاعة إذ يطيعون، و يقتسرهم على ارتكاب المعصية اذ يعصون. يفعل ذلك بهم ثم يأخذهم بتبعات اعمالهم و ينزل بهم العقوبات على مخالفاتهم. ما كان للعقل أن يقول بهذا متى أقر بذاك لأنه تناقض بيّن.

والبحث عن حقائق صفات الله سبحانه كالبحث عن كنه ذاته كلاهما مما يستعصي على العقل أن يخوض فيه، فإن للعقل آفاقا محدودة من المعرفة ليس في طوقه أن يجوزها، ولمعرفته وسائل معينة ليس في مكنته أن يتعداها.

ولن تزال أمام الانسان اعداد هائلة من المحسوسات لم يستكنه حقائقها بعد ولعله لن يستطيع ذلك ابداً.

ما حقيقة هذه الحياة التي ينعم بها الأحياء؟.

وما كنه هذا الوجود الذي تستبين به الأشياء؟.

بل وماجوهر هذا العقل الذي يطمع ان يكتشف؟.

وما هذه النفس التي ترغب [في] أن تكتمل؟.

هذه امور قريبة قريبة جداً من الانسان إلا انها بعيدة بعيدة جداً عن ادراكه فكلها ألغاز لم يكتشفها العقل بعد و لعله لن يستطيع كشفها ابداً.

وإذا اعيى على العقل ان يستجلي هذه الحقائق ــ على انها قريبة منه بل و مندمجة في حدوده فكيف يطمع ان يدرك حقيقة واجب الوجود او ان يحيط بكنه صفاته؟

انها محاولة مستحيلة ما في ذلك شك.

ولكننا اذا أحلنا هذا على العقل الانساني لأنه لا يملك الوسائل التي تبلغه اليه، أفنحيل عليه كذلك ان يدرك ان الواحد لا يمكن ان يكون متعدداً، وأن البسيط لايسوغ ان يكون مركباً، وأن الكامل لايجوز ان يكون ناقصاً، وان الاله الحكيم العادل لا يعقل ان يكون ظالماً؟. أنحيل عليه ان يدرك ان الموجود اذا وجبت له صفة معينة امتنع عليه ان يتصف بضدها؟.

ان هذه أمور تدخل في حدود البداهة فليست تخفى على عقل ولايسعه أن يرتاب في واحد منها، وهي بذاتها عين النتائج التي تحدثنا عنها.

بارئ الكون غني بذاته عن كل شيء، ولا حد ولا أمد لغناه، فكل ما يغمر جهات العوالم من خير و بركة، وما يملأ رحاب الآفاق من عناصر وقوى، وما يزخر به واسع الفضاء من أفلاك وأجرام، ومايزحم مناكب الأرض من حي وجامد، وما يسد فروجها من معادن وخزائن فهو فيض من غناه و بسط من جوده، ثم لو قدرنا الفناء على جميع هذه المكونات لم ينقص من غناه مثقال ذرة، ولو أضيف اليها أضعافها وأضعافها لم يزد ذلك في ملكوته قيد شعرة: «يا أيها الناس انتم

الفقراء الى الله، والله هو الغني الحميد إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد، وماذلك على الله بعزيز»[1] أجل. كل مايزخر به هذا الملكوت العظيم فهو في قبضته، وفناؤه و بقاؤه بمشيئته، فهل هذا هو معنى غناه الذاتي؟

قديكون هذا مظهراً من مظاهر الغنى الالهي، ولكنه لا يصلح أن يكون تفسيراً له.

و بــارئ الكون يمنح الوجود والحياة، والقوة والسعة، والكمال والدعة، والرفعة والسيادة، والهناء والغبطة، وما يصبو اليه الانسان في وجوده وما يتطلبه لبقائه ومايكدح للسيطرة عليه لسعادته، وما يفتقر اليه غير الانسان من الاحياء والاشياء، لا لنفع يرتجعه من هذه المنح، ولا لجزاء يأمله كفاء هذه الهبات، وانما هو محض الاحسان وسجية التفضل، وهو يفرض على الخلق أن يؤمنوا به و يكلفهم بأن يطيعوه و يلزمهم بأن يتبعوا دينه و يستمسكوا بشريعته لا لمنزلة يرجوها من إيمانهم، ولا لرغبة يبلغها في عبادتهم، وإنما هي دلالة لهم على وظيفة العبودية وأخذ بأيديهم الى منهج السعادة، ثم لو كفر هؤلاء العبيد كلهم بنعمته وجحدوا بربوبيته لم تتضع بذلك له منزلة ولم يتخلخل له سلطان «إن تكفروا فان الله غني عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم»[2]. فهل هذا هو معنى غناه الذاتي؟

قد يكون هذا مظهراً من مظاهر الغنى الالهي، ولكنه لا يصلح أن يكون تفسيراً له.

بارئ الكون غني في وجوده وفي كل نعت من نعوت كماله عن العلة، وغني في صنعه وفي كل مجلى من مجالي قدرته عن الظهير، وغني في تدبيره وفي كل ظاهرة من ظواهر حكمته عن المشير، ثم هو متنزه في ذاته وفي كل شأن من شؤون عظمته عن الحاجة، ومترفع في غناه وفي كل معنى من معاني جلاله عن التحديد.

وإذا تنزه عن الافتقار والحد والتعليل في كل معنى من معاني الكمال فهو عن العبث والظلم أشد تنزهاً و أعظم تعالياً.

هذا هو المعنى الظاهر للغنى الالهي أوهو اللازم القريب من لوازمه.

فاذا أيقن المسلم لربه بهذا الغنى و اذا آمن له بهذا التنزيه، فهل يستطيع أن يؤمن أيضاً بانه يستكمل بصفة أو يتمدح بعبث أو يستطيل بظلم؟.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وتعالى المسلم أن يدين لربه بهذه العقيدة.

وتعالت عقيدة التوحيد في الاسلام عن مثل هذا الاسفاف وهذا الالتواء.

* * *

وفكرة الجبر نكسة عقلية ركبها الانسان ليحمل عليها أوزاره و يبرر بها إسفافه، ثم حمل

١ ـــ فاطر: ١٥ ـــ ١٧.
٢ ـــ الزمر: ٧.

العقل عليها حملا، وكلفه بقبولها تكليفاً، وقد كان الفكر سخيفاً جداً لما حاول أن يضيفها الى جدول أعماله.

وتمادت النكسة بالانسان واستبد به الوهم ففسر بالفكرة آيات من الكتاب.. من القرآن!. وأوّل بها أحاديث من السنة... من سنة الرسول!. ووضعها في قائمة العقائد.. عقائد الاسلام. وضمها الى بحوث التوحيد، وجعلها من توابع عموم القدرة!!.

صنع المرء كل هذا ليرتكب ثم لايلق حسيباً من الناس على ارتكابه، وقد تم له العمل ونجحت بيديه الخدعة حتى على الضمير الادبي ذاته، فلم يعد ينصح ولم يعد يؤنب!!.

على م يؤاخذ المرء اذا كان مسيّراً في ما يعمل، مقسوراً على ما يأتي وما يذر؟.

لا.. ليس على المرء من حرج في ما يكسبه من أعمال... انما اللوم على الاقدار، اذا لم يكن بد من اللوم..

على الأقدار الغالبة فهي التي شاءت أن يكون الذي كان..

وما شاءت لاحيلة لأحد منه ولا قبل لأحد بتغييره.

وماعلى السيف الصارم من ملامة اذا أعمله فاتك في ظلم أو مؤمن في جهاد؟

ليس على الانسان من حرج في ما يفعل وما يدع، انما هي أعمال القدرة المقدرة المسيرة.

أما عقاب ذلك الانسان على ما وقع له من الاعمال فهو لله..

لله الفعال لما يشاء.

وما على الله سبحانه من غضاضة في أن يعاقب المجرم، وإن يك مجبوراً في عصيانه..

نعم وإن كان القاسر له على عمل المعصية هو الله..

لأن الله نافذ الارادة لايسأل عما يفعل!!.

بل وما على الله من ضير، وما في عمله من قبح إذا شاء أن يعذب المطيع و يثيب العاصي. إذا شاء أن يعذب ذلك وإن يك أسبق من أطاعه. و يثيب هذا وإن يك أعتى من تمرد عليه.. يعذب ذلك على إطاعته... نعم و يثيب هذا على عصيانه.

إنهما عبدان مملوكان خاضعان، وكل ما ينزله بهما سيدهما فهو حق، وكل ما يصنعه لهما فهو عدل ولاخيرة لأحد معه ولا أمر.

أما العقل فما شأنه وذلك؟

ما شأنه والتدخل في شؤون الله والحكم عليه في أعماله؟.

أيجرؤ إنسان أو عقل إنسان أن يحكم بوجوب شيء على الله او بامتناعه عليه؟.

إن الحسن والقبح مردّهما لله وحده. فما أراده سبحانه فهو الحسن، وما مقته فهو القبيح، وليس للعقل أن يحكم فيهما بشيء!!

منكرات من العمل تبررها منكرات من القول، ونكسة في ا الروح تجر الى نكسة في

التفكير، وسقطة في السلوك تؤدي الى سقطة في العقيدة. ظلمات بعضها فوق بعض، اذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

والله سبحانه يبرأ من عقيدة الجبر في صريح كتابه فالكفر والايمان مردهما الى مشيئة الانسان ذاته، ولا اثر فيهما لجبر أو اضطرار: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر»[1].

والله عادل قائم بالقسط في الدنيا والآخرة، لا يحيف في قضاء، ولا يجور في جزاء وهو متفضل على عباده يقبل اليسير و يثيب عليه بالاجر الكبير: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وان تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه اجراً عظيماً»[2].

و يوم الجزاء يوفى كل عامل من الناس ما كسبت يداه، فلا يظلم في حساب، ولا يبخس في أجر: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وان كان مثقال حبة من خردل أتينابها وكفى بنا حاسبين»[3].

والذين يتعلقون بالمقادير يلقون عليها تبعاتهم، و يبررون بها سقطاتهم إنما يخلقون إفكا و يستمسكون بوهم: (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون»[4]

الله لا يرضى لعباده الكفر في العقيدة، ولا يأمر بالفحشاء من الفعل، ولا يحب الجهر بالسوء من القول. والله حكيم عليم لا ينقض ما يقول بما يعمل، فلماذا يحاول الانسان الظلوم الكنود أن يرمي أثقاله على المقادير و يلتمس بها المعاذير؟

ومن الغريب أن القائل بمبدأ الجبر لا يعترف به في خصومات الناس معه، وتجاوزهم على حقوقه، ولا يجنح اليه في تعليل أعمالهم، ولا يميل اليه في توجيه عدوانهم.

بل و يتنكر لمن يعتذر عنهم بالقدر، ويهزأ برأيه، و يسخر من قوله!!

ولا يعترف به في ذنوب خدمه و مرؤوسيه. ولا يعلل به مخالفاتهم ولا يراه عذراً لأخطائهم، ولو اعتذر به أحدهم لأوسعه تأنيباً!!. وإنما يتعلق به في تهوين خطاياه وتبرير آثامه، وفي محاولة التخلص من تبعاتها وجرائرها!!. في تعدي حدود ربه وانتهاك محارمه والزيغ عن هداه، في هذا فقط يعترف بالقدر و يقول بالجبر.

وفي القرآن الكريم ان الجبر فكرة تلقفها الانسان منذ القديم فاحتج بها مشركون على شركهم واعتذر بها أفاكون عن إفكهم: «وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من

١ ــ الكهف: ٢٩.
٢ ــ النساء: ٤٠.
٣ ــ الانبياء: ٤٧.
٤ ــ الاعراف: ٢٨.

شيء نحن ولا آباؤنا، ولا حرمنا من دونه من شيء، كذلك فعل الذين من قبلهم، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين»[1] وفي آية كريمة اخرى: «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون إلا الظن وان انتم إلا تخرصون»[2].

وفي القرآن الكريم ان أول متهم للعدل الالّهي بالحيف هو ابليس الرجيم، فقد عصى أمر الله بالسجود لآدم واحتج لهذه المخالفة بأن الله خلقه من نار وليس من الحق أن تخضع النار للطين.

كبر على المرء أن يقر على نفسه بالظلم فاستساغ أن ينسب الظلم الى الله، وعظم عليه أن يحكم عليها بالعبث فقال: العبث في المقادير، ومن الغريب بعد هذا كله أن يعد الجبر عقيدة من عقائد الدين، ودعامة من دعائم الايمان، يدين بها لخالقه و يفسر بها عموم قدرته.

يقول: الله عام القدرة على كل شيء، نافذ المشيئة في كل كائن.

فلا يسوغ أن يكون الانسان مختاراً في أعماله، لأنه لو كان مختاراً في إصدار عمل لأصبح شريكا لله في الايجاد!!

أسمعت...؟

هكذا يحتجون...

ولماذا يكون الانسان شريكا لله في الايجاد اذا كان مختاراً في العمل؟.

ألأنه صار سبباً في وجود الشيء؟ اذن فلماذا لا تكون الأسباب الطبيعية شريكة لله في الايجاد كذلك؟

أفينكرون سببيتها لوجود الشيء؟

فقد سماها الله في القرآن اسباباً، وهي بعد ليست موضعاً للتشكيك.

أم يستسهلون الامر فيها لأنها غير مختارة؟

الله قادر. وعام القدرة على كل شيء، ولا جدال في ذلك من مسلم.

ولكنه الى جانب قدرته العامة عادل بلا حيف وعام العدل في كل تقدير وحكيم بلا عبث وعام الحكمة في كل صنع وليس معنى عموم قدرته ونفوذ مشيئته ان نعرّي إرادته عن الحكمة او نتهمها بالظلم او نسمها بالجهل.

أما المعادلة بين هذه الصفات الكريمة فستؤدي بالبداهة الى انه: «ولا جبر ولا تفويض، ولكن منزلة بين منزلتين» كمايقول الامام جعفر بن محمد الصادق (ع).

فقد شاءت الحكمة أن تجهز هذا الكائن برغبات تثيرها خصائص العمل، و بعقل يوازن به

١ ــ النحل: ٣٥.

٢ ــ الانعام: ١٤٨.

بين الرغبات، و بارادة يصمم بها على الرغبة المختارة، و بقوى عاملة يحقق بها الفعل المراد، و بدين يصون الرغبة والعقل والارادة والقوى العاملة أن يشذ شيء منها عن القصد وأن يزيغ عن الهدى.

فالمرء يفعل ما يفعل و يترك ما يترك مختاراً في فعله وتركه، مختاراً في رغبته وتصميمه، مختاراً في موازنته وترجيحه، ولا قسر عليه في شيء من ذلك.

أما إمداده بالركائز التي يطمح بها و يرغب، و بالقوة التي يصمم بها ويختار، و بالعقل الذي يزن به و يقارن، و بالضمير الذي يسترشد به و يرتدع و بالدين الذى يصلح به و يستقيم، اما تزويده بأجهزة الاختيار القريب منها والبعيد، و بأدوات التصميم الاولى منها والاخيرة، ثم ابقاء هذه الاجهزة وهذه الادوات مضمونة التأثير الى فرصة الاختيار موفورة الاعداد الى حين التصميم نافذة الفعل الى وقت العمل. أما جميع هذا فهو من الله... من الله وحده.

* * *

قد يطبق مغفل عينيه ثم يعتقد انه اعمى، لأنه لا يشهد النور.

وقد يسد أذنيه ثم يستيقن انه أصم، لأنه لا يسمع القول.

نعم وقد يتخيل مصاب (بالهستيريا) أنه تحول (مركبة) معدة للنقل، او حماراً مهيأً للركوب والحمل، وقديماً جيء الى الشيخ ابن سينا برجل يدّعي انه انقلب بقرة، والى طبيب آخر برجل يزعم انه يلد فيراناً.

أما أن يعمد انسان يعترف الناس له بالعقل و يدعي هو لنفسه العلم فيعمل عملا بملء شعوره وملء رغبته وملء ارادته، ثم يفكر بعد ذلك و يطيل التفكير: أهو مختار في عمله ذلك أم هو مجبور؟!.

اما ان يدير المفتاح بكفه عامداً فيفتح الباب، ثم يتساءل جاداً: أيّ الآلتين اشد اقتساراً، المفتاح لما استدار بكفه ام هو لما ادار المفتاح؟! اما هذا النمط من التفكير فهو خروج عن مألوف العقل، وانكار لأوليات الفطرة، ثم هو تشويه لوجه الحق وتيسير لارتكاب الرذيلة. وأية قوة في العالم تستطيع ان تقف في وجه المرء متى اعتقد أنه مقسور على ما يعمل مجبور على ما يترك ؟. أية قوة تملك ان تقف في وجهه اذا اعتقد ان الخير والشر عند الله سواء بسواء، كلاهما مجبور عليه من الله. وكلاهما مجهول الجزاء لديه.. يثيبه عليهما اذا شاء و يعاقبه عليهما إذا أحب...؟

يثيبه عليهما كليهما اذا شاء حتى على فعل الشر، و يعاقبه عليهما كليهما إذا اراد حتى على عمل الخير!.

لا... ليس في الدنيا كلها قوة تطيق أن تردع الانسان عن غيه اذا هو اعتقد ذلك.

والدين وقوانين الخلق. وشرائع التربية. وانظمة المجتمعات. أية جدوى من هذه كلها للانسان اذا كان آلة صماء بكماء لا تعمل إلا بِقاسر ولا تتحرك دون محرك ؟.

وَأيُّ حكمة في اوامر الله ونواهيه وهو يشرع ما لا يستطاع و يأمر بما لا يمتثل؟ ان الدين في

طبيعته دربة وامتحان.

دربة للعقل على التفكير السليم ودربة للارادة على العمل الرضي ودربة للنفس على الصفات الفضلى. وامتحان لها كافة فيما يلقيه عليها من دروس، وما يلقنها اياه من هداية. وكيف يتلقى المرء هذه الدربة، وكيف يجوز هذا الامتحان اذا كان أشل الارادة أجب الاختيار؟!.

وانظمة الاخلاق وقوانين الاجتماع ومواضعات العرف وتشريعات الأمم انما هي حوافز للمرء على التوجه الى الخير الاعلى من وجهة، وزواجر لارادته عن الاندفاعات المردية من وجهة اخرى. و بيّن ان هذه النتائج لن تكون ممكنة الا حيث يكون الانسان حراً في الرغبة حراً في التصميم.

غريب أن يتساءل امرؤ أهو مختار في فعله ام مجبور؟ لأنه يتغاضى بذلك عن بديهة و يرتاب في محسوس، واشد غرابة من ذلك أن يلتمس دليلا على اختياره اذا قيل له انك مختار، و يتكلف اقامة الحجة على جبره اذا اعتقد انه مجبور، اليس الاثبات والنفي والجرح والتعديل والقبول والرد انواعا من عمل الانسان تقتضي تصميا وتقتضي ترجيحاً وتقتضي هدماً و بناءً؟ وكيف يملك أن يستقل فيها اذا لم يكن مستقلا في الارادة مختاراً في الافعال؟!.

الحق ان الانسان ينسى حديث الجبر وهو يقيم الادلة لاثبات مبدأ الجبر و يعترف بالاختيار وهو يوصد باب الاختيار، والحق ان فكرة الجبر لا تستطيع ان تقف على قدم مهما نضّرها الخيال من صورة، ومهما زوّق لها البيان من صيغة، ومهما ابتكر لها الانسان من فلسفة، والحق ان مذهب الجبروهم سخيف المعنى ضعيف المبنى وان اتخذه بعض متصوفة الاسلام عقيدة ثابتة وعده بعض متكلمة الاسلام مشكلة عويصة.

والحق ان شريعة الجبر توجب سد كل معرفة و بطلان كل عقيدة وهدم كل ثقافة، ذلك ان المعارف والعقائد والثقافات على تنوعها تستدعي استقلالا في العقل يملك به المرء أن يوازن، وحرية في الارادة يستطيع بسببها أن يختار، واذا ثبت مبدأ الجبر فان ذلك جميعه ليس بمستطاع.

وأثر هذه الفكرة شديد في اضعاف ارادة المرء، ودك شخصيته وهدم معنوياته، وأي عمل حازم يؤمل صدوره من فرد هذه عقيدته؟ وأي تقدم في ميادين الحياة يرجى لمجتمع هذه خطة أفراده؟.

* * *

وحاول الانسان الحديث أن يثبت الجبر من طريق العلم!!.

حاول ذلك ليفلت من قيود الخلق ومن قيود الدين!!.

ليكون حراً طليقاً يختار ما يشتهي و يأتي ما يختار؟!.

قال بالجبر من طريق العلم، وسماها بالجبرية الذاتية ليفرق بينها و بين الجبرية الالهية، لأن الجبر في رأيه هذا آت من عامل ذاتي قائم في اعماق الانسان، وليس مسبباً عن ارادة جبارة خارجة عنه مسيطرة عليه.

قال بالوراثة، ومعنى الوراثة عنده أن أسلاف الانسان ــ والحيوان منها بالطبع ــ تخطط له مصيره ومستقبله، وترسم له مناهجه في حياته واتجاهاته في سلوكه، وتقدر له كل صفة من صفاته في كل منحى من مناحيه، في جسمه ونفسه، وعقله وخلقه. وتنشئ طباعه وغرائزه وقواه وعواطفه وميوله ونزعاته وانفعالا ته وتوجه كل شيء منه وجهته التي تقتضيها ثم لا تستطيع أية وسيلة من وسائل التربية الاخرى له صرفا، ولا تملك له تغييراً.

ان الشخص يرث من اسلافه سواد البشرة أو بياضها، وطول القامة أو قصرها، وكبر حجم الرأس أو صغره، واستطالة شكله او استدارته، وزرقة العينين او سوادهما، ولون الشعر وتقاطيع الوجه واشكال الاعضاء، ولا حيلة له ولالأحد سواه في استبدال شيء من ذلك ولا في تحويره ولا قدرة للبيئة ولا للعوامل الأخرى على صرف ذلك الانسان الى وجه غير ذلك الوجه، وايتائه صفة غير تلك الصفة.

و يرث من أسلافه قوة في بعض حواسه، ومتانة في تركيب جسمه، وحصانة فيه عن بعض الادواء واستعداداً لقبول بعضها و يرث من احدهم شذوداً في طبع، وتشوهاً في طرف، وزيادة ونقصاً في عضو ولا خيرة له في قبول ذلك ورفضه، ولا تجديه عناية مربٍّ ولا توجيه مرشد.

وكذلك يرث خصائص في تلافيف مخه وتكوين عصبه وتراكيب انسجته، وجزيئات دمه، وافرازات غدده، تحدد ذكاءه وتكييف إحساسه وتنشئ مواهبه وتوجه إرادته في سلوكه وتخلق صفاته وملكاته. ولا ينتظر ان تكون له او لأحد سواه يد في ذلك ولا طاقة على تهذيبه، ولا سلطان على النقص منه أو الزيادة فيه.

هكذا يفسر هو معنى الوراثة، ويهوّل أمرها و يبعد بحدودها، ويحملها اعباء كبيرة تضيق بها وتضعف عنها. و يدعي أن العلم يضع لها هذا التفسير و يقيم لها هذه الحدود ويحملها هذه الاعباء؟!.

وهذه نتيجة لا يذهب اليها عالم طبيعي وهو يعني ما يقول.

لا يقولها عالم درس أسرار الطبيعة وسبر قوانينها وخبر طرائقها.

ان الانسان كائن له إرادة، وإرادته لا تتوجه إلا بعد شعور وموازنة وترجيح وتصميم، وليس من خلق الطبيعة أن تؤتيه هذا الجهاز الكامل وهو غير مضطر اليه، و بالأحرى وهو غير قادر على إعماله، فقد قالوا: إن حاجة الكائن هي التي تلد فيه العضو أو الجهاز الذي يبلغ به تلك الحاجة، وقالوا: إذا بطلت الحاجة الى جزء من أجزاء الكائن أعدمت الطبيعة منه ذلك الجزء، ومعنى ذلك أن الطبيعة حكيمة مقتصدة لا تؤتي الكائن من الاعضاء والاجزاء الا مايوائم به بيئته و يدرك به ضرورته.

وقوانين الوراثة التي أقرها العلم وأحلها في الحقائق الثابتة لا تفضي الى هذه النتيجة، وأثر البيئة والتربية الحازمة الرشيدة في توجيه موروثات الكائن مما لاسبيل الى انكاره. في توجيه

موروثات الكائن وان كان نباتاً أو حيواناً بله الانسان العاقل ذا الارادة والشعور.

بلى حتى النبات. وهو المسرح لتجارب (يوحنا مندل) مقرر قوانين الوراثة ومكتشف جيناتها، وعوامل الوراثة فيه من أعتى العوامل على التقويم وأنآها عن التربية المقصودة، من حيث أن النبات لاشعور له ولا إرادة، وحتى أوصاف الانسان التي يبدو انها لازمة ولا مدخل فيها للتربية كلون البشرة ومقدار القامة وحجم الرأس، أقول حتى هذه الأنواع من عوامل الوراثة فانها وإن استعصت على التربية الا أن اثر البيئة في انمائها واضح.

ومواريث الكائن ليست سوى استعدادات قوية أو ضعيفة لأوصاف في الأسلاف أصيلة او طارئة. والخصائص التي تحدّث عنها هؤلاء القائلون، وقالوا انها توجه سلوك الانسان وتقتاد إرادته وتخلق صفاته لا تثمر سوى هذه الاستعدادات الجسمية أو النفسية أو العقلية.

وهذه الاستعدادات الموروثة قد تفتقر في نموها وقيامها صفات كاملة ناضجة الى تدخل البيئة وحدها فلا مكان معها لتربية، ولا مجال بعدها لتهذيب ولا تغيير: ومن هذه العوامل التي تقتضي لون البشرة وتقاطيع الوجه ولون الشعر واشكال الاعضاء.

وقد تفتقر في فعليتها الى عوامل أخرى، وهذه هي التي تتدخل فيها التربية المقصودة، والتي يمكن في نتائجها المحو والا ثبات، ومن هذا النوع الاستعدادات الجسمية لقبول بعض الأمراض، فان الطب الحديث يملك ان يقف منها مواقف حاسمة.

ومن هذا النوع الاستعداد لضعف في البنية، فان الرياضة البدنية الصحيحة تستطيع ان تتفادى منه ومن أعراضه وعقابيله.

ومن هذا النوع ايضاً مبادئ الاخلاق واتجاهات السلوك التي يرثها عن أسلافه فان التربية الصالحة والارادة الحازمة تملكان ان تضعا لها حدوداً وأن تفرضا عليها رقابة وتجعلا عليها تبعات.

* * *

والعدل في الاسلام أصل ومبدأ ومنهاج وغاية.

فالعدل أساس من اسس الدين وأصل من اصوله حين نصف به خالق الكون عز اسمه.

ويراد من عدل الله سبحانه انه لايهمل فعلا تحتمه المصلحة، ولا يصدر قبيحاً تمنعه الحكمة، لا يصنع شيئاً من هذا، ولا يغفل شيئاً من ذلك، لانهما لايكونان إلا لحاجة تضطر الفاعل الى المخالفة وقد تنزه الباري عن الحاجة لغناه، أو لجهل من الفاعل بصلاح الشيء و فساده وقد تعالى الله عن ذلك لعلمه، أو لعبث يريده بذلك الفعل دون جهل منه ولا حاجة، وقد تعالى الله عن ذلك لحكمته: «ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون»[1].

١ ــ الانبياء: ١٦ ــ ١٨.

وعن القول بعدل الله سبحانه ينشأ القول بعصمة أنبيائه وأوصيائه، وهي احدى عقائد الاسلام الاخرى. والعصمة أعلى درجات العدل في الانسان وأقوى مراتب الاستمساك بالدين.

وإذا كان النبي والوصي من بعده هو الممثل الاعلى للدين في الامة والقيم الاكبر على اقامة العدل فيها فيجب أن يكون أشد الناس تمسكا بمبادئ الدين وأقواهم انطباعا بملكات العدل..

ومحال على الله الحكيم العدل المقتدر أن يأتمن على شريعته رجالا لا يأمن الناس على احاديثهم الكذب ولاعلى أعمالهم الفسوق ولاعلى نصيحتهم الخيانة، محال أن يقع منه ذلك لأنه قبح تحظره الحكمة او جهل يمنعه العلم او اضطرار تأباه القدرة.

والعدل مبدأ ومنهاج حين نصف به دين الاسلام ذاته:

و يقصد بعدل الاسلام أنه قيم ليس فيه ميل ولا اضطراب، قسط ليس به سرف ولا تقصير، وانه عام الملاحظة لنواحي الانسان دقيق الموازنة بين اطواره وأحواله، فيفي لكل منحى من نواحيه بما يستحق، و يشرع لكل حال من أحواله ما تقتضي ولا يحيف على جهة بالتشريع لأخرى، ولايؤثر ناحية على حساب ناحية: «ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين. إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون»[١].

والعدل هو الغاية من تشريع الدين حين نصف به الانسان الفرد أو نصف به الانسان الأمة.

العدل هو الاستقامة، والاستقامة هي الكمال. والكمال هو الغاية.

فايجاد الانسان العادل واقامة المجتمع العادل هي غاية الله من الاسلام حين وضع أول حجر من هيكله ورفع أول قاعدة من قواعده. ومن أجل هذه الغاية وضع كل حجرمنه وأقام كل قاعدة، ومن أجل هذه الغاية أتمّ البناء وثبّت الدعائم، وبهذه الغاية الشاملة يرتبط كل جذر من جذور الدين، وعليها يتفرع كل غصن من اغصانه، ومنها تبدو وتنضج كل ثمرة من ثماره «لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»[٢].

والعدل في الاسلام سلسلة متراصفة الاجزاء مترابطة الحلقات. فمن العدل في العقيدة الى العدل في المنهاج الى العدل في الهدف، ومن الاتزان في السلوك الى الاتزان في المعاملة الى الاتزان في الخلق، ومن النَصَف بين الغرائز الى النَصَف بين الافراد الى النَصَف بين الامم، ومن القسط في القول الى القسط في الحكم الى القسط في الميزان، ومن الاستقامة في النفس الى الاستقامة مع الغير. ومن العدل في الفرد الخاص الى العدل في المجتمع العام، ومن التساوي في الحقوق الى

١ ــ النحل: ٨٩، ٩٠.

٢ ــ الحديد: ٢٥.

التساوي في الطبقات. ومن العدل في ميادين العمل في الدنيا الى العدل في موازين الجزاء في الآخرة، كل هذه مجالات لنشاط الدين، وكل هذه مجالي للعدل المتكامل الذي يستهدفه دين الاسلام. وكل هذه مظاهر لعدل الله الكامل الشامل تدل على مراشد دينه كما تدل على مناهج قوانينه.

فالمؤمن حقّ الايمان من يقوم لله بالقسط، ومن يكون رقيباً لله على نفسه وعلى خاصته في ذلك قبل ان يكون شهيداً له على من سواهم، ومن لايشذ به الهوى ولا تميل به الأغراض عن منهاج العدل في جميع ذلك. أما من يلوي او يعرض فان الله خبير بالخائنين في عهودهم، ونقمته مرصودة لهم جزاء وفاقاً لخيانتهم: «يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً»[1].

والمؤمن حق الايمان من يتصل عدل اللسان منه بعدل اليد والقلب، فلا ينطق لسانه إلا صواباً ولايحكم إلا عدلا ولا تعمل جوارحه إلا حقاً ولا يعزم قلبه إلا خيراً: «وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفساً إلاوسعها، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، و بعهد الله أوفوا»[2].

والمؤمن ولي المؤمن في إقامة العدل في خاصته وعامته، يرشده اذا جهل و يقوّمه اذا زاغ و يشده اذا ضعف و ينهض بمعونته إذا أعيى «والعصر ان الانسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق و تواصوا بالصبر»[3].

ومن اجل هذه النزعة الشديدة إلى العدل وهذا الولوع الاسلامي باقامته فكل مل يؤدي الى الخير و يوافق الشريعة فان القرآن الكريم يسميه عدلا، فيقول مثلاً في وصف يوم الجزاء والتحذير من شدائده: «واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة ولا يؤخذمنها عدل ولاهم ينصرون»[4] و يقول أيضاً: «ودكر به أن تبسل نفس بما كسبت، ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع، وان تعدل كل عدل لايؤخذ منها»[5].

والعدل فريضة محتومة تجب رعايتها والمحافظة عليها من جميع افراد المسلمين، حتى مع الكفار الذين لا يدينون دين الحق اذالم يقاتلوا المسلمين ولم يضطهدوهم ولم يفتنوهم في دنياهم ولم يلبسوا عليهم دينهم. حتى مع هؤلاء يجب على المسلمين القسط في المعاملة، والمساواة في حقوق الانسانية بل و يسمو الاسلام على ذلك الى البر بهم والاحسان الى ضعفائهم: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين»[6].

١ ـــ النساء: ١٣٥. ٢ ـــ الانعام: ١٥٢. ٣ ـــ سورة العصر. ٤ ـــ البقرة: ٤٨.
٥ ـــ الانعام: ٧٠. ٦ ـــ الممتحنة: ٨.

والحقد والشنآن كذلك لايسوّغان لأحد من أتباع هذا الدين أن يرتكب مع مناوئيه ما يخالف عدل الاسلام، وان ينحدر الى شهوة الانتقام و بؤرة التشفي فان المسلم ازكى من ذلك نفساً و أطهر قلباً: «يا أيها الذين آمنوا كونواقوامين لله شهداء بالقسط، ولايجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو اقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون»[1].

والحقد والشنآن ذاتهما موضوعان لنظرة العدل في الاسلام، فلا يحقد المؤمن إلا في الحق ولا يبغض الا في الله، وطبيعي أن يتحدد هذا الحقد وهذا البغض بمقدار ما يقتضيه الحق وما يأمر به الله، وطبيعي أن تنحصر بوادرهما ونتائجهما في ضمن هذه الحدود. ومشانأة أحدالمسلمين لا تعني أن الشانئ مجانب للحق في جميع احواله، وواجب المؤمن هومراعاة الحق أنى كان وأين وجد.

وإذا قعد الضعف الانساني بأحد عن هذه الغاية ومالت به الاغراض عن الله في كراهته وحقده، فلا ينتظر من دين الله أن يميل عن الحق لميل أحداتباعه، على انه لايهتم بحقوق المناوئين قدر اهتمامه بماتتركه رعاية هذه الحقوق من زكاة في نفوس المسلمين وتهذيب لطباعهم وجلاء لايمانهم.

وحتى الحروب المقدسة التي يشنها الاسلام على أعدائه ليس معناها سقوط أحكام العدل مع هؤلاء المحاربين واستباحة العدوان عليهم.

إن الاسلام انما يكافح الجور في شتى مظاهره وفي شتى اسبابه، فلا يعقل أن يحييه وهو يبتغي إبادته. وإن الاسلام إنما يدعو الكافرين به الى اقامة العدل فلا يعقل ان يسقط معهم أحكام العدل، والمتحتم على الفرد المسلم في هذه الحروب ان يكون صورة حية لعدل الاسلام، و برهاناً شاخصاً على صدق دعوته: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين»[2]. بلى ان الله لا يحب المعتدين حتى في هذه الظروف الحرجة التي يجد فيها الناس مساغاً للاعتداء.

ان الحروب التي يشنها الاسلام حروب عادلة، لالأن الاسلام يبتغي من إثارتها إقرار العدل وتعميم مناهجه وتيسير سبله فحسب، بل لأنها عادلة في جميع ملامحها، مقسطة في جميع أوضاعها.

هي طلقة المحيا بالايمان مشرقة الأسارير بالعدل حتى في أشد مواقفها محنة وأمض ساعاتها بلاءً، وهي بذاتها تهدي المستبصر بعقله إذا رام الهدى كما تقوّم المعوج بطبعه اذا آثر الزيغ.

والخروج على العدل في المجتمع الاسلامي والاستخفاف بالأمن فيه جريمة كبرى في موازين هذا الدين، ومرتكبها محارب لله ولرسوله مستوجب لأمض انواع التأديب: «انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون في الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من

١ ـ المائدة: ٨.

٢ ـ البقرة: ١٩٠.

خلاف أو ينفوا من الارض، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم»[1].

فاذا كانت المخالفة من طائفة ذات منعة وقوة فان الاسلام يشن عليها حربا مؤدبة حتى يفي، الباغي و يستقيم المعوج: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمرالله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين»[2].

وإذا كان العدل هو الاستقامة والاتزان في الخلائق. والاخذ بما يصح من الامور والنبذ لما لايصلح منها والمحافظة على مايجب من قوانين والاحتراس عن الخلاف عليها فان العدل دين كل شيء وشريعة كل كائن: «وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم»[3].

أما العدل في الآخرة فانه الحافز الاعظم على الاستقامة في الدنيا. والجزء المتم لمنهاج العدل في الدين: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين»[4].

على هذا السنن المستقيم العادل أسس دين الاسلام يوم أسس، وأنزل كتاب الاسلام يوم انزل: «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان»[5] وعلى هذا السنن المستقيم العادل توالت أحكام هذا الدين وتتابعت أصوله وفروعه وانزلت تعاليمه وآدابه: «وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون»[6] وعلى هذا السنن المستقيم العادل اتم دين الله آخر نص من نصوصه، وختم وحي الله آخر آية من آياته: «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم»[7].

* * *

الدين ضرورة يقتضيها تنظيم الكون، وتنظيم الحياة، وتنظيم سلوك الانسان الفرد وسلوك الانسان الامة، وتنظيم علائقه بعضه ببعض وفرده بالمجتمع، وتوثيق روابطه بالكون، وتوثيق صلته العظمى برب الكون.

والدين نظام اختياري لاسبيل فيه للجبر ولا مساغ للاضطرار، لانه توجيه للعقل وتقويم للارادة وتهذيب للضمير، وأخذ بيدالانسان في سلوكه الاختياري الى كماله الأعلى الاختياري. وقد قدمنا تفصيل هذا واقنا على ثبوته وجوهاً من البرهان.

ومتى استبان ذلك للعقل وعلم به حق العلم فقد اتضح له دون مرية ان بعث الانبياء ضرورة لابد منها كذلك.

ضرورة تقتضيها جميع النواحي المذكورة، من حيث أنه ضرورة يقتضيها وجود الدين وتبليغ

١ ــ المائدة: ٣٣. ٢ ــ الحجرات: ٩. ٣ ــ الحجر: ٢١. ٤ ــ الانبياء: ٤٧.
٥ ــ الشورى ١٧. ٦ــ الانعام ١٢٦. ٧ ــ الانعام: ١١٥.

أحكامه.

الدين عقيدة للايمان تستتبع شريعة للعمل، وجليّ أن كل واحدة من هاتين اختيارية تعتمد على الموازنة والترجيح وامعان الفكر في التصويب او التخطئة وليست سنة طبيعية لها في مجال التكوين مجرى معين لا تعدوه وغاية محددة لا تنحرف عنها. والدين وضع إلهي لامدخل للبشر في تشريعه، وليس في طاقة أي منهم أن يكون له مدخل فيه وجميع هذا قد تقدم الحديث فيه مبسوطاً مشروحا.

واذن فلا محيد عن النبوة اذا لم يكن محيد عن الدين.

لان مصدر التشريع في الدين هو الله. وليس بمقدور الناس أن يتفهموا دينهم عن الله سبحانه مباشرة دون وسيط.

والرسالة في صفتها الاولى سفارة عن الله تعالى تقوم بشرح العقيدة وإبلاغ الشريعة، وايضاح الحجة، والرسول في مهمته الثانية داعية الى الله يبين للناس رسوم الحق ومعالم الباطل، وينير لبصائرهم محاسن الهدى ومقابح الضلال، وقول الرسول سند لثبوت كل رسم من رسوم الدين وكل بند من بنود الشريعة وكل علم من أعلام الحق، والرسول هو النموذج الاعلى الذي اعده الله للناس ليصوغوا أنفسهم على مثاله، بأقواله يهتدون و بأعماله يقتدون: «ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً»[1].

كل هذه تدلنا على ان بعث الرسل ضرورة لاغناء للبشر عنها: لأن الدين ضرورة لاغناء للبشر عنها.

وكل هذه تدلنا على ان عصمة الرسول واجبة. لأن أهداف الرسالة لا تتم بدونها.

عصمة الرسول في التبليغ لأنه سند للشريعة.

وعصمته في السلوك والصفات لأنه المثال الاعلى للامة.

وعصمته في كل قول وفي كل عمل. لأن دليل الصدق لايكون كاذباً وقيم العدل لايكون ظالماً، و برهان الصواب لايكون ضالا.

هذه حقائق لن يرتاب العقل المستنير في واحدة منها إذا هو استوضح معنى الرسالة في الدين، واستبان مقام الرسول من الشريعة واستجلى موضوع قيادته للأمة.

ولن يرتاب العقل المستنير في واحدة منها اذا علم ان الرسالة سفارة يقيم الله بها حجة، وينيط بسلوكها نظاماً ويمهد بها الى غاية. هي غاية الله سبحانه من تكوين هذا الوجود وايجاد هذا الكائن.

ولن يرتاب العقل المستنير في واحدة منها اذا أيقن أن الرسول لازم التصديق في كل قول،

١ ــ الاحزاب ٤٥ ، ٤٦.

واجب الاطاعة في كل حكم، مفروض الاجلال والتوقير على كل حالة. و ما كان الله ليحتم تصديقه على الناس اذا كان لا يمتنع على قوله الكذب، وما كان ليوجب طاعته عليهم اذا كان لا يستحيل على عمله الخطأ، وما كان ليفرض إجلاله وتوقيره في كل حالة اذا كان غير مأمون الخيانة غير مأمون العثار.

لن يرتاب العقل المستنير في وجوب عصمة الانبياء اذا هو استوضح هذه المعاني. أما ما يوهم خلاف هذه العقيدة من النقول فلا مناص من تأو يله.

لا مناص من تأو يله إذا اتسع لفظه للتأو يل، ولا مناص من طرحه اذا لم يتسع لذلك. وأقول:

لا مناص من طرحه اذا لم يتسع لفظه للتأو يل، لأن النقل حين ذاك يكون مقطوع الكذب وأية قيمة للدليل اذا كانت هذه صفته؟.

* * *

هبة فوق الهبات تُمدّ بها عبقرية فوق العبقريات.

هذه النبوة في افقها الرحب وفي نعتها الشامل الذي تشترك به عامة الانبياء، وتذعن لطاعته أصناف البشر.

ليست خُلُقاً يتوصل الى تهذيبه بالمجاهدة، وليست مكاشفة يتذرع الى اكتسابها بالتبتل، ولا مرتبة نفسية اخرى يتدرج الى الحصول عليها بالرياضة.

ليست النبوة شيئاً من هذه الفصائل لتخضع للاختيار وتنال بالاجتهاد، ولكنها هبة من هبات الله سبحانه، وهبات الله لا تكال جزافا دون وزن، ولا تفاض على أحد دون استحقاق. بل لابد من عبقرية فريدة تتسع لهذه الهبة الفريدة.

عبقرية تحسن قيادة الامم المختلفة في العوائد، والافراد المتباينة في الطبائع، والعقول المتباعدة في الادراك. عبقرية هي الفرد الاتم الأسمى في كل مجالات العبقرية، بحيث يتفيأ ظلالها كل عبقري، و يقبس من صلاحها كل مصلح، و يستضيء بهديها كل هاد، و يستكمل من عرفانها كل عارف.

هذه العبقرية الفريدة في الناس هي وحدها التي تقدر أن تنهض لله بالشرط حين يحملها عبء هذا الميثاق، و يستودعها سر هذه الهبة، ويمنحها شارة هذه الزعامة. وهي وحدها التي تطيق أن تستقبل وحي الله كاملا غير منقوص، ثم تؤديه الى كل فرد من عباد الله كاملا غير منقوص. وهي وحدها التي تحسن أن توجه هداية الله الى خلقه توجيهاً مشعاً بالنور وافياً بالحاجة.

مشعاً فلا يطغى على البصائر لتعقيد، ولا تزاور عنه العقول لوهن، ولا تتجافى عنه لتهافت. وافياً فلا تزيد يلحقه بالفضول، ولا قصر يقعد به دون المقصود، ولا غموض يسف به عن الحكمة و ينقطع به دون النتيجة.

توجيهاً يوائم عظمة الحق في تشريعه، وعظمة الدين في مناهجه، وعظمة الانسان في غايته، بحيث تصطلح العقول المتباينة على اكباره، وتجتمع على الافادة منه، فيأخذ كل عقل منه ما يحتمل، كالغيث يأخذ كل موضع منه بمقدار ما يتسع وتمتص كل نبتة منه بمقدار ما ترتوي، وكالكهرباء يقبس كل مصباح منه قدر ما يطيق، و يفيد كل جهاز منه قدر ما يبتغي.

هذا العقل الفريد الذي يمد العقول كلها فلا تنكر، و يأخذ بأعضادها فلا تقصر. وهذا الروح الذي يوجه الارواح كما يشاء و يتصرف في ملكاتها كيفما يريد، وهذه النفس التي تزكو بزكاتها النفوس، والقلب الذي تصفو بصفائه القلوب. وأخيراً هذه الانسانية المشعة في جميع مناحيها، الرشيدة من كل جهاتها، هي التي تستحق أن يضع الله بيديها زمام البشر، وأن ينيط بها سبب هدايتهم، ويجعلها منار رشدهم.

وظن العابثون من قريش الطامعون بما يستحيل أن يكون، ظن هؤلاء أن النبوة حظ يجب أن يقسط على مقدار سعة الأشداق واندحاق البطون، فمدوا أعناقهم بالرجاء، وقبضوا أكفهم على الأمل، ومادام محمد الفقير اليتيم أصبح نبياً يسدده الوحي وتلوى بطاعته الرقاب، فان كل كبير من كبراء قريش يجب أن يكون نبياً كذلك، يهبط عليه الوحي وتعنو له الرقاب. ولم لا ينالون هذا الحظ وهم أوفر من محمد مالا وأجهر منه صوتاً و اكبر منه سناً وأربى منه عدداً؟. وحتى قال مسرف من هؤلاء العابثين: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يوحى إليه. والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه.

وفي رد هذه الأنفاس ولقمع هذا التطاول أنزل الله سبحانه هذه الآية الكريمة من الوحي الكريم: «واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته، سيصيب الذين أجرموا صَغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون»[1].

الله هو فاطر الناس ومغرّز غرائزهم، وعالم سرهم وعلانياتهم، واصطفاؤه بعضهم على بعض لا يجري على هذه المقاييس التي لا تسن ولا تتبع إلا في المجتمع الوضيع الرقيع، بل يستند لما للفرد في ذاته من موجبات الأهلية، ولما له في سماته من مقتضيات التقديم.

أما هؤلاء المستكبرون على الحق المتطاولون لما لا يستحقون فسينالون جزاء استكبارهم وعقبى تطاولهم وجحودهم.

* * *

وطبيعي أن تكوين المجتمع العادل وغرس الفضيلة الجامعة.

المجتمع الذي يجمع صنوف العدل. والفضيلة التي تنتظم أشتات الفضائل.

طبيعي أن بلوغ هاتين الغايتين يتوقف في درجته الاولى على التربية الصالحة والتوجيه

١ ـ الانعام: ١٢٤.

العملي الرشيد. فاجتثاث الخلق السيء من اعماق الفرد واستئصال العادات الرديئة من اطواء المجتمع، ثم استبدال الفاسد منها بالصحيح والقبيح بالحسن، والارتفاع بالفرد و بالامة في مدارج العدل ومناهج الاستقامة الى حيث العدل الأعلى الأقصى الذي ابتغاه الدين والاستقامة التامة التي استهدفتها مناهجه. هذه عملية شاقة تفتقر الى تربية جد طويلة وعناية جد حكيمة، والى كثير من الجهد وطويل من المصابرة يبذلها المربي لإنجاح هذه المهمة.

انها خلق نفوس وترميم جيل، والخلق والانشاء لا يكفي لهما قول مجرد وان يكن القائل افصح ناطق وأبلغ مفوّه.

وطبيعي كذلك أن الاسوة الحسنة بالمربي والقدوة الصالحة بأفعاله وصفاته هي السبب الاقوى في التربية الجدية والعامل الأعظم في نجاحها فالتأسي بالعظماء في الصفات والاقتداء بهم في المظاهر والاعمال إحدى النزعات الاصيلة في نفس الانسان، المنطبعة فيها منذ نعومة اظفاره.

من اجل هذا كانت بعثة الرسول وكانت عصنمته من متممات رسالة الدين ومن الضمانات اللازمة لتحقيق غايته. ومن اجل هذا كانت بعثة الرسول وكانت عصمته من ضرورات الانسان الفرد ومن ضرورات الانسان الامة للارتفاع بهما الى هدف الانسانية الأقصى. ومن اجل هذا كانت مهمة الرسالة مزدوجة فهي بلاغ مبين لتعاليم الدين وشرح واف لأهدافه من جهة، وهي تربية لنفوس الامة وتزكية وتطهير لقلوبهم وارواحهم من جهة اخرى: «لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوعليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين»[1].

ومن أجل هذا بذاته كانت الامامة التي تعهد بها النبوة، وكانت عصمة الامام الذي يوصي اليه النبي (ص) من متممات رسالة الدين كذلك، ومن الضمانات اللازمة لتحقيق غايته.

هذا التمثيل الصادق لأدوار الرسول (ص) بعد لحوقه بالرفيق الأعلى، وهذا الامتداد الوضعي في عمر النبوة بعد انتهاء أمدها الطبيعي بموته، هذان أمران لا مندوحة عنهما للدين إذا لم يكن بد من إتمام رسالته و من ضمان غايته. فان تكوين المجتمع العادل وغرس الفضيلة الجامعة لا يكفي لهما تربية جماعة من الناس، بل ولا جيل كامل من اجيالهم، مهما تكن التربية رشيدة، ومهما يكن المربي حكيما. فمن شأن المجتمع أن يتجدد و يتسع، ومن دأب نفوس الأفراد أن تتردى وتنزلق، وغرائز الناس هي الغرائز في نزقها وجماحها وعوائق الفطرة عن الاستقامة هي العوائق في شدتها و وفرتها وأهواء القلوب هي الأهواء في مداخلها ومخارجها. وكل هذه معاثر ومزالق تدفع بالنفوس الى التردي وتحمل المجتمع على الانتكاس، وهما لذلك ولسواه ما يزالان مفتقرين الى التربية الطويلة والمصابرة الحكيمة، وما يزالان مفتقرين إلى القدوة الصالحة والمثال الأعلى. ما

١ ــ آل عمران: ١٦٤.

يزالان مفتقرين إلى عقل يمد العقول بالهداية ونفس تمد النفوس بالزكاة وقلب يمد القلوب بالطهر. ما يزالان مفتقرين إلى الانسانية المشعة بالهدى، المنيرة بالحق، المشرقة بالعدل.

فلا معدل عن إمامة تحمل أعباء النبوة وتمثلها في مهمتها حق التمثيل.

ولا معدى عن إمام تتم به على المؤمنين المنة، وتكمل لهم النعمة.

* * *

وللرسول (ص) مقام الزعامة الكبرى في الامة، و موضع القيادة العامة من صفوفها، وسلطته هذه مستمدة من صميم الرسالة التي يجهد لأدائها و يكدح لاعلائها. ومن صريح المبدأ الذي يعمل لنشره و يقوم على تنفيذه.

من جوهر كلمة الله التي انيطت به ومن طبيعة دين الله الذي يُعنى بتبليغه يستمد الرسول زعامته المطلقة للبشر، وقيادته العامة لصفوفهم، و ولايته الكبرى على امورهم، فبيعته هي بذاتها بيعة الله الذي أهله لهذه الزعامة، واختصه بهذه الكرامة، والموفون ببيعته من الناس انما يوفون ببيعة الله المبرمة، والناكثون منهم انما يخيسون بعهد الله الوثيق، والله وحده ولي الجزاء الحق للناكثين والموفين: «إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله يدالله فوق ايديهم، فمن نكث فانما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً»[1].

والرسول واجب الاطاعة على الناس جميعاً، وفرض طاعته هذا باذن الله رب الناس، ملك الناس، إله الناس: «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله»[2]، وما كان الله لينتدبه لهداية الخلق ثم لا يضمن لكلمته النفوذ، ولا يعبّد طريقها الى القلوب، وما كان الله لينيط به تقويم المجتمع، وحسم أدوائه وعلاج مشكلاته ثم لا يوليه الامر في تدبيره، ولا يؤتيه القياد في تسييره. وما كان للرسول أن تكون طاعته بغير إذن الله وهو يحمل رسالته و يدعو الى توحيده و ينفي الانداد والاضداد معه، وما كان لذي عقل أن يصدّق قائلا عن الله وهو يبتغي الطاعة من المخلوقين باسم سواه.

وحتى مغفرة الذنوب وهي في دين الاسلام من شؤون الله وحده، ولا إرادة لأحد من المخلوقين فيها بنقض ولا إبرام. أجل فالله وحده هو واضع الحدود والتبعات، ومالك الجزاء والعفو وعالم السر والعلانية، وقابل التوبة عن عباده، ومحصي أعمالهم والمطلع على نياتهم وليس في دين الاسلام كراسي اعتراف ولا صكوك غفران.

أقول حتى مغفرة الذنوب، فان لجوء المذنب الى شفاعة الرسول، والتوسل به الى الله في نيل الغفران ودعاء الرسول (ص) له بالتوبة. هذه الوسائل أجدى له في استيجاب المغفرة من الله

١ ــ الفتح: ١٠.
٢ ــ النساء: ٦٤.

وشمول الرحمة، وأدنى لقبول إنابته والعفو عن تقصيره: «ولو انهم إذ ظلموا انفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما»[١].

وأمر الرسول عزيمة من عزائم الله سبحانه. لايجوز أن تخالف، ولا موقع معها لمشاورة، ولا مساغ بعدها لتردد. ومن تطمعه نفسه بمخالفة هذه العزيمة الالهية فانما يتعرض بصنعه هذا للمقت الكبير والضلال المبير: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً»[٢]

والتسليم لحكم الرسول فيما شجر بين الناس لازمة من لوازم الايمان، بل و ركيزة من ركائزه، فلا يقر الايمان في قلب أحد ولا ترسخ قواعده ولا تقوم دعائمه بدونها. التسليم الاختياري الكامل، بحيث تتآزر النفس والفكر والضمير والارادة والظاهر والباطن على الخضوع لحكمه والاقتناع بفصله، وبحيث لايجد المحكوم في قرارة نفسه من إصدار الحكم عليه ضيقاً، ولا في تنفيذه حرجاً ولا في الانقياد لموجبه ضعة: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليما»[٣]. هذا الوازع النفسي المكين المنطبع في دخيلة الانسان وفي أعماق قلبه وروحه، الذي يحمل على التسليم لحكم الرسول في نفسه وأهله وماله وولده دون حرج ولا ضيق، هو المتم للايمان، وهذه الطمأنينة التامة إلى قوله حتى في مواقع الشجار ـــ والشجار مظنة للتعصب خلاف الهدى ـــ هي المظهر الصادق له.

والرسول الى ذلك جميعه هو المثال الكامل للانسانية الكاملة، بأفعاله تقتدي الامة، ومن أنواره تقتبس، وعلى هديه تسير: «لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»[٤]. كل هذه لوازم لا تنفك عن طبيعة النبوة، ولا تنفصل عن حقيقة الدين، وعن نظام الدعوة اليه، مهما اتسعت او ضاقت آفاق الدعوة، ومهما صعبت أو سهلت مهمة النبي أو الرسول، فأنبياء الله ورسله كافة يشتركون في هذه الحقوق و يتبوؤن هذه المنزلة، كل في نطاق دعوته، أما الاعتراف بنبواتهم أجمع فقد أوجبه الاسلام على البشر أجمع: «آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لانفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و اليك المصير»[٥].

* * *

من فكرة التوحيد العامة التي قبسها الاسلام من الوحدة الكونية الكبرى. وحدة الكون في العناصر، واتساقه في الانظمة وتجانسه في الغايات. ثم تداخل انظمته هذا التداخل الشديد حتى لا تكاد تفترق، وترابط غاياته هذا الترابط الوثيق حتى لا تكاد تتعدد، وانسجام الموجودات فيه على التآلف، وإمداد بعضها بعضاً بالعون. ثم خضوع كل ما في الكون من القوانين لقانون، وانصياع

١ ـــ النساء: ٦٤. ٢ ـــ الاحزاب: ٣٦. ٣ ـــ النساء: ٦٥. ٤ ـــ الاحزاب: ٢١.
٥ ـــ البقرة: ٢٨٥.

كل ما فيه من الأشياء والحركات لارادة.

من فكرة التوحيد العامة التي قبسها الاسلام من هذه الوحدة الكبرى نشأت فكرة المجتمع في هذا الدين، وعلى هذا الاساس البعيد الغور العميق الجذور شد أواصر الانسان بمن حوله من أناسي، وبما أحاط به من أحياء وبما اكتنف به من اشياء. وعالج مشكلاته بما هو جزء من الكون لاينفصل، وبما هو خاضع للطبيعة لايستقل، ونظر في اموره بما هو كائن يشده الى الأرض جسد مخلوق من عناصر المادة، وتصله بالسماء نفس لها روحانية الملائكة، وتوقره الحياة بغرائز لا يرتفع بها عن صنوف الحيوان، وترفده الانسانية بخصائص لايسمو اليها شيء من الموجودات.

بهذا المنظار الدقيق الذي ينفذ الى أعمق الأعماق في بيئة الانسان الكونية والى غور الاغوار في دخيلته الذاتية يستوعب الاسلام كل خصائص هذا الكائن فحصاً. و يستقرئ كل ملابساته درساً، كي يصف له العلاج الواقي و يضع له المنهاج الراقي.

العلاج الذي يحسم عنه كل داء، والمنهاج الذي يسدده فى كل مدى.

أقول: على هذه الوحدة العامة التي تربط بين أجزاء الكون وتصل بين متفرقاته وتؤلف بين غاياته؛بنى الاسلام جميع تشريعاته للانسان، فأي حكم من أحكامه شرّعه للانسان بما هو موجود مستقل فهو حكم له كذلك بما هو فرد من أفراد المجتمع، وهو حكم له بما هو مولود من مواليد الحياة، وشيء من اشياء الطبيعة، وأخيراً بما هو جزء من أجزاء الكون. وعلى هذه الركيزة وضع الاسلام فكرته في الاجتماع وأسس نظامه للمجتمع، فالبشرية بجميع اصنافها و بكل تخومها وأطرافها مجتمع واحد، متكافئة اعضاؤه في الحقوق، متعادلة في الواجبات متماثلة في الاعباء والتبعات، فلا فارق في شريعة الاسلام بين دم و دم ولا بين جنس و جنس، ولا بين لون ولون، ولا بين موطن و موطن، ولا بين زمان وزمان، ولا بين طبقة وطبقة: «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن اكرمكم عندالله تقاكم، ان الله عليم خبير»[1].

مجتمع واحد يشد بعضه ببعض نسب الكون قبل أي نسب ثم آصرة الطبيعة ورحم المادة ولحمة الحياة و قربى البشرية. ثم هذه الركائز العتيدة المودعة في كيانه بما هو بشر، أو في طبيعته بما هو حيوان، هذه الركائز الاجتماعية من غرائز وعواطف وأحاسيس وأشواق، وقوى وملكات.

هذا النسب العريق العميق هو الذي يربط المجتمع الانساني بعضه الى بعض في نظر الاسلام. أما الضرورات التي تلحق المرء بعد وجوده وتضطره الى الاجتماع. أما فاقة المرء الى الالتفاف لضمان قوته وضمان كسوته وضمان حاجاته في العيش وحمايته من العدوان، أما هذه الضرورات فانما هي مؤكدات يأتي دورها بعد إقامة البناء.

من ذكر واحد وانثى واحدة خلق الله الناس كلهم فلا امتياز لأحد منهم على أحد، ولا

١ ــ الحجرات: ١٣.

فضل لقبيل على قبيل. أما تفريقهم شعوباً وقبائل فحكمته الوحيدة الفريدة هي أن يتعارفوا، واما الميدان الوحيد للتفاضل بين الافراد و بين الاجناس منهم فانما هو ميدان التقوى. تقوى الله في السر والعلن والانقياد لأوامره في الظاهر والباطن. فمن شاء السبق منهم في هذا المضمار فليسبق، فقد أرصد الجزاء وأتيحت الفرص للناس أجمعين.

البشرية بجميع أصنافها وألوانها مجتمع واحد، فلا تخضع إلالرب واحد، هو بارئها بعد العدم، ومكثرها بعد القلة، ومقويها بعد الضعف، ورافعها بعد الضعة، وهو منشّئها على الحكمة، وفاطرها على الحب، وموجهها الى الكمال، وهاديها بعد الضلال: «ان هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون»[1].

والبشرية بجميع أصنافها والوانها مجتمع واحد فيجب ان تجتمع على عقيدة واحدة وأن تأتلف على دين واحد، هو نظامها الذي يحكم بينها الأواصر و يوزع الحقوق و ينظم الحدود والذي يعدّ الفرد و يتجافى به عن الا ثرة، ويهذب الامة و يعلو بها عن النقائص: «إن الدين عندالله الاسلام، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم»[2]، «ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»[3].

ولا مكان في هذا المجتمع لأزيد من حكومة واحدة، ولا مساغ فيه لاكثر من حاكم عام واحد.

حكومة تتمثل فيها وحدة ذلك المجتمع المرتكزة على العقيدة.

وحاكم يتجسد فيه روح ذلك النظام المستمد من الدين.

وعقيدة التوحيد التي يعتنقها المسلم ومبدأ الوحدة الذي ينتهض عليه الاسلام يتناصران على وضع هذه النتيجة وإقامة هذه الدعامة. فلا يعترف الفرد المسلم ولا المجتمع المسلم بحكومة لغير الله الكبير المتعال الذي خضع له في العقيدة، ودان له في العبادة، وأذعن له في السلوك . أما الحكومات الأرضية فلا يخضع لها المسلم خضوعاً دينياً حتى يعترف بها دين الله بنص قاطع و تقرير صريح.

ومحال أن يعترف دين الله بحكومة لا تنطبع بطابعه الكامل، وبحاكم لايمثل روحه التام، محال أن يعترف دين الله بها وأن يأمر باطاعتها إذا لم يكونا صورة شاخصة للدين في كل سلوك ، وفي كل سمة، وفي كل سجية، حتى لايشذا عنه في وجهة، ولا يصدفا عن تعاليمه في تصرف.

والحكومة التي تتخذ هذه الصفة هي بلا ريب حكومة الله على وجه الارض والحاكم

١ ــ الانبيأ: ٩٢.

٢ ــ آل عمران: ١٩.

٣ ــ آل عمران: ٨٥.

الذي ينال هذه الكفاءة هو بلامراء قيم الله على عباده. وطاعة المسلم لهما انما هي طاعة لقوانين الله وحدوده وخضوعه لهما انما هو خضوع لله فيما أمروزجر.

محال أن يعترف دين الله بهما وأن يأمر المسلمين بطاعتهما اذالم يكونا كذلك. فان دين الله موحد لايقبل التجزئة، وأحكامه متماسكة[1] لايدخلها التبعيض واعترافاته معصومة لا تعرف المحاباة.

نعم دين الله موحد لايقبل التجزئة، وأحكامه متماسكة لايدخلها التبعيض، لان الغاية التي يستهدفها هذا الدين موحدة لا تقبل الانقسام والانحلال، فنظام الحكم فيه شطر من نظام الاجتماع، وقانون السياسة جزء من قانون الخلق، ودستور المادة جانب من دستور الروح، ومبدأ الاقتصاد ناحية من تشريعات العبادة، وأنظمة الحرب فصول من أنظمة السلم، ومناهج الحياة في الدنيا هي بذاتها مناهج السعادة في الآخرة. وكل واحد من هذه القوانين المتنوعة ظل من ظلال العقيدة، ونقطة الارتكاز فيها كافة هي تلك الصلة العميقة الوثيقة التي تصل العبد بربه وتولهه بحبه، وتسلم وجهه اليه، وتعلقه بتدبيره.

فلا فصل في الاسلام لسياسة عن دين، ولا لحكومة عن عقيدة، ولا لمبدأ عن مبدأ، ولا لتشريع عن تشريع. وليس لقيصر في هذا الدين مجال لا يخضع فيه لامرالله، وإنما هو حكم الله النافذ في كل صغير وكبير، وتشريعه المستوعب لكل بادية وخافية، وحكمته المحيطة بكل خاصة وعامة. وليس أشد خطراً في دين الله من التبعيض فيه، فيؤخذ منه و يترك كما تقترح الاهواء. إن هذا الصنع ليس تديناً بل هو تقلب مع الشهوات. والله سبحانه يحذّر منه أبلغ التحذير: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، و يوم القيامة يردون الى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون»[2].

من أجل هذا التوحيد والترابط في انظمة الدين وجب أن يكون الرسول (ص) ــ مادام حياً ــ هو الرأس الاعلى للحكومة المسلمة كما هو الزعيم الأعلى للدين.

ومن أجل هذا التوحد والترابط فيها وجب أن يخلف الرسول بعد موته من يمثله تمثيلا صادقا في هاتين الوظيفتين.

* * *

ومبدأ العدل العام هو الآخر يسوق الباحث سوقا الى هذا الاستنتاج.

هذا المبدأ القويم الذي جرت عليه سنة الله في التكوين، لما وازن في المكونات بين متنوع العناصر، وواءم بين مختلف النسب. فركب في الانسان من العناصر ما يعتدل به كيانه ومن

١ ــ يمسك بعضها ببعض.
٢ ــ البقر: ٨٥.

المقادير ما تتزن به قواه و من الأجهزة ما ينتظم به وجوده و يُضمن به بقاؤه ثم يحفظ به نوعه: «يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم. الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ماشاءركبك»[1].

في كل حي وفي كل شيء ليس في الانسان وحده هذا الاتزان الكوني الرتيب وهذا التناسق النوعي المطرد. في كل ما اظهرته يد القدرة وخطته كف الابداع: «و إن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم»[2].

هذا المبدأ المستقيم الذي جرت عليه سنة الله في التكوين، وجرت عليه كذلك سنته في التشريع فاعتمده الاسلام في صوغ مناهجه، وعقد به عامة أحكامه، وكان أول بروزله في هذا الدين أن جعل صفة من صفات الله يعترف بها من يعترف بالاسلام و يؤمن بها من يؤمن بالقرآن.

العدل في نسفه الأعلى وفي أفقه المحيط، بحيث لا يكدرصفاءه ظلم، ولا يحيط بتخومه حد، ولا تبلغ مداه قدرة، ولا يتناهى ببقائه أمد. هذا العدل الكامل الشامل هوصفة الله تعالى التي يدين بها الاسلام و يفتنّ باثباتها القرآن: «شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة واولواالعلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم»[3].

«ان الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه اجراً عظيماً»[4].

ثم سار الاسلام والعدل يحدد به غايته و يرسي عليه قواعده و ينيط به تشريعه، «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»[5]لإقامة هذا المبدأ السوي وإشاعته بين آحاد البشر، وغرس هذه الفضيلة العامة في النفوس وطبعها فى القلوب ونشرها بين الامم وتعميمها على جميع الأجيال في مدى الأزمان، لهذه الغاية العظيمة الشامخة أرسل الله سبحانه رسله بالبينات، وأنزل معهم الكتاب الذي لم يفرّط شيئاً، والميزان الذي لا يهمل فتيلا ولا يظلم قطميراً.

ليقوم به الناس بالقسط.
ليقوم به الناس أجمعون.
هذه غاية الاسلام وهذا جوهر نظامه ولباب دعوته.

القصد والاتزان طريقة الله المثلى لما برأ المكونات وأظهر المقدرات، فلم ينقص من كائن خلطاً يفتقر اليه نظامه، ولم يزدفيه عنصراً يستغني عنه تدبيره. والقصد والاتزان طريقة الله المثلى لما وضع الدين وشرع الشريعة، فلم يهمل وجهاً تستدعيه إقامة العدل، ولم يبح أمراً يضرُّبه أو يقف في طريقه. العدل التام في جميع مناحي الانسانية الكثيرة، وآفاقها المتباعدة.

في غرائز المرء وركائزه وعوارضه وأهدافه ونزعاته وملكاته. وفي أجهزة المجتمع واعضائه

١ ــ الانفطار: ٦ ــ ٨. ٢ ــ الحجر: ٢١. ٣ ــ آل عمران: ١٨. ٤ ــ النساء: ٤٠.
٥ ــ الحديد: ٢٥.

وتخومه وحدوده وعلائقه و بوائقه ورئيسه ومرؤوسه.

العدل التام الكامل في كل هذه الأنحاء من الانسانية، بحيث لايولي كنفاً منها اكثر مما يستوجب ولا يؤتيه أقل مما يستحق.

وفي القرآن الكريم نيف وخمسون آية تنعت دين الاسلام بالاستقامة وتحدد غايته بالقسط والعدل، وفيه مئتان وأربعون آية تصف لأتباعه مغبة الظلم، وتنذر الظالمين سوء المنقلب.

والقرآن شديد اللهجة حين يذكر الظلم، رهيب الاسلوب حين يتحدث عن الظالمين، يكاد يبطش بالجناة وهو يقدم اليهم النذر، و يكاد يمسك باكظامهم وهو يوجه اليهم القوارع.

«ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون. إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء. وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب. نجب دعوتك ونتبع الرسل، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال. وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال. وقد مكروا مكرهم وعندالله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال. فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام. يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار. وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الاصفاد، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار. ليجزي الله كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب. هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب»[1].

أقرأت هذه النذر التي تستك لها المسامع من الهول، وتنخلع لها القلوب من ا لوعيد؟.

انها من أساليب القرآن في وعيد الظالمين.

والقران حين يذكر هؤلاء ــ في الاكثر ــ يعني بهم هذه الثلة من الناس التي تبدأ بظلم انفسها قبل أي أحد فتجعل على قلوبها اكنة وفي آذانها وقراً أن تفقه معنى العدل وأن تستبين محاسنه وأن تسمع دعوة الله اليه، ثم تندفع مع الشهوات وتتردى مع البدوات. وفي الآيات الكريمة السابقة مايدل على هذا.

هذا هو المنهج الذي استنه الاسلام في تشريعه ولم يتنكبه قيد شعرة.

والنتيجة المحتومة لذلك أن الحكومة التي يقيمها الاسلام يجب أن تكون حكومة العدل المطلق، وأن الرئيس الذي يعترف به الاسلام لهذه الحكومة يجب أن يكون ممثل العدل الاعلى.

حكومة تطبق عدل الاسلام في قوانينه فلا تقسو حين يتسامح الاسلام، ولا تلين حين يشتد، وزعيم يمثل عدل الله في دخيلة نفسه، فلا يقف حيث يأمره الله بالانطلاق، ولا يتحرك حيث يأمره بالسكون، ولا ينحرف به هوى ولا تهوي به غفلة، ولا تؤخذ عليه نبوة.

١ ــ ابراهيم: ٤٢ ــ ٥٢.

ثم هو إلى هذه اللازمة النفسية العاصمة لا يجهل امراً من اوامر الله تعالى ولا حداً من حدوده، ولا حكما من شريعته. لأنه لو صح أن يجهل شيئاً من ذلك لأمكن أن يقع فيما يخالف العدل، او يقرّ ما يباين الحق.

والمخالفة الجاهلة أو الغافلة امر يتسامح فيه الاسلام مع العامة من الناس، لأنه دين اليسر والسماح أما هذه المخالفات اذا وقعت من الممثل الاعلى فلا يتغاضى عنها الاسلام، وما يكون له أن يتغاضى عنها. ذلك أنها لا تعد مخالفات فردية يحمد فيها التساهل. وانما هي مخالفات في ذات القانون نفسه، وفي صدق تمثيله وضمان غايته فالاغضاء عنها والتسامح في امرها تهافت لا يحتمله قانون يحترم نفسه ويحرص على بلوغ غايته.

فلا بد إذن من النظر في أمر هذه المخالفات ولا بد من العمل لها والتفادي عن الوقوع فيها.

وسبيل الله هنا أن يمد الفرد الذي يصطفيه لهذه الزعامة بقوة عاصمة تقيه المزالق، وتتعالى به عن النقائص.

بلى هذه هي الثمرة الطبيعية لذلك الاتجاه.

حكومة إلهية تتلق الأنظمة من تشريع الله.

وخليفة معصوم يستلم أزمة الحكم بتعيين الله.

وحكومة الرسول (ص) هي النموذج الذي قدمه الاسلام من هذه الدولة، وهي الحلقة الاولى من السلسلة المثالية التي أعدها الله لهذه الغاية.

وتوالت نصوص الاسلام تعضد هذه النتيجة وتؤكدها، فالنص يتلو النص، والبرهان يقفو البرهان. وأمر الامامة أجلى من هذه النصوص الغفيرة الكثيرة لولا تدخل الاهواء.

* * *

نعم كانت حكومة الرسول (ص) نموذج الدولة الالهية في الاسلام، وليس في وسع مسلم أن يجحد منها هذا الوصف.

ليس في وسع مسلم ان يجحد ان الرسول (ص) — في حياته — هو الرئيس الأعلى لحكومة الاسلام، وليس في وسعه ان يجحد ان ركيزة هذه الولاية انما هو تعيين الله وعهده.

وليس في وسعه أن يجحد انها زعامة معصومة يسددها وحي الله من جهة، وتحوطها عصمة الرسول من جهة اخرى.

ليس في مقدور امرئ مسلم ان يجحد شيئاً من هذا كله بعد أن نطق به القرآن وأشادت به نصوص الاسلام. والتفسير الصريح لهذا أن الحكومة الالهية اساس من اسس الاسلام بل وعقيدة من عقائده، ولا يشك في ذلك أي مسلم يحتفظ باسلامه.

واذن فأي مساغ لهذه الريبة التي يبديها بعض المسلمين في القول بالامامة؟ في هذا القول الذي ينفرد به الاماميون. اي مساغ للريبة فيه بعد ثبوت كل هذا؟

لا بد من الحكومة الالهية. هذا قدر يشترك به جميع المسلمين و يعترفون به كلهم على السواء.

وقصارى ما ينفرد به الشيعة الاماميون عن اخوانهم من سائر المسلمين: ان هذه الحكومة الالهية لا يسوغ ان ينقطع أمدها بموت الرسول (ص) بل يجب أن تخلد مع خلود الاسلام.

مع خلود الاسلام لأنها قاعدة من قواعده.

ومع بقاء المجتمع المسلم لأنها ضرورة من ضروراته.

ومع استمرار الحياة لأن الحكومة الالهية ضرورة لدين الاسلام ودين الاسلام ضرورة للحياة.

هذا ما ينفرد به الشيعة الاماميون عن اخوانهم من سائر المسلمين فهل يصح أن يجعل مثاراً للتهم؟.

وما يصنع الشيعة اذا اضطرتهم طبيعة الاسلام ذاتها الي هذه العقيدة؟.

وما يعملون إذا قادتهم نصوص القرآن و صحاح السنة ودلائل العقل؟ ما يعملون اذا قادتهم هذه الحجج كلها قوداً الى هذه النتيجة؟.

والعصمة التي يشترطونها في امام المسلمين، هل تخرج به عن مصاف البشر وتلحقه بعداد الآلهة كما يشتهي أن يقول المتقولون؟!.

هل العصمة في ذاتها جزء إلهي، حتى إذا اشترطناها في الخلافة فقد قلنا في الخليفة بالحُلول؟! وهل للألوهية أجزاء لتعد العصمة واحداً من هذه الاجزاء ولتستطيع هذه الفرية أن تقف على قدم؟!.

ألم تشترطها جمهرة المسلمين في رسالة الرسول؟.

فهلا كانت لها هذه اللازمة هناك ؟ وهلا نقدها أحد هناك بمثل هذا النقد؟.

العصمة شرط في رسالة الرسول لدى جمهور المسلمين، وان اختلفت فرقهم في تحديد هذا أهو العصمة في عهد النبوة فقط أم العصمة حتى فيما قبل هذا العهد؟.

ثم أهو العصمة في التبليغ خاصة، أم العصمة عن كبائر الذنوب ايضاً، أم العصمة عن الزيغ في كل ما يقول وفي كل ما يعمل وفي كل ما يسروفي كل ما يعلن؟

واخيراً أهو العصمة عن تعمد الوقوع في هذه المهاوي أم العصمة حتى عن السهو والغفلة كذلك؟.

وشيعة اهل البيت وحدهم يقولون: الشرط في رسالة الرسول وفي امامة الامام العصمة فى كل ادوار الحياة من جميع اصناف الذنوب ومن جميع انواع النقائص، حتى من الخطأ والغفلة والسهو.

والعصمة رصيد نفساني كبير يتكون من تعادل جميع القوى النفسانية، و بلوغ كل واحدة

منها اقصى درجة يمكن أن يبلغها الانسان، ثم سيطرة القوة العقلية على جميع هذه القوى والغرائز والركائز سيطرة كاملة حتى لا تشذ عنها في امر ولا تستقل دونها في عمل.

هذه الحصانة الذاتية التي يرتفع بها الانسان الأعلى عن الا تضاع في طبيعته ويمتنع بها عن الانــزلاق في ارادتـه، ثم عـن الانحرافات والالـتواءات التي تترسب في منطقة اللاشعور، وتتحول ــ كما يقـول العـلماء الـنفسـانيـون ــ عقداً نفسية تتحكم في دوافع المرء وفي سلوكه وفي اتجاهاته وملكاته، وتسوقه من حيث لا يريد الى النشوز عن الحق والشرود عن العدل.

هـذه الحصـانـة الذاتية التي توقظ مشاعر الانسان الكامل فلا يغفل وتعتلي بملكاته وأشواقه فـلا يـنـزلق ولا يكبو، والتي تكفل له صحته النفسية من كل وجه، هذه هي العصمة التي يشترطها مذهب اهل البيت في الرئيس الأعلى لحكومة الاسلام.

وفي ظني أنه شرط بمنتهى الجلاء كما أنه بمنتهى الحكمة.

بمنتهى الجلاء بعـد أن كشفت مدارس التحليل النفسي حقيقة هذه الرواسب، وأبانت مـدى تـأثيرها في سلوك الانسان ووجهته في الحياة، وبمنتهى الجلاء بعد أن وضعت التربية النفسية الحديثـة طرقـهـا لحل هـذه العقد، وللابتعاد بالنشء عن هذه الأزمات. في ظني أنه شرط بمنتهى الجلاء والوضوح بعد أن سار العلم هذا الشوط و فرغ من تقرير هذه النتائج.

من جراء هذا الضعف المتوطن في طبيعة الانسان حين تتعرض له المغريات والمرديات.

ومـن جـراء هـذه الـعـقـد الـلاشـعـوريـة الخـالفة في نفس الانسان من صدماته في الحياة، وانزلاقاته في الارادة، وترديه بسبب الجهل او بسبب الهوى.

ومن أجل طبيعة النظام الذي انشئت لصيانته الحكومة في الاسلام.

ومن أجل غاية هذا الدين الكبرى التي تتصل بها كل جذوره وتستقي منها كل فروعه.

ومـن أجـل الأدلـة الكثيرة الكثيرة التي تجاوزت حدود المئات ودلت على وجوب العصمة في الامام.

مـن جـراء هـذه الأمور كلها قالت الشيعة من اتباع اهل البيت ــ ع ــ بوجوب العصمة في الرئيس الأعلى لحكومة الاسلام. فهل في ذلك مساغ للريبة؟.

* * *

ثم ماذا بعد الاستيقان بهذه المجموعة من العقائد، و بعد الايمان الراسخ بمجملها و مفصلها، والانقياد الكامل لتوابعها ومقتضياتها؟.

لـقـد شـهـد الـبـرهـان لـكـل مـقطع من مقـاطعها بالصدق، وحكمت الفطرة على اكثرها بالثبوت، واستبان العقل صحة النتائج من أجل صحة الموازين فلاشك ولاريبة في شيء منها أبداً.

فماذا بعد ذلك؟ وما هي النهاية الأخيرة؟.

لقد مات من غبر من الناس، وسيفنى الموجود منهم وسيلحق بالقافلة من سيوجد بعد، نعم

وستطوى هذي الحياة وتنطمس معالمها وتعفى آثارها، فهل هذه هي النهاية الأخيرة؟

إذن فأين جلبة تلك الأحكام؟ وأين قعقعة تلك الحجج؟

الأحكام التي وضعها الشرع والحجج التي أقامها العقل وعضدتها الفطرة..

إن الله حكيم... ولا حدّ لحكمته.

وان الله عدل... ولا منتهى لعدله.

وان الله غني.. ولا منقطع لغناه. ولا مراء في ذلك كله.

والله هو مشرع الدين لهذا الانسان. وفروض الدين انما هي اوامره، ومحرمات الدين إنما هي منهياته، وحدود الدين انما هي حرماته. ولا ريب في شيء من ذلك كله أيضاً.

فلو قدرنا ان الموت هوالنهاية. هو النهاية الكبرى، التي ليس وراءها منقلب وليس بعدها مصير؛ لخوى تشريع الله من الحكمة ولحاف عدل الله في الجزاء أو قصرت ملكته عن الوفاء.

وإذن فلا مناص من أن ننتظر وراء الموت منقلباً. منقلباً آخر يوفى فيه المطيع ثواب إطاعته ويلقى المفرط جزاء تفريطه وتضييعه.

لامناص لنا من أن ننتظر وراء الموت منقلباً يكون هو النهاية، مادام الدين حقاً لامراء فيه ومادامت عقائده وهداياته صحيحة لا يسمو اليها ريب، ومادام وجود الغاية الصحيحة هو الفارق بين الفعل العابث والفعل الحكيم.

نعم. وهذا ما عرفه منكرو البعث أنفسهم. فانهم لما أنكروا البعث أنكروا الدين ورفعوا حدوده وأبطلوا أحكامه.

وقد يقول أحد إن الدين انما هو شريعة شرعها الله للمجتمع الانساني، وحكمة الله من هذه الشريعة هي إقامة المجتمع على أمتن الاسس وأحكم القواعد، ورفعه الى اكرم مقامات الفضيلة وأكبر درجات الانسانية، وهذه الغاية الخطيرة دنيو ية خالصة يفيدها المجتمع في حياته هذه متى سار على هدى الله الذي شرع واتبع وصاياه التي امر بها. أما من يتردى مع هواه من الأفراد فيصدف عن أحكام الله و يتبع مساخطه، أما هذا المتردي فيكفيه ببؤرته التي ينحدر اليها عقاباً وهواناً، و ببعده عن الهدف الانساني الأعلى حرماناً.

قد يقول هذا احد لينكر ان الجزاء ضرورة لن تتم الشريعة إلا بها، ولن تنهض الحكمة إلا عليها، ولرد هذه الشبهة يكفينا أن نتذكر ان الوجهة الاجتماعية ليست هي الناحية الوحيدة التي يستهدفها دين الاسلام، بلى هي من الأهداف المهمة فيه وفي كل دين حق، ولكنها ليست كل ما هنالك. فقد عرفنا فيما تقدم كيف يتعهد الدين كل نواحي الانسان وكيف يسع كل جهاته تقويماً وكل صلاته إحكاما وكل صفاته إعلاءً.

ومن ظواهر الانسان أن آماله أوسع من حياته، وهو يعلم بذلك حق العلم حين يفكر في تسلسل آماله وتعقد أسباب الحصول عليها. ومعنى ذلك أن كثيراً من هذه الآمال سوف لا يتحقق

له لا في حاضره ولا في مستقبله، وهي حقيقة يصعب على الانسان جداً أن يذعن بها وأن يقر عليها، ونتيجة ذلك أن ينطلق في شهواته انطلاقا قو يا لا يقبل الحدود، ليحقق لنفسه أوفر قسط يمكنه من الآمال. أن ينطلق هذه الانطلاقة الشديدة اذا هو لم يعتقد البعث ولم يخش أمامه جزاءً ولم يحذر من ورائه رقيباً.

ومظالم العباد بعضهم بعضاً، والدماء التي يسفكها السافكون بغير حق، والحقوق التي يغتصبها الغاصبون بغير عدل، والحرمات التي ينتهكها الظالمون دون مبرر. هذه الأمور التي اهتم الشرع بها فوضع لكل حادثة منها حداً، وجعل على كل من يتعدى ذلك الحد حداً؟ كيف تصان هذه الحدود وكيف تستوفى هذه المظالم اذا نحن لم ننتظر للعدل الأعلى يوماً، ولم نتوقع لاستيفاء التبعات موقفاً؟ و يد العدالة في هذه الحياة الدنيا قد لا تستطيع ان تنال الظالم بشيء وقد لا تملك أن تدينه بتبعة.

و بعد فما أنكل الأفراد من عامة الناس عن التزام القانون والقيام بحدوده والمحافظة على تعاليمه متى علموا ان الغاية فيه انما تخص المجتمع او تخص النوع، ولا غاية فيه للأفراد ولا رعاية لآحادهم وما اقصر القانون في الملاحظة اذا كان يهدر الفرد إهداراً تاماً لمصلحة المجتمع او لمصلحة النوع.

وأخيراً فما أبعد القوانين عن غاياتها اذا لم تكلأها عين حارسة على التنفيذ، وعقوبة محذورة على المخالفة، ما ابعد القوانين عن غاياتها اذا لم تكن لها تلك الرقابة الحازمة من بين يديها، وهذه القوة المرهوبة من خلفها. ان أحكامها لولا هاتان ستنقلب نصائح خاو ية، وإن حكمتها ستتحول فلسفة صامتة. وكم في العالمين من يؤمن بالمثالية لأنها مثالية، ومن يحذر الاسفاف لأنه اسفاف ؟

نعم لا بد لاحترام القانون من الجزاء.

ولا بد للحث على عمل الصالحات من المكافأة.

ثم لا محيص من يوم للدينونة تقاس فيه الاعمال وتنال فيه الغايات وتستوفى فيه التبعات: «والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون»[1].

* * *

كما يحتكم الطفل الصغير في ما بيديه من اللعب، وكما يقيس الاشياء مايجهل منها بمايألف، يستحب بعض الناس أن يحتكم، و يؤثر أن يقيس!.

يؤثر أن يصنع كذلك حتى في ما يهمه من الامور، وحتى في ما ينذره من المخاطر!.

إن هؤلاء لا زالوا اطفالا وان كبروا وشاخوا، وحلومهم وأقيستهم لم تبرح بعد اطفال الحلوم

١ ــ الاعراف: ٨، ٩.

وأطفال الأقيسة...

وقد تناول هذا الفريق عقيدة البعث فيما تناوله من الأمور، فلم يبتعد عن هذه الحدود، ولم يتنكب عن هذه الخطة.

قالوا: نجد الأنام يموتون ثم لا يعودون الى الحياة، ومن مات من الأنام رمّت عظامه وتوزعت اشلاؤه حتى تصبح العين منه أثراً، وحتى يعود الأثر عدما.

واذن فلا حياة بعد الموت ولا اجتماع للاجزاء بعد التفرق.

بعيد. بعيد، ومحال محال أن يحدث ذلك وأن يتحقق. لا ننا لم نبصر بمثله ابداً، ولم نعهد وقوعه في سوالف القرون: «أ إذامتنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون. لقد وعدنا نحن و آباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين»[1].

«وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد. أفترى على الله كذباً أم به جنة...»[2].

بعيد ومحال ان نبعث بعد الموت، وكيف حياة الاجسام وقدعادت هباءً؟ وكيف تأليف ذراتها وقد ذهبت في فجاج الأرض أشتاتاً؟ ومن هذا العليم بموضع كل ذرة القدير على رد كل هباءة، الخبير بحصة كل عضو منها عندالتركيب وبمكان كل واحدة منها قبلَ التفرق؟

من هذا القادر المحيط ليرد الاجزاء المتباعدة جسما، و يعيد الجسم التالف حياً؟: «أإذا ضللنا في الأرض أ إنا لفي خلق جديد؟»[3].

و يفتنون في احتجاجهم كثيراًو يذهبون بعيداً اذ يقولون: «إن هي إلا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين. فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين»[4] وكأنهم في قولتهم هذه يحذرون موتة ثانية فهم ينكرون من أجلها حياة ثانية! وحجتهم هذا التعجيز التافه: فأتوا بآبائنا.

أتدّعون أن الموتى ينشرون لحياة ثانية، ينشرون بعد موتتهم الاولى؟

أتقولون هذا جادين غير هازلين؟.

إن هذه دعوى غبر عسيرة البرهان. فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين.

أحيوا لنا من غبر من أسلافنا لنعرف مبلغكم من الصدق.

وقد جمع القرآن كثيراً من أقاويلهم وعرض انواعاً من حجاجهم. ولعله انما عني بذلك ليري الانسان سقطته في التفكير إذا جمح به التعصب.

متى كان الألف قاعدة ثابتة تحكم بموجبها الاشياء وتناط بها صحة العقائد؟!

١ ــ المؤمنون: ٨٢ ــ ٨٣.
٢ ــ سبأ: ٧، ٨.
٣ ــ الم السجدة: ١٠.
٤ ــ الدخان: ٣٥، ٣٦.

ثم متى كان الاستبعاد دليلا على الاستحالة؟!

لقد كان المرء جنيناً في بطن امه، وكان قبل ذلك نطفة وعلَقة. افليس من المضحك ان يقول وهو في تلك الادوار ـــ ولنفرضه هناك عاقلا له رأي وله قول ـــ اليس من المضحك ان يقول في تلك الأدوار: ليس لي مستقبل يأتي وراء هذا الحاضر، لأني لم اجد اثراً لهذا المستقبل؟.

* * *

«أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه»[1] بعد تمزقها بالموت وصيرورتها رميماً فهو لهذا الحسبان ينكر البعث و يحيل وجوده ويجحد توابعه؟.

إن كان هذا هو حسبانه وهذه هي تعلته فقد اخطأه الوهم وأضله التعليل.

ولم لانجمع عظامه؟ ولم يخال هو ذلك؟ ولم ينكر قدرتنا عليه؟.

« بلى قادرين على أن نسوي بنانه»[2].

أرأيت البنان بدقة تركيبها وبراعة تصويرها، حتى لاتجدها في انسان تشبهها في انسان آخر؟ أرأيت البنان بخطوطها ومدوراتها ومميزاتها؟ إننا قادرون على ان نسويها بعد العدم ونضم اجزاءها بعد التفرق، حتى ليست تختلف عن وجودها الاول في مادة ولا في شكل ولا في مقدار.

هكذا يجيبه القرآن على حسبانه.

إنها دعوى تقرع بدعوى. ولكن دعوى القرآن ليست مجردة عن الدليل، فلقد علم الانسان بفطرته أن له خالقاً سوّاه بعد العدم فلن يشك أبداً في قدرة ذلك الموجد، وليس أدل على القدرة من الايجاد، إذن فلا مسرب لذلك الوهم الى يقينه، وإن ذهب وهمه الى ذلك فهو وهم زائل غير مستقر، تذهب به و بآثاره لفتة واحدة لمظاهر القدرة الموجودة، فليس وهما ثابتاً يوجب الحيرة للانسان، ولم يكن هو العلة المباشرة لإضلاله.

«بل يريد الانسان ليفجر أمامه»[3] لهذه البغية ينكر الانسان النشور وينكر الجزاء وينكر توابعها ولوازمها. يريد لينطلق في فجوره، ويمعن في غروره فلا يلذ له ان تقيد إرادته شريعة أو تحول دون شهواته عقيدة. يريد ليندفع مسعوراً منهوماً فلا يلقى أمامه رقيباً من دين، ولا يخشى من ورائه حسيباً من جزاء، فهو يختلق الوهم ويجحد البعث، وإذا لم يكن بعث فلا جزاء ولا حظر ولا خشية ولا رقابة. من أجل هذا القصد ينكر الانسان النشور وما يتبع النشور.. «يسأل أيان يوم القيامة»[4].

يسأل هكذا كمن لايعنيه من أمر القيامة شيء، وكأن مواقف هذا اليوم العظيم وشدائده إنما اعدت لسواه، أو كأنه خرافة يسأل عنها للتندر، و يتعمد ذكرها لِلَّمْزِ.

١ و ٢ ـــ القيامة: ٣، ٤.

٣، ٤ ـــ القيامة: ٥، ٦.

هذه حطة المرء حين تناول عقيدة البعث في التفكير.

وحين فلسف إنكاره فهل ارتفع عن هذه الحطة؟.

الواقع أنه لم يستطع ذلك وان ادعاه وأصر عليه وأمعن في إصراره.

أنكر الروح لينكر بقاءها بعد الحياة ثم عودتها الى الجسم بعد الموت.

وانكر اتساع العناصر الموجودة في الكون لحياة اخرى بعد انقضاء الحياة الأولى.

وأحالها لأوهام دارت على لسان القديم وعدّلت في فكرة الجديد.

صنع كل هذا ليثبت أن موت الانسان هو منقلبه الأخير. ثم أخرسه ان قام العلم. العلم التجريبي الحديث يذري شبهاته واحدة واحدة.

أما بعد فان الدلائل التي أثبتت ضرورة وجود الدين، أثبتت ضرورة النشور وضرورة الجزاء، لأن الدين لن يكون صحيحاً اذا لم تتحقق له غاية.

وان الشواهد الكثيرة التي أبانت صدق الاسلام أبانت كذلك صدق هذه الدعوى، لأنها اصل من اصوله وركن من اعظم اركانه.

وإن الكتاب الذي دل باعجازه على نبوة محمد (ص) وعلى صدق دعوته دل باعجازه ايضاً على صحة هذه العقيدة. لأنه اعلن بها في اكثر سوره ولمح اليها في اغلب آياته.

* * *

ويحاول بعض الكتاب ان يقلل من جدوى هذه العقيدة، عقيدة الجزاء الأخروي. يحاول ان يقلل من جدواها، ومراده بالطبع ان يتخذ من ذلك وسيلة لانكارها.

يقول: «إن الدوافع التي يستعين بها هذا الضمان اقل تأثيراً من الدوافع التي يتأثر بها السلوك من ناحية رقابة الرأي العام، لأنه يعتمد على جزاء وعقاب مؤجلين، وقد يتعرضان للشك في قيام الميزان الذي سيحاسب الناس به».

كذا يقول هذا الكاتب، وهو يفرض شيئاً غير ما تفرضه الأديان في عقيدة الجزاء، وغير ما يفرضه دين الاسلام منها بالخصوص.

ان الاسلام يفرضها عقيدة يقينية ثابتة راسخة لا بد من الاستيقان بها، ولا بد من الايمان الوطد المؤكد قبل التوجه لأي عمل تأمر به الشريعة، وقبل العزيمة على أيِّ سلوك ينصح به الدين.. عقيدة يقينية ثابتة، جحودها يوجب الكفر، والامتراء بها يقتضي الخروج عن الدين واستحقاق العذاب المهين. و نصوص القرآن والسنة تتعهد تنمية هذه العقيدة وترسيخها وتوجيه المشاعر والعواطف نحوها، وهي تكرر هذا وتفتنّ في تكراره وفي ربط الأحاديث به عند ذكر كل حكم وعند تقديم كل إنذار. فلن يغفل المسلم ابداً ولن يشك ولن يجحد. واذا كان العقاب مؤجلا فان فكرة هذا العقاب ورقابة المحاسب العظيم الذي لا يغفل لحظة، ودقة الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، و الضمير اليقظ الواعي الذي ايقظته هذه العقيدة وارهفت حسه واطلقت حكمه، كل

هذه تراود فكرة المسلم في كل آن وتحاسب ارادته عن كل خطوة.

فمتى تكون الغفلة إذن، ومتى يكون الشك؟.

* * *

وطرائق القرآن في الاستدلال على هذه العقيدة هي طرائقه في الاستدلال في كل موضع، وحججه عليها هي حججه في الاشراق وقوة العرض و بداهة المقدمات، والقرآن حين يحتج لإ ثبات امر لايبقي فيه منفذاً للشك ولا مورداً للانتقاض.

والباب الطبيعي الذي ينفذ منه العقل الى هذه العقيدة، والسند القوي الذي يتكئ عليه في تثبيتها هوفكرة الغاية.. الغاية التي بها يفترق الفعل الحكيم عن الفعل العابث.

ينظر الانسان في كل ما حوله من اشياء هذا الكون الفسيح الأطراف البعيد الاكناف، في كل ما حوله مما دق حتى انحسر عنه البصر لضآلته، او عظم حتى عجزت الرؤ ية ان تحيط به لترامي ابعاده، مما قرب حتى كاد القرب أن يدمجه في حدود الرائي، أو بعد حتى أوشك البعد أن يلحقه بالوهم.

في كل موجود يزحم هذا الفضاء الرحب، وفي كل قانون يحكم هذي الموجودات المتنوعة.

ينظر الانسان في كل هذه فلا يلفي إلا شيئاً يتجه إلى غاية.. إلى غاية عتيدة أعدت هي له وأعدّ هو لها منذ التكوين: «ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى»[1].

فلماذا يجهد الانسان أن ينكر الارتباط بالغاية حين يعود به التفكير الى ذاته؟ «أيحسب الانسان أن يترك سدى»[2] أيحسب هذا لنفسه وحده دون بقية موجودات الكون، ودون سائر منشآت الطبيعة. أن يترك سدى هكذا مهملا دون غاية ولا نظام ولا رابط ولا ضابط؟!.

لقد وجد الانسان واستقام كيانه والتأمت عناصره على أدق حكمة وأتم وضع وأحسن تصوير، وهو غير مختار في شيء من ذلك، ولا محيص من أن تكون لوجوده هذا المتقن غاية، لأن الغاية ـ كما قلناه مكرراً ـ هي الفارق بين العبث والحكمة. ولا محيص من الطريق التي يسلكها الى تلك الغاية، وقد استوفينا شرح هذا في مستهل الكتاب فليعد اليه القارئ إذا شاء. وحركة الانسان هذه التي نريد أن ننزهها عن العبث اختيارية ولا شك، فغايتها غاية اختيارية ولا شك ايضاً، والسبيل المؤدية الى الغاية سبيل اختيارية.

واذن فلا محيد من الجزاء، ولا محيد عن البعث ولا محيد عن اليوم الذي يلقى فيه كل أحد جزاء ما عمل.

أيحسب الانسان أن يترك سدى؟ هذا هومساق البرهان في هذه الآية، استفهام فيه معنى

١ ـ الاحقاف: ٣.

٢ ـ القيامة: ٣٦.

الانكار، وطيّ له دلالة النشر، وإن بعض منكري النشور ليذهب هذا المذهب، و يعتبره رأياً و يتخذ الايمان به عقيدة، و يصر على التمسك به و يتهالك في الدفاع عنه ولكن الآية الكريمة تسمي ذلك حسباناً، وتخرجه مخرج التردد والريبة، فما كان للانسان وهو المفكر العاقل أن تتردى به الأوهام الى هذا الحضيض، ولئن زعم هذا زاعم فان كل صامت وناطق في الوجود يرد عليه هذا الزعم.

هذه كبرى القياس كما يقول الأساتذة المنطقيون، وهي مطوية يدل عليها الانكار، أما بقية المقدمات التي يفتقر اليها تقويم الدليل فهي جلية وهي ليست موضعاً للجدل.

وبمثل هذا الايجاز و بنظير هذا التخريج يعرض القرآن دليل الغاية هذا في سورة (المؤمنون) فيقول: «أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون»[1].

أما في سورة الروم فانه يذكره في شيء من التفصيل، فقد قال في معرض الحديث عن غفلة اكثر الناس: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى»[2].

هذا القانون العام المتبع في السماوات وفي أجرامها ومداراتها، وفي الأرض وطبقاتها وعناصرها، في كل ما تقله الأرض وما تظله السماء من حي وجامد ونبات، هذا القانون الذي لا يستثنى منه شيء من هذا العالم الكبير، قانون الارتباط بالغاية والاتجاه إليها، ألم يتفكر هؤلاء الغافلون عن الآخرة، الجاحدون للنشور، ألم يتفكروا في أنفسهم أنهم أشياء كهذه الاشياء يعمهم ما يعمها من حكم، و يشملهم ما يشملها من قانون؟ اولم يتفكروا أن فاطر هذه المنشآت الحكيمة يمتنع عليه أن يخلق الانسان بلاغاية وأن يتركه سدى دون وجهة، لأنه حكيم يمتنع عليه العبث، كريم لايجوز عليه البخل، عدل يستحيل منه الظلم؟ أولم يتفكروا في ذلك لعلهم ينتبهون من الغفلة و يقلعون عن الجحود.

وفي سورة (ص) يعرض القرآن هذا الدليل ايضاً إلا انه هاهنا اوفى شرحاً واكثر تفصيلا من هذه ومن تلك.

«... إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب، وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا، فو يل للذين كفروا من النار، ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ام نجعل المتقين كالفجار»[3].

سبيل الله واضحة المعالم ممهدة المسالك، وهي مؤدية بسالكها الى الفوز ولا شك. أما الذين يضلون عن هذه السبيل فانهم يستحقون العذاب الشديد، واستحقاقهم ذلك ليس لضلالهم عن

١ ــ المؤمنون: ١١٥.
٢ ــ الروم: ٧؛ ٨.
٣ ــ ص ٢٦ ــ ٢٨.

السبيل فحسب، بل لانهم نسوا يوم الحساب، ونسيان يوم الحساب خطيئة من شأنها انها تضاعف الخطايا وتضخم عليها الجزاء.

هؤلاء ناسون ليوم الحساب لا منكرون، غير ان نسيانهم إياه نسيان عملي، والنسيان العملي ليوم الحساب هو الخطر الماحق الذي يصاب به المكبون على الآثام المولعون بالاجرام.

هم ناسون له في العمل، ولعلهم ذاكرون له في الشعور والعقيدة، وما كان يوم الحساب لينسى، وما كان يوم الحساب ليغفل، وإن قانون الارتباط بالغاية ليذكر من نسي و ينبه من غفل.

فالسماء والأرض وما بينهما من موجودات لم تخلق جميعها ولم تترتب طرائقها ولم تقم حركاتها، ولم تجعل قوانينها، لم يوجد جميع ذلك فيها ولا في ابعاضها إلا بالحق. إلا لغاية، والحكمة والقصد والاتقان والارتباط بالهدف الأعلى امور بادية في كل وجه وعلى كل شيء، فلاينبغي ان تنكر، ولا ينبغي ان يغفل عنها، وليس للانسان بمفرده سبيل غير هذه السبيل.

بلى هنا من ينكر ذلك... من ينكر الارتباط بالحكمة والارتباط بالهدف... من يقول ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا و ما يهلكنا إلا الدهر.

حياة وموت...

هذا هو القانون، وهذه هي الغاية.

كما تستودع البذرة في الأرض فتنمو ثم تفرع وتثمر، ثم تموت وتعود هشيما، يزرع الانسان كذلك نطفة، ثم يولد طفلا، و ينمو و يشب، و يقترن و يلد، ثم يموت و يصبح رميا، و ينتهي خبره ويَمَّحي أثره.

ثم لاشيء. ثم لاغاية غير هذه الغاية.

هنا من يقول ذلك. والقرآن الكريم يدعوه ظناً هنا، و يدعوه ظناً كذلك في آيات اخرى ذكره فيها، يدعوه ظناً، إذ ليست له حرمة العلم، وليست له حرمة الفكر الصحيح، وليست لقائله حرمة المفكر الحر.

وما رأي يعصب صاحبه عينيه عن النور ليرى، و يغلق فكره عن البرهنة ليخال؟!.

ليس هذا ضلالا في العمل، وإنما هو ضلال في العقيدة وتبلد في الشعور.

هو كفر، وو يل للذين كفروا من النار.

ليس من الحكمة أن ينشأ موجود لا لغاية. وليس من الحق أن يترك الانسان لا لرشد، وليس من العدل أن يجعل المؤمنون العاملون للصالحات والكافرون المفسدون في الأرض سواء في العقبى، سواء في الجزاء.

إن الله خلق هذين الفريقين من الناس على السواء، وآتاهما التكاليف الموجبة للسعادة والفوز على السواء وأتاح لهما الفرص الكافية لبلوغ الغاية على السواء، فآمن المؤمنون بربهم واتبعوا مرضاته عن بينة، وجحد الجاحدون به وارتكبوا مساخطه عن بينة، وليس من العدل ولا من الحكمة

أن يكونا سواءً في الجزاء.

* * *

ودليل القدرة.

القدرة المطلقة المهيمنة التي لا يعروها وهن، ولا يقفها حد، ولا يتناهى بها أمد، والتي ابتدأت الاشياء لا من شيء، وصورتها لا على مثال، ثم لم يعجزها كون، ولم تستظهر بوزر، ولم تستعن بآلة ولا باجالة فكر ولا بسابق تجربة.

القدرة التي ليس كائن اولى بها من كائن، ولا مكان ادنى اليها من مكان ولاحين انسب بها من حين، ولا مُعقد ابطأ عليها من بسيط.

القدرة الكاملة الشاملة، وما هذه السماوات بما لها من نُظُم وتدبير، وما هذه الأرض بما فيها من خلق وتقدير، وماهذه المنشآت الكونية بما فيها من بداعة التكوين و براعة التصوير، ما هذه المخلوقات العجيبة الاظل من ظلالها و قبس من شعاعها.

هذه القدرة الفائقة الغالبة لا يمكن البتة ان تعجز عن إعادة الحياة بعد الموت

لا يمكن ذلك مطلقاً: «اولم يروا ان الله الذي خلق السماوات والارض ولم يعيَ بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير»[1].

ان الادلة مبثوثة في كل وجهة وان الدلالة مستبينة لكل ناظر فعلى م الشك اذن، وفيم الجدل؟!.

وانه لاسفاف في الحكم وسفه في الرأي ومناقضة في القياس ان يحس المرء دلائل هذه القدرة ملء الاكوان وملء الامكان ثم يرتاب و يتردد!!.

وما خلق الناس وما اعادة الحياة ازاء قوة قدرت الافلاك وانشأت الأملاك ؟ «لخلق السماوات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لايعلمون»[2].

اجل وما حياة بعد موت، بل وما حياة قبل موت إزاء هذه القدرة المهيمنة المسيطرة؟.

انها كلمة من كلماتها، واشعاعة من اشعاعاتها: «ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير»[3].

والكون كله كلمة وإشعاعة!!

كلمة تصدر من قائلها فلا تتخلف، ويمتنع ان تتخلف: «انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون»[4].

١ ــ الاحقاف: ٣٣.
٢ ــ المؤمن: ٥٧.
٣ ــ لقمان: ٢٨.
٤ ــ النحل: ٤٠.

ما أقلق فاء الجواب هنا، وما أجمل موقعها في الوقت ذاته.

ما أحرج موقفها، إنها تروم أن تعيق المعلول عن علته فلا تملك!.

وما أجمل موقعها، انها توضح في التابع مفهوم التبعية، وتعلن فيه سمة الخضوع والانقياد.

لا محيد للتابع من أن يخضع.

ولا محيد له من أن يتأخر عن متبوعه قيد خطوة.

إن هذا التأخر شعار العبودية الذاتية، ولا بد من إعلان هذه، ولا بد من الاعتراف بها.

وصور هذا الدليل في الكتاب الكريم متشابهة متقاربة، فالصورة السابقة التي عرضها في سورة الاحقاف هي ذات الصورة التي يظهرها في سورة سبأ، والتي يقدمها في سورة الاسراء، ولا اختلاف بينها إلا في شيات يوجبها العرض، وسمات يستدعيها السياق.

أما في سورة يس فانه يتحدث عن الانسان هذا الخصيم المبين الذي يغفل حتى عن نفسه وهو يجادل عن هواه، يتحدث عن هذا المخلوق المتهافت فيقول: «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى، وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون»[1].

هكذا يبتدئ العرض. يحيي العظام من أنشأها أول مرة. من أنشأها من نطفة، فهل يشك أحد في استطاعته؟.

وقدرة هذا الخالق مطلقة عامة لا تحصرها حدود ولا تقام حولها سدود، فهو بكل خلق عليم، بكل خلق، و بكل مخلوق. فلا تغيب عن علمه ذرة من هذا الرميم. من هذا الرميم الذي كان قبل قليل عظاما، وكان قبل هذا جسما، وكان حياً وكان انساناً ناطقاً، وكان قبل كل أولئك تراباً.

لا تغيب عن علمه مواضع هذه الذرات كلها من السماوات أو من الأرض بعد الانفصال، ولا تغيب عن علمه مواضعها من الكائن قبل التحلل... فهل يشك الانسان بعد؟..

والشجرة الخضراء التي تقطر بالماء كيف يجعل منها ناراً محرقة تأكل اليابس والرطب؟.

أليس هذا أمراً عجباً؟!

ألا يدل على قدرة فائقة تأمر فلا تعصى، وتقدر فلا تخالف؟!.

والسماوات والأرض، هذان الينبوعان العظيمان للمدهشات؟!. وما فتئ العلم يكشف كل يوم من عجائبهما جديداً ثم يتطلع الى خفي. السماوات والأرض وعوالمهما التي لا تحد، وعجائبهما

١ ــ يس: ٧٨ ــ ٨٣.

التي لا تحصى ألا يقبلها هذا الانسان اللجوج دليلا واحداً على قدرة جبارة وعلم محيط؟.

أليس القادر على انشاء هذه المنشآت قادراً على اعادة الحياة بعد الموت؟

وكيف يعيى وكيف يعجز؟.

وكيف يؤوده وجود أو حفظ موجود؟.

وإنما هي إرادة.

وإنما هي اشراقة.

وانما هي زجرة، زجرة واحدة، فاذا كل شيء قائم. واذا كل شيء شاخص. واذا كل شيء مستنير!: «إنما امره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون».

«فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون».

وفي سورة الواقعة بسط لهذا الدليل واستعراض لبعض مجالي القدرة العظيمة،: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون...

افرأيتم ما تمنون. ألأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون؟.

أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟.

أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون؟.

أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها ام نحن المنشئون؟»[1].

إن هذه كلها مجالي لقدرة لا تتناهى وأدلة على قادر لا يحد علمه ولا يضعف سلطانه.

وفي سورة الرعد وفي سورة المؤمنون وفي مواضع أخرى عديدة تذكر هذه البرهنة بين إجمال وتفصيل.

* * *

والنشأة الأولى؟.

إنها لهي موضع الغرابة، وإنها لهي مثار العجب، فلينكرها من يولع بالانكار.

هي أحق بالاستغراب وأدعى للتعجب، فهي أحرى بالجحود إذا لم يكن له محيص من الجحود.

إنسان ينشأ من لاشيء...!

من تراب...!

من نطفة..!

من جرثومة صغيرة مَنَوِيَّةٍ لا تدرك بالطرف.

لا تدرك إلا بمجهر.

١ ــ الواقعة: ٥٧ ــ ٧٢.

إلا بآلة تضاعف حجمها أضعافا كثيرة.

تلتقي ببويضة اكبر منها في الجرم، اكبر منها كثيراً فان العين المجردة تستطيع ان تراها[1] تلتقيان في قرار مكين، فتتحدان وتتطوران، وتقع المعجزة، ويخلق الكائن الغريب الذي يجهد ليتعرَّف أسرار الكون، وأسرار الايجاد، وأسرار النطفة التي منها خلق، والسبل التي فيها درج، والطرائق التي بها اكتمل، واسرار نفسه، وأسرار جسمه، لحمه ودمه، وعصبه وقصبه والياف وغدده، واجهزته وانسجته، وجزيئاته وخلاياه. والذي يسخر قوى الطبيعة. و يفسر غوامض التكوين، ويمضي دائباً جاهداً يتعرف و يفسر و يستولي و يسخر.

إنها لهي موضع الغرابة حقاً، وإنها لهي مثار العجب، فلينكرها الانسان إذا لم يكن له محيد من الانكار.

غير أن المعجزة وقعت ولا شك في وقوعها. فقد وجد الكائن، وحقت الكلمة ونفذت المشيئة.. فبماذا يمترى الانسان إذن؟.

أبإعادة الحياة له اذا طرأ عليه طارئ الموت؟.

أبالنشأة الثانية بعد ان ايقن بالنشأة الاولى؟!

ان هذه سقطة لا تليق بمفكر!

ومن ذا يرتاب في أن القادر على الابتداء قادر على الاعادة؟!

من يرتاب في ذلك من العقلاء وان الحكم فيه لفي حدود البداهة؟ والانسان يذهل عن نشأته الاولى حين يشك في نشأته الأخرى، والقرآن يذكر منه ناسياً أو ينبّه غافلا حين يقول: «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي انشأها أول مرة...»[1] أو حين يقول: «ويقول الانسان أإذا مامت لسوف اخرج حيا؟ أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا»[2]. ألا يتذكر فيستريح فان الشك عناء لا تتحمله النفوس المتزنة؟.

ومن الناس من لا يؤمن بالحق ولو فاجأته بالف برهان.

لا يؤمن لأنه يلتذ بالشك و يتشهى الجدل. واعسر الادواء داء يقلب حسَّ المريض و ينتكس بشعوره حتى يصبح لذّة من لذائذه وشهوة من شهواته...، واكثر أدواء النفس من هذا

١ — (فالخلية المنوية البشرية تتراوح في الطول بين خمسين وستين ميكرون (والميكرون) جزء من الف جزء من الملمتر، فلا تراه العين المجردة مطلقا. واما بويضة المرأة فيمكن رؤيتها بالعين المجردة ولكن بصعوبة.) الزواج المثالي تاليف الاستاذ فان دفلد، وتعريب الدكتور محمد فتحي ص ٢٣٤.

وفي ص ٢٣٧ من المصدر نفسه: (و يقذف في كل جماع في المهبل ما يتراوح عدده بين ٢٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون خلية منوية تموت جميعاً عدا خلية واحدة تسبب الحمل، و يحدث هذا دائما في كل جماع الا اذا تكررت مرات الجماع بسرعة بعد قدف منوي سابق).

وفي كتاب الوراثة والبيئة تاليف الدكتور علي عبدالواحد وافي ص ١٥: «يبلغ قطر البويضة جزءاً من مئة وخمسة وعشرين أو مئة وثلاثين جزءاً من البوصة. وخلية الذكر اصغر منها بثلاث مئة ألف مرة».

١ — يس: ٧٨، ٧٩.

٢ — مريم: ٦٦، ٦٧.

النوع الفاتك. وشهوة الجدلِ طبيعة منكوسة مقلوبة غصت بالعلم فاستساغت الجهل، وشرقت بالبرهان فاستمرأت الجدل!!.

من الناس من لا يؤمن لا لشيء، إلا انه لا يهوى الايمان ولا يستلذ طعمه. فاذا صدمته قوة البرهان لم يزد على أن يحرك رأسه حركة مبهمة مجهولة لا يدري ما معناها. فلعلّها حركة اضطراب للمفاجأة. ولعلها حركة عناد اكتظت به النفس فهو يروم التنفيس، ولعلها حركة تصديق مباغتة من حيث لا يشعر ومن حيث لا يريد، ولعلها مزيج من كل أولئك فكل أولئك يطلب أن يكون..

«وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنالمبعوثون خلقاً جديداً؟. قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم، فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذي فطركم أول مرة. فسينغضون إليك رؤوسهم و يقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً»[1].

أرأيت هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، بغتهم البرهان القويّ الدامغ فانغضوا رؤوسهم، وانغاض الرأس هو تحريكه استهزاءً أو تعجباً كما يقول المفسرون. او لمعنى سواهما كما قد يفهم من الملابسات.

وهذا التنزل المفاجئ السريع على ماذا يدل؟.

فلقد كانوا بادئ بدء مصرين خصمين، وكانت لهجتهم في الخصام عنيدة شديدة، وهاهم الآن و بعد فترة جد قصيرة يسألون هذا السؤال السادر الحائر عن ميعاد البعث (متى هو؟) كمن قد آمن بالبعث فهو يسأل عن ميعاده!.

لعل الجواب أذهلهم عن أنفسهم وعن المخبآت الكثيرة التي شحنت بها صدورهم وملئت بها آفاقهم. لعل الجواب أذهلهم عن ذلك فكانت الحيرة وكان السّدر، وكان الأضطراب المفاجئ والسؤال المرتبك.

وجواب هذا السؤال الغامض الحائر يجب ان يكون من هذا النوع الذي يملأ قلب السائل فزعاً و يزيده ذهولا، من هذا النوع القصير الحازم يدني يوم البعث من السائل و يضع أهواله بين عينيه.

عسى أن يكون قريباً.

عسى ان يكون قريباً فلابد من الحذر، ولا بد من اخذ الأهبة.

وما يدري الانسان؟ لعله في آخر برهة من حياته، وإذا انتهت به الحياة فقد وقف على ابواب البعث وحضره أول أهواله.

هكذا يساق برهان النشأة الأولى في هذه الآيات موجزاً لا تفصيل فيه.

فطركم أول مرة..

١ ــ الاسراء: ٤٩ ــ ٥١.

أنشأها أول مرة..

خلقناه من قبل ولم يك شيئا..

هكذا يساق حين يراد به تذكير ناس أو تنبيه غافل. اما اذا استحكم النسيان وضربت جذوره وامّحت آثار العلم واستحال التذكر فلا معدى عن التفصيل.

«يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة، لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً...»[1].

وعلى م ترتابون في أمر البعث؟ ولم تمترون؟.

ألأنكم ستكونون ترابا بعد الموت؟.

تراباً؟

ولم يستحيل أن يكون التراب نواة حياة ومبدأ تكوين انسان؟.

ألم تكونوا تراباً من قبل، ثم أصبحتم أحياءً وأناسي؟.

ولا أعني نشأة الانسان الأول فنسبنا الى التراب أقرب من ذلك وأقصر.

من التراب يتكون النبات، ومن النبات يتغذى الحيوان ومن لحم الحيوان وثمار النبات يتغذى الانسان، ومن عصارة هذه الأغذية تتكون النطفة التي منها نخلق والخلية التي عنها نتطوّر.

وكلتا النشأتين ضم عناصر وتأسيس خلايا ثم إقامة بناء ونفخ حياة... وفارق النشأة الأولى هو هذا التطور الذي خضع له الكائن.. هذه المدرجة التي منها عبر، والسلم الذي فيه ارتقى..

كان تراباً، وهذه جزيئاته الأولى.

ثم كان نطفة، وهي مادته القريبة.

فكان علقة.

فكان مضغة.

ثم تم البناء، وقام الهيكل، و نفخت الروح، وخرج طفلا يبسم للدنيا، و بلغ أشده يكدح فيا، ومرت به أدوار الحياة وتناقلته نواميسها وتلاقفته تياراتها.

إذن فالنشأة الأولى أشد تعقيداً وأعسر متناولا من النشأة الثانية.

أعسر متناولا في المقاييس البشرية، لا في قدرة الله عز اسمه، حيث تبطل الحدود، وتضل المقاييس، وتتساوى النسبة فلا شيء أصعب من شيء ولا تكوين أيسر من تكوين.

من تراب. ثم من نطفة. ثم من علقة. ثم من مضغة تجمد وتشتد وتتصور عظاما وتكسى

١ ــ الحج: ٥.

العظام لحما. هذا السلم الذي يرقاه التراب ليصير إنساناً و بتعبير آخر أدنى الى الصواب، يرقاه الانسان النطفة حتى يكون الانسان الطفل والانسان القويّ الأيّد. فان النطفة تحتوي خلاصة الانسان وخلاصة صفاته وسماته واستعداداته وموروثاته.

هذه حقيقة قررها العلم الحديث واثبتتها تجاربه ومشاهداته فلا مراء فيها ولا لبس، وفي القرآن الكريم: «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين»[1].

وموضع الاعتبار من هذا الوحي الكريم هو قوله جعلناه نطفة. جعلنا الانسان هذا المخلوق الذي أنشأنا جنسه من قبل فابتدأناه من سلالة من طين. جعلنا الانسان هذا بخصائصه وفوارقه نطفة في قرار مكين، وأعددنا له المنهاج الطبيعي الذي لا يحور، فارتقى الانسان النطفة وارتقت معه الخصائص والفوارق فكان علقة ثم كان مضغة، ومر في طريقه دائباً لا ينحرف ولا يتأخر، ولا يكل ولا يهدأ حتى إذا أعدته الطبيعة للهدف، وأدنته الرحلة من الغاية أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

أما كيف اتحدت الجرثومتان (جرثومة الذكورة وجرثومة الانوثة) فكانتا خلية واحدة تحمل خصائص الكائن وخوارق التكوين وعجائب القدرة فهذا ما أدع بيانه الى الدكتور الكبير (الكسيس كاريل) في كتابه (الانسان... ذلك المجهول).

: «في وقت الحيض ينفجر الكيس المشتمل على البويضة، ثم تبرز البويضة فوق غشاء بوق فالوب، فتنقلها السيليا (الأهداب) المتحركة للغشاء الى داخل الرحم وتكون نواتها قد تعرضت في تلك الأثناء لتغير هام. ذلك أنها تكون قد قذفت بنصف مادتها ــ او بعبارة اخرى ــ بنصف كل كروموسوم، وعندئذ يخترق الحيوان المنوي سطح البويضة، وتتحد كروموسوماته التي تكون فقدت أيضاً نصف مادتها بكروموسومات البويضة. وهكذا يولد مخلوق جديد. إنه يتألف من خلية واحدة طعمت فوق مخاط المهبل، وتنفصل هذه الخلية الى جزأين ثم يبدأ نمو الجنين»[2].

وأما أن هذه الخلية الواحدة المطعمة تحتوى على جميع صفات الكائن وجميع سماته واستعداداته وموروثاته فقد تحدث عنه الاستاذ (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فقال[3].

«كل خلية ذكراً كانت او انثى تحتوى كروموزومات[4] وجينات (وحدات الوراثة)

١ ــ المؤمنون: ١٢ ــ ١٤.
٢ ــ (الانسان... ذلك المجهول) تعريب الاستاذ شفيق اسعد فريد. ص ١١٥.
٣ ــ انظر كتاب (العلم يدعو للايمان) ترجمة الاستاذ محمود صالح الفلكي ص ١٣٧.
٤ ــ يقول المترجم: الكروموزوم هي وحدة المادة العضوية والعامل في نقل الصفات الوراثية.

والكروموزومة تكون النوية (نواة صغيرة) المعتمة التي تحتوي الجينة، والجينات هي العامل الرئيس الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو انسان. والسيتوبلازم[1] هي تلك التركيبات الكيماوية العجيبة التي تحيط بالاثنتين. وتبلغ الجينات (وحدات الوراثة) من الدقة أنها ــ وهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعاً التي على سطح الارض من حيث خصائصها الفردية واحوالها لنفسية وألوانها وأجناسها ــ لو جمعت كلها ووضعت في مكان واحد لكان حجمها أقل من حجم (الكستبان).

وهذه الجينات الميكروسكوبية البالغة الدقة هي المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات، والكستبان الذي يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم، ومع ذلك فان هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها، فهل هذه الجنيات والسيتوبلازمات تحبس كل الصفات المتوارثة العادية لجمع من الاسلاف، وتحتفظ بنفسية كل فرد منهم، في مثل تلك المساحة الضئيلة؟ وما هو المحبوس هناك؟ كتاب تعليمات؟ صف من الذرات؟».

ودليل البعث في الآية الكريمة:

(١) أن يداً كونت الانسان هذا التكوين العجيب وابتدأت خلقه من تراب ثم من نطفة أمشاج، أن يداً كونته ولم يكن شيئاً مذكوراً، ليس من الكثير ولا من الصعب عليها أن ترد هذا المخلوق الى الحياة بعد أن يموت، وبعد أن يصبح رميما، وبعد أن تتفرق أجزاؤه. بل وبعد أن تتفجر ذراته.

وأن علماً أحاط بتلك الهباءات المتبددة فجمعها من كل صوب، وركّبها خلايا، ثم بناها جسما ونفخ فيها روحا، ليس من الغريب ولا من البعيد عليه أن يكون محيطاً بتلك الهباءات بعد أن تفرق فيؤلفا للخلق الجديد كما ألفها من قبل للخلق الأول.

(٢) وأن قدرة هيمنت على هذا الكائن من قبل أن يوجد فأعدّت له المناهج وألفت له العناصر وأخضعته للقوانين وعاقبت عليه الأوامر وأظهرت فيه الخوارق وتعهدته في كل أدواره بما تدعو اليه الحكمة وتبدو فيه القوة والمكنة ثم لم تزل مهيمنة عليه طوال حياته لا تغفل تدبيره لحظة، ولا يستغني هو عنها في آن. أن قدرة هذه هيمنتها على كل انسان لهي قدرة مستطيلة مطلقة لايمكن أن يستعصي عليها شأن من شؤونه ولا حال مرتقبة من أحواله.

(٣) والنظام الذي خطط لنشأة هذا الكائن، والتطور الذي مر عليه حتى أصبح انساناً تاماً سوياً له حزمه ونشاطه ووعيه وادراكه، هذا التطور الدائب الذي لايقف ولا ينحرف يدلنا على ان الانسان إنما خلق للكمال، والطبيعة إنما تدأب في تسييره لتبلغ به هذه الغاية، والمرء انما

١ ــ ويقول: السيتوبلازم هي المادة البروتوبلازمية التي حول نواة الخلية.

يكدح في حياته ليبلغها كذلك. وقد أتمّ الدين له هذا المنهاج، وضمن له بلوغ الكمال الأعلى اذا اتبع هداه.

وإذن فلا ينتهي طريقه بالموت.

ولا ينتهي مع هذه الحياة أبدا.

ماموت؟.

وما حياة يرد فيها الانسان الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً؟.

هذان هما النهاية المحسوسة لنشأة الانسان هذه، فهل يجوز أن يكونا هما النهاية الكبرى لذلك النظام الرتيب؟ وهل يجوز أن يكونا هما الغاية المقصودة من ذلك التدبير الحكيم، ولتلك القدرة القاهرة، ولذلك الدين القيم الحنيف؟.

إنهما ابتسار لا بلوغ غاية.

* * *

«وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بان الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير»[1].

وهذا مثال شاخص للبعث يعترض الانسان كل آونة و يراه في كل وجه.

للأرض حياة كما للانسان حياة.

وللأرض موت كما للانسان موت.

نعم كما للكائنات الحية التي تتألف من عناصر الارض، وتحيى وتعيش على ظهرها، وتغتذي وتنمو من ترابها، كماهذه المواليد حياة وموت فلأمها الأرض كذلك حياة وموت. وماحياة البنين الاّ قبسة من حياة الآباء.

وحياة الأرض هي هذه الطاقة التي توقظ البذرة اليابسة في أعماقها فتجذر، وتحيي الجذر الهامد في تربتها فينمو، وترفد الساق النابت في ثراها فيفرع، وتحبو الغصن من نشاطها فيورق، وتهب الزَهرة من روائها فتنضر، وتؤتي الثمرة من زكاتها فتطيب وتزكو.

هي مبعث هذه الحركة الدائبة الدائمة، ومصدر هذا الجمال النضير البهيج.

و يأتي على هذه البقاع حين من الدهر. على هذه الأرض التي كانت موطناً للخصب، وسبباً للبهجة. يأتي عليها بذاتها حين من الدهر ليس بالمديد، فاذا الحركة راكدة، وإذا الحياة هامدة، فلا إحياء لبذرة ولا إنماء لودية، ولا إرفاد لغصن ولا إمداد لساق.

لقد جف الينبوع فلا رفد.

وخمدت القوة فلا حركة.

١ ــ الحج: ٥، ٦.

وماتت الأرض فلا حياة.

ثم ماذا؟.

ثم ينـزل المـاء فتنتفض الأرض انتفاضة الحياة، وتتفتح فروجها للروح الدافق، وتنبسط ساريرها للنشاط البادي.

وتستأنف الحياة، وتجدد الحركة، و يعود الدور، فاذا كل نابتة تبتسم، وإذا كل ذاو ية تزدهر.

(ترى الأرض هامدة) هذه هي الحالة الراهنة التي تكون عليها الارض اذ تودع الحياة.

همود فلاحس ولا حركة كما يقول الله سبحانه في هذه الآية.

وخشوع فلاندى ولا بلّة كما يقول تعالى في سورة فصلت.

(فاذا أنزلنا عليها الماء) ونزول الماء يعني نزول العناصر التي فقدتها الأرض ففقدت معها الحياة. (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) وهذا تحديد علمي لصفة الأرض وهي تستجد الحياة. تحديد يعترف به العلم الحديث. يعترف به للحقيقة الثابتة. ولو أنصف لاعترف به كذلك للقرآن العظيم!!.

ولفظ الاهتزاز هنا يعني دبيب الحركة في الجسم مع دبيب الحياة.

والربو انتفاخ الأرض وتفتح مسامّها للعناصر الوافدة[1].

أنزل الماء على الأرض الهامدة فاهتزت وربت، إذن فقد استعادت الطاقة واستعادت الحياة واستعادت النشاط.

أما إنباتها من كل زوج بهيج فهو اثر يعلن عن الحياة وليس من مقوماتها. وفي سورة فصلت: «ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير»[2].

هذا هوالبعث؛احياء جسم فارقته الحياة.

وهذا هوالنشور؛انعاش حركة أخمدها الموت.

يحسه الانسان و يلمسه ولا يرتاب فيه ولايجادل.

فلمَ يشك إذن ولم ينكر إذا أُخبر بمثل ذلك عن نفسه؟!.

إذا قيل له ستبعث وتنشر. ستعود لك الحياة بعد الموت. ستتألف عناصرك بعد التفرق. ستحشر وتحاسب. وستلقى جزاء ما قدمت من عمل إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً؟!.

و بعد فان الآية الكريمة ذكرت نشأة الانسان الأولى وذكرت حياة الأرض الثانية ونسّقت

١ ــ ولفظ الاهتزاز في أكثر استعماله يشعر بنشوة تقارن الحركة واغتباط بموجبها. فلعلّ ذلك هوالسر في اختياره في الآية.

٢ ــ فصلت: ٣٩.

بين المعجزتين في الدلالة على البعث، ونسقت بينها في الدلالة على القدرة، ونسقت بينها في الدلالة على التدبير، ونسقت بينها في الدلالة على الموجد المبدئ المعيد وعلى علمه بما صنع، وعلى حكمته فيما دبّر.

ومن يشك ومن يمتري في أن نقلة الانسان العجيبة في أطوار نشأته الأولى، من يشك في أنّها تتطلب موجداً حياً يهب الوجود والحياة.

بصيراً يعلم دقائق العناصر ومختلف الخصائص، ويحيط بما يؤول اليه كل بسيط منها وبما يثمره كل تركيب.

قديراً تهيمن مشيئته على البسائط منها والمركبات، وعلى المبادئ والغايات

مدبراً يوجه كل طور منها بما يوائم الحكمة و يتعهد كل نشأة بما تدعو اليه الحاجة؟!

ومن يشك ومن يمتري في أن احياء الأرض الميتة وإخراج النبتة الطرية يستدعي أيضاً كل ذلك؟

من يرتاب في ان استخلاص ثمرة شهية أو زهرة شذية من عصارات يجود بها الطين، وجزيئات يؤتيها الماء، وغازات يمنحها الهواء، وطاقة تهبها أشعة الشمس، من يشك في أن استخلاص ذلك يتطلب علماً بدقائق علم الكيمياء وتفاصيل علم النبات ونواميس علم الحياة، وبجزيئات عناصر الأرض والماء والهواء والضوء ثم قدرة كاملة على مد كل جزيء بحاجته، وضم كل عنصر إلى إلفه، وشد كل حجيرة إلى أختها وربط كل طور بغايته؟.

ومد الموجد القادر العليم المدبر كل فرد فرد من بني الانسان، وكل بقعة بقعة من فجاج الأرض بالحياة، و بالتدبير و بالنظام الذي لا يختلف و بالتطور الذي لا يحيد و بالرعاية التي لا تغفل ولا تنسى.

فهو إذن دائم الحياة، دائم العلم، دائم القدرة، دائم الاحاطة، دائم الحكمة.

يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً. وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هوالحق، وأنّه يحي الموتى، وأنّه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

* * *

واثر هذه العقيدة عظيم في استصلاح القلوب، واستصفاء الضمائر، وتزكية العلانيات والسرائر، وربطها بالله مقدّر الموت والحياة، وواضع القوانين والجزاء، ومن بيده تصريف كل حركة واليه مردّ كل نسمة. بالله المحيط بخلجات القلوب. العليم بذات الصدور.

فـان الايمـان بـاليوم الآخر و بالميزان القسط فيه، و بالقضاء العدل، و بالجزاء الذي يخاف و يرجى. هـذا الايمـان متى تـفـجَّر ينبوعه في النفس وامتدت مجاريه الى أكنافها، وعم رواؤه كل نـواحيها، ومتى نهلت ونمت منه مشاعرها واستقامت عليه رغباتها وأشواقها كان قوة عاصمة للنفس من أن يغترها زيف أو يخدعها طلاء.

إن هـذا الايمان ينفذ بنظرها الى مكنون الحقائق و يبدي لها جوهر الأعمال و يضاعف لها قـوة الارادة، فلا تنخدع بهوى مردٍ، ولا تنزلق مع لذاذة زائفة، ولا تركن لما لا يحسن، ولا ترتطم بما لا يسوغ، ولا تزيغ عما يجب.

وتـسـتـمكن هذه العقيدة، وتتضاعف هذه الطاقة، و يتضخم هذا الرَّصيد، فاذا بالانسان لا يـعـدو قـانون الله قيد خطوة، ولا يصدف عن أمره مثقال ذرة، وإذا به عدل السر والعلن، مستقيم الغيب والشهادة، متزن الصفات والأعمال.

وتـفشو هذه العقيدة في الأمة، و يعم الإيمان بها أو يكاد، وتتوثق في نفوس أفرادها وتتغلغل في دخائلهم، وتسيطر على توجيه أعمالهم ومعاملاتهم واخلاقهم وأشواقهم، فاذا بالامة نموذج الأمانة الكاملة بين الأمم. ومثال الصدق التام للمجتمعات.

الأمـانـة الكاملة على كل امر حتى على مقدرات الحياة، والصدق التام في كل قول وعمل حتى في أحرج المواطن.

وإذا بمـعـاني الحق والعدل والحب والخير والجمال تبدو في كل خلة من خلالها، وكل عمل مـن أعـمـالها، واذا بصلاتها ووشائجها وعهودها لا تعقد الا حيث يأمر الله بان تعقد، ثم لا تنقض الا حـيـث يأمر الله بأن تنقض. لا تعقد ولا تقوم إلا على تلك المعاني الانسانية النبيلة، ثم لا تنقض ولا تضعف إلا من أجلها.

وإذا بـالأمـة مـتناصرة الآحاد متكتلة القوى موحدة الهدف والرأي والحركة فلا فوارق ولا فواصل ولا خصائص ولا طبقات ولا ملوك ولا صعاليك.

وإذا بسعادة الفرد منها هي سعادة الجماعة، واذا بصلاح الدين فيها هو صلاح الدنيا، وإذا بخير حياتها هذه هو خير حياتها الأخرى...

واذا بـعـقيدة البعث تجمع للانسانية كل معاني الهدى واذا بها تحقق لها كل أسباب الخير، «ولـقـد جـئـنـاهـم بـكـتـاب فـصلناه على علم هدى و رحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلا تأو يله، يوم يأتي تـأو يـلـه يـقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نـرد فنعمل غير الذي كنا نعمل، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون»[1] و يوم الجزاء هو يـوم الـتـأو يـل، يـوم تأو يل هذا الدين، وتأو يل كتابه المفصل على علم، والمنزل هدى ورحمة لقوم

١ ــ الاعراف: ٥٢، ٥٣.

يؤمنون.

والتأويل هنا يعني ما يؤول إليه الشيء، وما يؤتيه من ثمرة، وما يرتبط به من غاية.

يوم الجزاء هو يوم التأويل الذي تستعلن فيه النتائج، وتعرف فيه المصائر، فمغتبط حظي بالهدى فاستحق الرحمة ووفور النعمة، وخاسر قد خسر نفسه بخسران عاقبته، يتذكر حين لا ينفعه التذكر شيئاً، ويتمنى حيث لا تغنيه الأماني فتيلا.

يتذكر رسلا مطهرين دأبوا لهدايته واحتملوا الأذى لاسعاده فلم يلق لنصحهم بالا، ولم يخش في تكذيبهم معرة، ويتذكر حقاً أبلغته الرسل عن ربه فلم يهتد بنوره من ظلمة، ولم يشتف بطبِّه من عمى..

ويتمنى شفعاء الى الله ربه الذي كذب رسله وجحد بهداه وألحد في آياته وكفر بنعمائه، يتمنى إليه شفعاء يشفعون له عما فرط، أو مرداً من الحياة الأولى يتلافى فيه ما قصر، ومن له بالشفيع الذي لا يرد قوله؟ و(من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه؟) ومن له برجعة ما ولى واسترداد ما خلى؟.

انها أماني من خسر نفسه فخسر كل شيء وضل عنه ما كان يفتري وحاق به ما كان يمتري.

* * *

وهذه النفس الجهول الغفول؟.

نفس هذا الكائن الغريب الأطوار الذي يكاد لغرابته يجمع بين المتناقضات!

نفس هذا الكائن المتهافت، الذي يضم الى علمه الجم جهلا مطبقاً، وإلى ذكائه المفرط غفلة سادرة، وإلى قوته المدهشة ضعفاً شائناً معيباً!!.

إنه مخلوق عميق الفكرة حديد النظرة حين يستبطن مطاليب الحياة أو حين يستعرض مقتضياتها ويتقصى ملابساتها، وإنه شديد الأيد مرهف العزيمة قويُّ الشكيمة حين يتناول المطاليب والبواعث هذه إنجازاً ووفاءً.

ولكنه كليل النظرة، قليل التدبر في العاقبة، واهن الارادة والقوة حين تتعرض له المغريات والمثيرات. وهو كذلك كليل النظرة قليل التدبر في العاقبة، وأهن الارادة والقوة أمام انفعالاته وعواطفه، وهو كليل النظرة قليل التدبر في العاقبة واهن الارادة والقوة امام العادات الاجتماعية التي تحيط به وإن كانت شاذة، بل وان كانت خرافة وسخافة.

ومن أجل هذه المزالق التي يوافيها المرء أنىَّ اتجه به القصد. ومن أجل هذه المضاعف التي تتحكم بالانسان وتتغلب على سلوكه وتهوي بشخصيته وتقعد به عن سعادته، من أجل هذه العلل الكثيرة الخطرة على نفس الانسان وعلى غايته وعلى مجتمعه أيضاً أطال القرآن في تذكيره بيوم الجزاء، وفي عرض مشاهده ووصف شدائده، وتفصيل أحواله وتجسيم

أهواله.

وان التالي لآيات الله في كتابه العزيز المتبين لمراميها المتتبع لمواقع الاشارة فيها يجد أنه قد ربط تعاليمه كافة بهذه العقيدة حتى أوشك أن لا يغفل ذكرها عند حكم وأن لا يدع التصريح بها او التلميح اليها في توجيه او وصية او إرشاد.

وهو يحذر الانسان أهوال يوم البعث و ينذره فزعه و يخوفه عدله.

وقد سماه يوم البطشة و يوم الحسرة، و يوم التغابن، و يوم الوعيد، و وصفه بان السماء تكون فيه كالمهل وأن الجبال تكون كالعهن... وسمى القيامة بالواقعة والقارعة، والطامة والصاخة، والآزفة والراجفة... وذكر الموازين القسط ليوم القيامة والصور والعرض والأشهاد والأصفاد والأغلال والانكال والنعيم المقيم والعذاب الأليم.

ثم هو يصور المواقف المرعبة ليوم الفصل، و يعرض المشاهد المخيفة التي تنتظر الانسان فيه والنهايات المسعدة أو المخزية التي تعقبه. نهايات المطيعين المتقين في جناتهم ورضوانهم، ونهايات العاصين المتردين في شقائهم ونيرانهم.

وهو يهز المشاعر المختلفة، و يحرك الاحساسات المتنوعة و ينبه الوعي الغافي، و يوقظ الضمير الغافل، و يكشف للبصيرة ما ينتظرها من عاقبة مسرة أو مغبة محزنة، و يحذرها الغفلة، و يخوفها النكسة، وما يكون لها أن تغفل وما يكون لها ان تهزل وما يكون لها ان تنتكس وقد عرفت أسباب الانتكاس واستبانت لها سبل العافية، ما يكون لها أن تغر وما يكون لها أن تتردى فكل عمل عليه رقابة وكل عمل عليه جزاء. «وكل صغير وكبير مستطر»[1]. و«كل امرئ بما كسب رهين»[2].

وحتى ما تنطوي عليه الجوانح وماتهم به المشاعر عليه رقيب لا يجهل ولا يغفل، وحسيب لا يضل ولا ينسى، ومجاز لا يحيف ولا يخادع. «واسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير»[3].

و بعد كل هذا فعون الله ورحمته ورأفته ومغفرته تقيل العاثر وتقبل النادم، وتجيب المضطر، وتؤمن الخائف، وتقوي الضعيف وتؤنس المستوحش.

هكذا يشد القرآن أزر المسلم و يمسك بعضده و يسدد خطاه و يقيه المزالق فلا يدع للغفلة اليه سبيلا ولا يترك للضعف ولا لليأس على ارادته دليلا، وهذه بعض مرامي الأدلة الغفيرة التي حثت على تلاوة الكتاب والتدبر في آياته.

إن المسلم لن يغفل ولن يجهل، ولن يخور ولن يذل فكتاب الله قائده وسائقه، يرشده

١ ــ القمر: ٥٣.
٢ ــ الطور: ٢١.
٣ ــ الملك: ١٣، ١٤.

في كل خطوة و يسدده عن أي كبوة.

* * *

هذا هو دين الله في ينابيعه العميقة المكينة من نفس الانسان، ومن فطرته، ومن ركائز الكمال فيه، ومن أشواقه الذاتية الملحة التي تدفع به الى التسامي، وتتنكب به عن الهون، وترتفع به عن سفساف الأمور ونواقص الأعمال والصفات.

ومن الاتساق الكامل الشامل الذي يجب أن يتحقق بين نظام الانسان في السلوك ونظمه الأخرى في الطبيعة وسائر النظم الكونية التي يزخر بها الملكوت.

ومن هذا الوله الاجتماعي الذي يدبُّ عليه الانسان و يشب، والذي يعقده بنوعه عقدة الجزء بكله، ثم من هذا الاجتماع الضروري للبشر من شتى نواحيه والذي تقتضيه فطرته وتقتضيه طبيعته وتقتضيه خصائص تكوينه وفاقات حياته، هذا الاجتماع الذي لا بدَّ فيه من تعميم الروابط و من تقرير الحقوق، ومن ضمان السلامة والثبات للروابط المحددة، والحقوق المقررة.

ومن النظرة العميقة المستوعبة لطاقات هذا الكائن ولضروراته وملابساته، ثم التوزيع الدقيق العادل لكل ضرورة حسب ما تقتضي ولكل ملا بسة قدر ما تستوجب، ومن كل طاقة مبلغ ما تحتمل.

وهذا هو دين الله في عقائده القوية الجلية التي تجري مع الفطرة في بساطتها ومع البرهان في قوته، ومع حقائق الكون في ثباتها واطّرادها، فلا تعتاص على الذهن البدوي البسيط، ولا تضوى في الفكر الفلسفي العميق، ولا تلتاث على اي باحث مهما كان وعيه ومهما كانت طريقته، مهما كان وعيه في الادراك ومهما كانت طريقته في الاستنتاج، شريطة ان لايحمل فكره على نتيجة مقتسرة أو يلجئه الى غاية مبتسرة، وشريطة أن يؤثر الحق في بحثه، وأن ينصف العقل في اقتناعه.

هذا هو دين الله في عقائده التي تمتدُّ آثارها الى كل وصية من وصايا الدين، وتنفذ أضواؤها الى كل خليقة من خلائق المسلم، والتي تصوغ المؤمن بها حق الايمان مخلوقاً جديداً لايعرف الكسل ولا الفشل ولا التردد ولا الالتواء، بل كله للجد وكله للحزم وكله للاستقامة وللفضائل البناءة وللسعي المبارك المثمر.

و هذا هو دين الله في غاياته الجامعة التي أعدّ لها الانسان بتكوينه، وأعد لها بطبعه وأعد لها بغرائزه وأشواقه.

في غايته التي تواكب غايات هذا الوجود وتتآصر مع حركاته، وتنتظم مع قوانينه، وترتبط معه بمبدئه و معاده.

في غايته التي تغذي اشواق هذا الكائن، وتحقق آماله، وتجلو خصائصه، وتستثمر نشاطه، وتعتلي بملكاته، وترتفع بنزعاته والتي توجب له خلود الحياة، وخلود السعادة، وخلود

الكمال، والتي تشد الفرد منه بمجتمعه، وتشد الفرد والمجتمع منه بربه.

وهذا هو دين الله في مناهجه القويمة التي تصلح البشري في سره وعلانيته، وفي سكونه وحركته.

في أبطن البواطن من ميوله وعواطفه وخلجاته وانفعالاته، وفي أظهر الظواهر من أخلاقه ومظاهره وأعماله وأقواله.

في ركائز تربيته ومناهج تثقيفه وطرائق تعليمه.

في وشائجه المختلفه. ووظائفه المتنوعة.

في عبادته لله حين يعبد، وفي سعيه في الحياة حين يسعى، وفي صلته مع الناس إذ يتصل، وعزلته عنهم إذ يعتزل.

في حبه وكراهته، ورضاه وغضبه. وعداوته وصداقته.

في خصومته حين يخاصم، وسلمه حين يسالم، وفي مناهج حكمه وموازين حربه وسلمه.

في مزرعته وهو يزرع، او في مصنعه وهو يصنع، أو في متجره وهو يتجر، أو في حرفته وهو يحترف، ثم في جهده وهو يجهد، وفي راحته وهو يستجم.

في صلته بالمالك إذا كان عاملا، ورابطته بالعامل اذا كان مالكاً، وبالعملاء اذا كان ممتهناً.

في أواصره مع أرحامه الأدنين ومع أصدقائه الأقربين ومع شركائه في الأسرة وزملائه في العمل، ثم مع اخوانه في الدين وأكفائه في البشرية، وفي الحقوق التي تجب عليه لأي واحد من أولئك كلهم والواجبات التي تثبت له عليهم، والضمانات التي تصان بها الحقوق والواجبات.

هذا هو دين الله في مناهجه القويمة التي تصلح البشري في كل انحائه، وتصف له العلاج الواقي من كل أدوائه، وتسد كل ضرورة له في الحياة وتجيب كل تطلع في الفطرة وتروي كل غلة.

وهذا هو دين الله في أدلته وبيناته ملء الملكوت الرحب، وملء الفضاء العريض، وملء هذا الكرسي العظيم الذي وسع السموات والارض، وبعدد ما في الفضاء من مجرة، وعدد ما في المجرات من شمس، وعدد ما يتبع كل شمس من كوكب وقمر، وبعدد مافي الفضاء النجوم والكواكب والاقمار من مركب وبسيط، وبعدد مافي ذلك من ذرة، وبعدد ما فيه من طاقة وبعدد ما له من نظام وما فيه من قانون..

كل أولئك دليل الارتباط بقوانين الله ودليل الخضوع لحكمته في ما يدبّر، والاسلام لارادته في ما يقدر، كل أولئك دليل الدين الحق والشريعة الصواب، شريعة الله التي يجب أن

يقررها لهذا الكائن كما قررها لكل كائن.

وكل أولئك دليل الاسلام على قواعده وعقائده وعلى منابع القوة فيه، ومجالي الحكمة في شرائعه.

ثم هذا هو دين الله في مراميه البعيدة من وراء تلك العقائد، ومن وراء تلك المناهج، مراميه العالية التي تمكن لغايته الكبرى. في اعلاء هذه الحياة، وتطوير شؤونها وترقية فنونها وإصلاح حركاتها وفتح مقفلاتها.

إن إرساء العقيدة في هذا الدين وتثبيت دعائمها وشد اركانها لن يقوم إلا على تعرُّفِ خبايا الكون، وتفهم اسرار الخلق، والوقوف على مدهشات الحياة، والتدبر في روائع الطبيعة، لن يقوم إلا على التفكير الجاد في ملكوت الله، والتأمل العميق في مظاهر حكمته وشواهد قدرته. وهذه اولى معاقدة مع العلم تبدأ مع اولى انطلاقة من الدين، وأول إعداد لترقية الحياة يضعه الاسلام مع أول همسة له في مسمع الانسان.

وان استبانة مناهج الله المشرعة لاصلاح هذا المخلوق وتزكية ملكاته وتنمية مواهبه، وتقويم غرائزه وطباعه، وتوجيه قواه وطاقاته، ان استبانة هذه المناهج واستيضاح دقائها واكتشاف ينابيع العدل وروافد القوة فيها، ان العلم بذلك حق العلم يفتقر الى دراسة هذا الانسان من شتى نواحيه وشتى أطواره وشتى علائقه، ودراسة نواميس الكون التي تحكمه، وانظمة الحياة التي تسوده، وقوانين الطبيعة التي تشمله، ومقادير الضرورات التي تحدق به والطوارئ التي تنتابه، يفتقر الى دراسة كل هذه المناحي من الانسان ومن بيئته الطبيعية دراسة دقيقة مستوعبة، ليعلم بعد ذلك دقة الحكمة في هذه المناهج، ومبلغ العدل في ملاحظاتها ومرامي التشريع فيها.

وان إسعاد البشر والارتفاع بمكانته، والتحليق بفرده ومجتمعه الى المنزلة السامقة الكريمة التي أهل لها لما استخلف في هذه الارض واستعمر فيها.

لما جعل السيد المطاع والرئيس المرموق على ظهر هذا الكوكب.

لما أودعت فيه هذه النفخة من روح الله وهذه القبسة من نوره.

لما كرمه الله وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات، وفضله على كثير مِمَّن خلق تفضيلا.

ان إسعاد البشر والارتفاع به الى المنزلة الخطيرة يفتقر الى تفقيهه أسرار الحياة وتبصيره مدارج الرقي فيها، ووضع يده على مفاتيح كنوزها ومقاليد رموزها. وهذا ما دأب فيه الدين وبذل له أقصى جهده، وأناط به وفرة كبيرة من تعاليمه.

وبعد فان الحركة في الحياة لتند وتشذ، وان القوى المحركة لها لتخرج عن الاتزان والاتساق، وان سبل الانطلاق فيها لتعول وتجور، فهي محتاجة أبداً إلى الاصلاح، وهي

محتاجة أبداً إلى القوامة.

ومن أحق باصلاحها من الله بارئ وجودها ومنشئ قواها وواضع قوانينها؟

ومن أولى بالقوامة عليها من الانسان... من هذا المخلوق الواعي الذي يملك الشعور ويملك الارادة ويقوى على الاصلاح؟.

فليشرع له ربه قوانين الاصلاح، وليتولّ هو دور التطبيق والرعاية.

ليشرع رب الحياة قوانين الاصلاح فيها لأنه شارع انظمة الكون وعالم أدوائه، وليتول الانسان دور التطبيق لتلك الانظمة، فان الرقي بالحياة من عمله، وان الانتكاس فيها من زلله.

و إنها لكرامة كبيرة لابن آدم أن يكون ربه هو الناظر له في شؤونه والزعيم بسعادته و الكافل بتوجيهه وإنها لكرامة كبيرة كذلك أن يعهداليه بالقوامة على الحياة، والتقدم بها في شتى الميادين، والارتقاء بها في مختلف النواحي.

إنها لكرامة كبيرة مضاعفة لابن آدم أن يشرع له ربه القوانين وأن يتولى هو تطبيقها، ومن الغرور أن يظن بنفسه اكبر من هذه القدرة، و يدعي لها أسمى من هذه المنزلة. ولقد جرب نفسه في شتى عصوره أنه لا يستطيع ذلك اذا صدف عن هدايات الله وتنكب شرائعه.

بلى قد يحصر اهتمامه في ناحية أو اكثر من نواحي حياته فيسمو بها حتى يوفي على الغاية او يكاد، على حين أن الضعف الانساني يتجمع عليه في نواحيه الاخرى فيهوي بها هوياً يساوي رقيه في تلك او يزيد، فرقي الانسان الغربي مثلا في حضارته المادية أمر لا ينكر، ولكن هبوطه بل سقوطه في موازين الخلق وضعفه في قيادة الروح شيء لا ينكر ايضاً.

هذا هو دين الله في ملامحه الجلية التي لن تختفي على ناظر، وفي براهينه القوية التى لن تختبئ على شاعر، وفي مميزاته الفريدة التي لن تلتبس على منصف، وفي خصائصه العظمى التي لن يعدوها حق، ولن تتجاوز عن عدل، أقدّمه لقرائي في هذا المجهود، فان كنت أحسنت التقديم فذلك حسبي والحمد لله كفاء فضله ومبلغ علمه.